الأرض الطيّبة

بيرل باك

القصص العالمية للجميع

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

القصص العالمية للجميع

الأرض الطيّبة

بيرل باك

ترجمة

د. ابراهيم اسكندر

منشورات

المكتبة الحديثة - بيروت

دار الشرق العربي - بيروت

مؤلفة الرواية

ولدت (بيرل سيدنستريكر بك) Pearl Sydenstricker Buck في بلدة (هيلز بورو) بولاية فيرجينيا الغربية بأمريكا يوم ٢٦ يونية سنة ١٨٩٢ وقبل أن تتم السنة الاولى من حياتها سافرت الى الصين حيث كان أبوها يشتغل بالتبشير . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها الحقت بمدرسة داخلية فى شنغهاى . ثم عادت لأمريكا بعد سنتين والتحقت بكلية (راندولف – ماكون)

ولما عادت الى الصين قضت سنوات فى شمالها ، ثم انتقلت الى مدينة نانكين حيث عملت مدرسة للآداب الانجليزية بجامعة نانكين ، ثم فى الجامعة الجنوبية الشرقية ، ثم فى جامعة (شنج – يانج)

وفى سنة ١٩٢٥ عادت الى أمريكا حيث حصلت على درجة الاستاذية من جامعة (كورنيل) وفازت بجائزة (لورا مسنجر) للتاريخ عن موضوع « الصين والغرب »

وأول رواية أخرجتها هى « ريح الشرق ، التى ألفتها خلال رحلتها الثانية لأمريكا . ثم أخرجت رواية « ريح الغرب » فى سنة ١٩٣٠ . وفى السنة التالية أخرجت رواية « الأرض الطيبة » فاعجب بها النقاد جميعا ، ومكثت واحدا وعشرين شهرا فى طليعة الكتب الشديدة الرواج . وقد حازت جائزة (بوليتزر) لأحسن رواية لمؤلف أمريكى ظهرت فى تلك السنة ، وترجمت بعد ذلك الى ما يقرب من عشرين لغة ، ومنها اللغة الصينية ، فقد ظهرت بها فى ثلاث طبعات مختلفة . ثم اقتبست منها رواية مسرحية . كما اقتبست منها شركة (مترو – جولدوين – ماير) فيلما سينمائيا عرض فى جميع أرجاء العالم !

وظهرت لها بعد ذلك رواية « الأبناء » . وهى تتمة لرواية « الأرض الطيبة » – فى سنة ١٩٣٢ . وقد وصفها وليم ليون فيلز بأنها من المؤلفات الممتازة فى العصر الحديث . ثم ظهر الكتاب الأخير عن أسرة وانج فى سنة

١٩٣٥ باسم « بيت منقسم على نفسه » . وصارت الروايات الثلاث تباع فى مجلد واحد بعنوان « بيت الأرض »

وفى خلال ذلك ظهرت لها فى سنة ١٩٣٤ رواية قائمة بذاتها باسم « الأم » . كما نشرت لها قبل ذلك ترجمة لأشهر قصة صينية وهى قصة (شوى هو شوان) وقد جعلت عنوانها بالانجليزية : « كل الناس اخوة ».

وفى سنة ١٩٣٦ نشرت لها روايتا « المنفى » و « الملك المقاتل » وكانتا ترجمة لحياة أمها وأبيها . وفى سنة ١٩٣٨ كتبت لأول مرة عن الحياة الامريكية فى رواية «القلب الفخور» ، وكانت الحلقة الاولى لسلسلة روايات عن النساء الامريكيات

وقد منحتها جامعة (ييل) فى سنة ١٩٣٣ درجة الاستاذية الفخرية فى الآداب. وفى السنة التالية انتقلت الى امريكا حيث اقامت بها ومنحت ميدالية هويلز سنة ١٩٣٥ واختيرت عضوا فى المعهد الوطنى للفنون والآداب سنة ١٩٣٦ . ثم منحتها الاكاديمية السويدية جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٣٨ « لوصفها الدقيق الواضح للحياة الصينية الريفية » . كما منحت درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب من جامعة فيرجينيا الغربية وجامعة سانت لورنس

وفى سنة ١٩٣٩ نشرت لها رواية « الوطنى » . وأعقبتها فى سنة ١٩٤٠ بروايتها الثانية عن الحياة الامريكية واسمها « آلهة آخرون » . ثم أثرت فيها الحرب فنشرت فى سنة ١٩٤٢ رواية عن أهوالها باسم «بذرة الفول». وأخرجت تكملة لها فى سنة ١٩٤٣ باسم « الوعد »

وفى خلال ذلك نشرت لها مئات من المقالات والقصص الصغيرة ، كما ألقت كثيرا من المحاضرات . وطبع بعضها فى ثلاثة مجلدات . كما طبع بعد ذلك مجلدان شملا قصصا صغيرة كتبتها ، وأربعة كتب ألفتها خصيصا للأطفال . وأسست (جمعية الشرق والغرب) وتولت رياستها ، وغايتها التقريب بين الشرقيين والغربيين . وهى تكتب كل شهر نقدا للكتب فى مجلة (آسيا وأمريكا) ، كما أنها مستشارة لشركة (جون داى) وتتولى مراجعة ما يكتبه لها الروائيون المبتدئون

مقدمة المؤلفة

ألفت هذا الكتاب « الأرض الطيبة » منذ أربع عشرة سنة فى مدينة (نانكين) باقليم (كيانجسو) بالصين . وقد كتبته فى غرفة مكتبى ، وكانت غرفة هادئة بالسطح تطل نوافذها على سقوف المنازل القائمة وراء سور المدينة ، وعلى مقبرة (سون ـ يات ـ سن) البيضاء التى تسطع على سفح الجبل القرمزى اللون هناك

والناس الذين كتبت عنهم فيه لم يكونوا يعيشون فى ذلك الاقليم الغنى ، وانما هاجروا الى (نانكين) فى الجنوب حين اضطرتهم المجاعة الى المهاجرة من موطنهم فى اقليم (أنهوى) الشمالى . وقد عشت فيه فترة من الزمن قصيرة عن قرب . وقد عادوا الى ذلك الاقليم بعد انتهاء المجاعة

على أن تلك المدينة التى فى الجنوب (نانكين) . وذلك الاقليم الذى فى الشمال ، هما الآن مثل كل الشاطىء الشرقى للصين ، تحت سلطان الاحتلال (١) والبيت الذى كنت أجلس فيه هادئة مطمئنة قد احتله اليابانيون . ومن يدرى ما ارتكبوه فى تلك الغرفة من غرائب الفعال ! وقد عانت مدينة نانكين هجوما قاسيا شنيعا من العدو ، وقتل آلاف من أهلها ونهبوا واغتصبت نساء كثيرات . والبيوت الجميلة التى كانت الحكومة الصينية قد شيدتها حين اتخذت من (نانكين) عاصمة للصين الجديدة ، هى الآن مسرح لا يظهر عليه سوى أشباح الحكام المحتلين ومعاونيهم القساة !

وأيا ما كان الأمر فانى واثقة من أن أشخاص « الأرض الطيبة » لا يزالون أحياء ، ذوى قوة وعزم ووفاء للأرض التى يحبونها . وسيكونون هناك حين يطرد العدو من بلادهم ، وسيعود أبناؤهم من الجيش ـ ما عدا الذين ماتوا فى سبيل وطنهم ـ ليضعوا الأسس من جديد . واذا كانت الانسانية قد أفادت من سنوات الحرب هذه ، فلا شك أن الفائدة الكبرى لهذه الحرب أنها أبرزت للعالم صفات المجد والبطولة والتضحية وما اليها من صفات الشعب الصينى البسيط العظيم !

بيرل . س . بك

(١) كتبت المؤلفة هذه المقدمة فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ حين كانت الحرب تدور مع اليابان

حياة جديدة

كان اليوم يوم زواج (وانج لنج) . وحينما فتح عينيه في فجر ذلك اليوم وردد بصره في عتمة الستائر حول سريره ، خيل اليه أنه يختلف عن فجر سائر الايام . وكان السكون يشمل البيت ، لا يقطعه الا سعال أبيه الشيخ الذى يقطن الغرفة المواجهة لغرفته ، وقد اعتاد وانج لنج أن يقبع فى فراشه ولا يغادره الا اذا سمع ذلك السعال يقترب فى الصباح ثم يعقبه صوت باب غرفة أبيه وهو يغلقها وراءه .

غير أنه فى صباح هذا اليوم لم يصبر ولم ينتظر ، بل قفز من فراشه وأزاح الستائر التى حول سريره . وكان الفجر قد انبثق ولم ينتشر الضوء بعد ، فنظر من خلال ثقب صغير فى الورق الذى يغطى النافذة ، ثم أخذ يمزق هذا الورق ويقول لنفسه : « نحن الآن فى الربيع ، فلست بحاجة الى هذا ! »

وكأنما خجل من أن يجهر برغبته فى أن يكون البيت نظيفا فى هذا اليوم ، ومد يده من خلال النافذة ليتحسس الهواء ، وبدا أثر البشر والتفاؤل فى وجهه اذ هبت ريح هادئة رقيقة من الشرفة ، تبشر بقرب هطول المطر الذى تحتاج اليه الحقول لكى يثمر زرعها . ثم ابتسم اذ تذكر ما قاله لأبيه أمس من أن الشمس ان ظلت على اشراقها فلن تنتج الحقول من القمح ما يملأ كفا !.. ومضى يحدث نفسه قائلا : « شكرا للسماء !.. لكأنما اختارت هذا اليوم بالذات لتبارك زواجى فتزف الى البشرى بمطر غزير فقمح وفير ! »

وخرج مسرعا الى الغرفة الوسطى التى تفصل غرفته عن غرفة أبيه ، وكان قد ارتدى سروالته الزرقاء وشد الى وسطه حزاما أزرق مثلها ، وترك نصف جسمه الأعلى عاريا ريثما يسخن الماء ليغتسل .. ثم مضى الى الكوخ المجاور الذى يتخذونه مطبخا ، فدخله بعد أن نحى عن بابه رأس الثور الواقف به . وكان المطبخ كالبيت كله مبنيا من اللبن (الطوب النيىء) المجفف فى الشمس بعد صنعه من الطين والتبن . وفيه الفرن الذى شيد فى عهد جده ولم يجدد بعد ذلك ، فصار لونه أسود قاتما لطول عهده بتراكم الدخان والغبار .. فوضع (وانج) فيه قدرا مدورة ضخمة من الحديد بعد أن ملأها بالماء الذى اغترفه من آنية هناك بنصف قرعة مجففة!

وكان حذرا جدا وهو يغترف الماء حتى لا يقع على الارض شيء منه ، ولا عجب فالماء من الاشياء الثمينة التى يجب الحرص عليها . ثم ما لبث قليلا حتى أخرج القدر من الفرن وصب كل الماء الدافىء الذى بها على جسمه وهو فرح فخور .. انه منذ كان طفلا صغيرا فى حجر أمه لم ير أحد جسده قط ، أما اليوم ، فهناك زوجة سترى جسده ولهذا يجب أن يكون نظيفا !

ولما فرغ من ذلك ، خف الى ما وراء الفرن حيث أخذ من ركن بالمطبخ مقدارا من الاعشاب الجافة وقذف بها فى فوهة الفرن لتجديد النار المشتعلة فيها ، وكان يحدث نفسه أثناء ذلك بأن هذه هى آخر مرة يشعل فيها بنفسه نار الفرن فى الصباح ، بعد أن ظل يشعلها صباح كل يوم منذ مات أمه قبل ست سنوات ، ليعد ماء ساخنا يصبه فى آنية ويحملها الى أبيه الذى يجلس حينئذ فى فراشه يسعل كعادته ويبحث بيديه عن حذائه فوق أرض الغرفة كأنما يريد أن يستعجله ليهدىء بالماء الساخن من نوبة سعاله فى الصباح !

لقد آن للأب والابن كليهما أن يستريحا ، فهناك امرأة ستأتى الى البيت ، وليس على (وانج لنج) بعد اليوم أن يستيقظ فى الفجر كل يوم ، صيفا وشتاء ، لكى يوقد النار ، بل انه سيمكث فى فراشه حتى تحضر اليه أيضا آنية ماء حار ، واذا كان المحصول جيدا فسيكون فى الماء بضع أوراق من الشاى !

وأمعن فى تخيلاته ، وشعر بشيء من الرثاء لتلك الزوجة فلعل هذه المهمة ستثقل عليها !. لكنه قال لنفسه : « ان أطفالها سيوقدون النار بدلا منها فهى ولا شك تلد لى أطفالا كثيرين ! »

وهنا توقف عن التفكير فقد بهرته فكرة وجود أطفال يجرون فى الغرف الثلاث التى يتكون منها المنزل !.. لقد كانت هذه الغرف الثلاث كثيرة بالنسبة له ولأبيه ، وكان البيت يبدو نصف خال منذ وفاة أمه . وكان أبوه لا يفتأ يرد عن البيت أقارب أكثر عددا ، وكثيرا ما قال له أخوه ذو الاطفال العديدين : « كيف يقطن شخصان اثنان فقط منزلا فسيحا كهذا ؟.. ينبغى أن ينام الابن الشاب مع أبيه الشيخ فى سرير واحد ليدفىء جسمه ! » . واذ ذاك يرد الشيخ قائلا : « اننى أدخر سريرى لحفيد سوف يأتى فيدفىء عظامى فى الكبر ! »

والآن سوف يأتى الأحفاد ، بعضهم تلو بعض ، حتى ليتطلب الأمر وضع سرر لهم الى جانب الحيطان وفى الغرفة الوسطى كذلك ، ويمتلىء البيت بالسرر !

وانطفأت النار فى الفرن ووانج يفكر فى أطفاله القادمين ، وبدأ الماء يبرد فى القدر ، وبدا أبوه الشيخ فى عرض الباب ملتفعا بثيابه من غير أن

يوثق أزرارها وكان يسعل ويبصق، ثم سأله : « لماذا لم تأت بالماء الساخن بعد ليبعث الحرارة الى صدرى ؟ »

فتذكر وانج لنج ما كان بصدده وتولاه الخجل ، وغمغم من وراء الفرن قائلا : « ان الوقود رطب والريح رطبة ... »

وقطع كلامه اذ عاد أبوه الى السعال بغير انقطاع ، ولم يزل كذلك حتى غلا الماء فى القدر ، فأنزلها (وانج لنج) على الارض ، وصب بعضه فى آنية كان قد أعدها لذلك ، ثم أخذ بعض أوراق جافة من وعاء لامع ونشرها على سطح الماء ، وهنا اشتد جحوظ عينى أبيه، وصاح به وهو لا يزال يسعل : « ما هذا التبذير ؟. ان من يشرب الشاى كمن يأكل الفضة ! »

فرد عليه وانج قائلا وهو يبتسم : « ان اليوم له شأن آخر ، فاشرب واغتبط يا أبتاه ! »

وأمسك الشيخ الآنية بيديه الجافتين وهو لا يزال يهمهم بكلمات النقد واللوم ، وأخذ ينظر الى أوراق الشاى وهى تتفتح فوق سطح الماء وكأنه يأبى أن يتجرع هذا الشراب الثمين ، فقال له ولده : «ان الشاى سيبردا»

فقال الشيخ : « صدقت ! »، ثم أخذ يرشف جرعات كبيرة من الشاى، وقد بدت فى وجهه دلائل الرضا كشأن الطفل اذ يعجبه ما قدم له من طعام. على أنه لم يفته أن يلاحظ على ابنه أنه يصب الماء بلا اكتراث من القدر فى وعاء عميق من الخشب ، فرفع رأسه وصعد فيه بصره وقال له : « ماذا تصنع ؟. ان هذا الماء يكفى لانتاج محصول وفير ! »

ولم يجب وانج بل استمر يصب الماء حتى آخر نقطة منه وهو ساكت ، فقال له والده محنقا : « ماذا دهاك ؟ »

فأجابه بصوت خافت : «اننى لم أغسل جسدى منذ عيد رأس السنة !»

وكأنما خجل من أن يصارح أباه بأنه يريد أن ينظف جسده قبل ان تقع عليه عينا امرأة !. ثم سرعان ما حمل الوعاء ومضى به الى غرفته فدخلها وأغلق بابها خلفه . بينما نهض أبوه الشيخ ومشى متعثرا الى الغرفة الوسطى حيث وضع فاه فى فتحة الباب المغلق بغير احكام وصاح بابنه قائلا :

ـ لا يجدر بنا أن نبدأ مع المرأة هكذا : شاى فى مطلع الصباح وكل هذا الاستحمام !

فرد عليه وانج من وراء الباب قائلا : «انه ليوم واحد !.. ثم انى سأرش الارض بالماء بعد أن أغتسل وهكذا لن يضيع بغير فائدة ! »

فسكت الشيخ ، بينما فك الشاب حزامه ثم تجرد من ثيابه ، وغمس

فوطه صغيرة فى الماء الساخن وأخذ يحك بها جسمه الأسمر النحيل حتى صار البخار يحيط به . ثم ذهب الى صندوق كان لأمه وأخرج منه ثيابا زرقاء جديدة من القطن .. انه قد يشعر اليوم بالبرد اذا خلع عن نفسه ثياب الشتاء السميكة . غير أنه لم يرض أن يضع هذه الثياب الخلقة على جسمه النظيف . ولم يحب أن تراه عروسه أول مرة فى مثلها !. وصحيح أنها بعد حين سيكون من واجبها أن تغسل الثياب وترقعها ، ولكن لا ينبغى أن تفعل ذلك أول يوم !

وارتدى فوق السترة والسراويل القطنية ثوبا طويلا من القطن ، كان قد اعتاد أن يرتديه فى أيام الأعياد وحدها ، أى نحو عشرة أيام فى السنة . ثم فك رباط ضفيرته الطويلة المدلاة فوق ظهره وتناول مشطا من الخشب وجعل يمشط شعره

وهنا جاء أبوه مرة أخرى ووضع فمه فى فتحة الباب وصاح قائلا : « أليس لى ما آكله اليوم ؟. انى فى مثل سنى هذه تبقى عظامى ليبنة رخوة كالماء حتى أزودها بالغذاء ! »

فهتف به وانج لنج وهو يربط شعره : « سآتى فورا !.. » . ثم فتح الباب وغادر الغرفة وهو يحمل وعاء الماء ليرش به الارض أمام الباب الخارجى للبيت

وكان قد نسى طعام الفطور ، فرأى أن يضع قدرا من الحنطة فى قليل من الماء المغلى ويقدمه لأبيه ، لكنه تذكر أنه استنفد كل الماء الذى كان فى القدر لاستحمامه ، وعليه اذن أن يوقد النار مرة أخرى ، فشعر بشىء من الكدر والضيق بأبيه وقال يحدث نفسه : « ان هذا الشيخ الفانى لا يفكر فى شىء عدا طعامه وشرابه ! »

وعزى نفسه مرة أخرى بأنه لن يعانى هذا التعب بعد اليوم ، فستكون هناك من تعد الطعام له ولأبيه الشيخ !. ثم مضى فوضع قليلا من الماء فى القدر بعد أن استمده من بئر قرب الباب ، فلما غلا الماء بعد قليل وضع فيه الحنطة ، ثم ذهب بالطعام الى أبيه ، وقال له :

ـ سيكون عشاؤنا الليلة أرزا يا أبى . أما الآن فاليك هذه « البليلة »

فقال الشيخ وهو يجلس الى مائدة بالغرفة الوسطى ويحرك الطعام بعودين صغيرين من الخشب : « لم يبق فى السلة سوى قليل من الأرز ! »

فقال وانج : « اذن .. نقلل من الأرز فى عيد الربيع » . ولكن الشيخ لم يسمع اذ كان مشغولا بازدراد الطعام الذى أمامه !

ثم ذهب الى غرفته ومر بأصابعه على حاجبيه الحليقين وعلى خديه فرأى أن يحلقهما من جديد . ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد ، ففى استطاعته أن يذهب الى شارع الحلاقين فيحلق رأسه هناك قبل أن يقصد

الى الدار التى بها زوجته .. نعم .. فى استطاعته ذلك ما دام معه ما يكفى من النقود !

وتناول من حزامه كيسا صغيرا وعد النقود التى به . وكانت ستة ريالات فضية وقبضتين من النقود النحاسية . ولم يكن قد أنبأ والده بعد بأنه دعا الى تناول العشاء مع عمه الشيخ وابن عمه الشاب وثلاثة فلاحين من الجيران ، ولا بأنه اعتزم لذلك أن يشترى لحم خنزير وقليلا من السمك وحفنة من أبى فروة . وقد يمكنه أيضا شراء مقدار من لحم البقر ليطهوه مع الكرنب الذى زرعه فى حديقته . ولكن هذا لا يكون الا اذا بقيت معه نقود بعد شراء الزيت وصلصة فول الصويا ، وبعد أجرة حلق رأسه !

ورأى وانج أن لابد من حلق رأسه على أية حال !.. فترك أباه الشيخ وغادر البيت فى باكورة الصباح وقد بدأت الشمس تشرق على السحب وتجفف الندى الذى على القمح والشعير . وكأنما استيقظت هواية الفلاح فى نفسه فأخذ يفحص السنابل التى لم تنضج بعد ولا تزال خالية تنتظر المطر لكى تمتلىء . ثم شم الهواء ونظر الى السماء فى قلق ، ولكن قلقه زال اذ رأى السحب معتمة ثقيلة بما تحمل من مطر ، ثم قال لنفسه : « يجب أن أشترى عودا من البخور لأضعه فى المعبد الصغير لاله الارض !.. أجل فى يوم كهذا اليوم يجب ألا يفوتنى مثل هذا الأمر ! »

ومضى فى طريقه وسط الحقول ، ثم وقف قليلا يتامل بيتا كبيرا يقوم عند مدخل سور البلدة ، فهذا البيت هو بيت « هوانج » الذى نشأت فيه المرأة التى ستصبح زوجته ، جارية رقيقة منذ طفولتها . ذلك هو بيت هوانج . ان بعض الناس يقولون : خير للانسان أن يبقى عازبا من أن يتزوج امرأة كانت أمة فى بيت كبير . غير أنه لما قال لأبيه : افلا اتزوج أبدا ؟ أجابه أبوه قائلا : « ان الزواج يكلف الانسان شططا فى هذه الايام فان كل امرأة تطلب لنفسها خواتم من ذهب وثيابا من حرير قبل أن تتزوج الرجل . فلا يبقى أمام الفقراء أمثالنا الا أن يتزوجوا بالاماء ! »

وتحرك أبوه بعدئذ وذهب الى بيت هوانج يسأل عن جارية قد تزيد على حاجة أهل الدار فيتزوجها ولده وقال : « أريد جارية لا تكون صغيرة السن ولا تكون بارعة الحسن ! »

وقد رضى وانج لنج على مضض بأن لا تكون زوجته جميلة ، وكان يود لو كانت له زوجة حسناء يهنئه الرجال بها ، ولما رآه أبوه عابسا صاح به قائلا : « وماذا تفعل بامرأة حسناء ؟.. اننا نحتاج الى امرأة تخدم البيت وتنجب الاطفال وتعمل فى الحقل . فهل المرأة الحسناء تفعل ذلك ؟.. انها لن تفكر الا فى الثياب الملائمة لها !.. كلا ! لا نريد امرأة حسناء فى بيتنا . اننا فلاحون . وسوى ذلك أين هى الجارية الحسناء التى تبقى عذراء فى بيت كبير ؟.. ان كل أسيادها الشبان يشبعون نهمهم منها . خير للانسان

أن يكون الرجل الاول لامرأة قبيحة من أن يكون الرجل الواحد بعد المائة لامرأة جميلة !.. وهل تظن أن امرأة حسناء تسر لرؤية يديك الخشنتين ووجهك الذى لفحته الشمس كما تسر لرؤية اليدين الناعمتين والوجه الناضر لابن أحد السراة ممن استمتعوا بها ؟! »

وأدرك أن أباه على صواب ، ومع هذا جاهد نفسه قبل أن يجيب بعنف:

ـ انى على الأقل لا أريد لنفسى امرأة فى وجهها آثار الجدرى ، أو تكون شفتها العليا مقطوعة !

فقال له أبوه : « سنرى ما يمكن الحصول عليه ! »

ولم تكن بالمرأة آثار من الجدرى ولا بشفتها العليا قطع ، وكان الشاب يعرف ذلك ولكنه لا يعرف شيئا سواه . وكان هو وأبوه قد اشتريا خاتمين من الفضة مطليين بالذهب ، وقرطين من الفضة كذلك ، وقد حمل أبوه هذه الحلى الى السيد الذى يملك الجارية دلالة على خطبتها . ولكن (وانج لنج) لا يدرى شيئا عن المرأة التى ستصبح زوجته سوى أن له أن يذهب هذا اليوم لأخذها !

ولما وصل الى بوابة البلدة وقف قليلا يتامل السقائين الذين يسيرون خارجها وهم يدفعون أو يجرون عربات محملة بأوعية كبيرة مملوءة بالماء ، وقد تدفق بعضه منها على أرض النفق المعتم لمدخل البلدة وجدرانه السميكة المشيدة من الطين والتبن . وكان الجو هناك باردا حتى فى أيام الصيف ولذا كان بائعو البطيخ يعرضونه على الرصيف وقد شقوه شطرين . ولكنه لم يجد هناك أحدا منهم وانما كانت هناك سلال مملوءة بالخوخ الاخضر أسندها باعتها الى الجدران وأخذوا يصيحون : « باكورة خوخ الربيع ! اشتر وكل وتلذذ أمعاءك من سموم الشتاء ! »

فقال وانج لنج لنفسه : « اذا كانت تحب الخوخ فسأشترى لها حفنة منه عند عودتى »

واتجه الى اليمين قرب نهاية البوابة قاصدا الى شارع الحلاقين . وكان قد سبقه الى هناك بعض الفلاحين ، وجلسوا عارضين منتجاتهم من الخضراوات ، وقد نفد أكثرها بعد أن لبثوا ساعات الليل الاخيرة الباردة فى هذه المهمة . وقد تفاداهم وانج لنج حتى لا يعرفه بعضهم ، اذ لم يحب أن يسمع شيئا من نكاتهم فى ذلك اليوم . وكان الحلاقون واقفين صفا خلف أكشاكهم الصغيرة ، فقصد الى أبعدهم وجلس فوق كرسى وأشار الى الحلاق وكان واقفا يتحدث مع جاره فجاء مهرولا وأسرع فصب فى وعاء نحاسى ماء ساخنا من اناء كان موضوعا على آنية فحم ، وسأل وانج بلهجة أرباب المهنة : « أتريد حلاقة كاملة ؟ »

فأجابه قائلا : « أريد حلق شعر رأسى ووجهى »

فسأله الحلاق : « ألا تريد تنظيف الأذنين والأنف أيضا ؟ »

فقال لنا في حذر : « كم يتكلف ذلك ؟ »

فغمس الحلاق قطعة من قماش سوداء في الماء الحار ثم أخرجها وقال له : « أربعة دراهم ! »

فقال وانج لنج : « سأدفع لك درهمين » . وهنا التفت الحلاق الى جار له وتبادل معه نظرات ماكرة ، ثم قال لوانج : « اذن .. أنظف لك احدى أذنيك وأحد خيشوميك فقط !.. فعلى أي جانبي الوجه تريد ذلك ؟ »

وأدرك وانج لنج من ضحك جار الحلاق انه وقع في يد ماكر خبيث لاذع النكتة ، وكان يشعر دائما بالنقص حيال أهل المدينة أيا كانوا ، فسارع الى القول : « كما تشاء .. كما تشاء ! » . ثم أسلم اليه رأسه ، فأخذ الحلاق يضع على رأسه ووجهه الصابون ويمسح ويحلق كما يريد، ومن حين لآخر يربت كتفه وظهره متطوعا لازالة توتر أعصابه ، ثم قال له وهو يحلق له جبهته :

ـ انك لن تكون فلاحا قبيح المنظر اذا حلق شعرك . ان الزي الحديث يقضي بقطع الضفيرة

وأخذ يعمل بموساه حول دائرة الشعر التي بأعلى الرأس ، فقال له وانج لنج :

ـ انى لا اقدر أن اقطعها بغير اذن من أبي !

فضحك الحلاق وترك تلك الدائرة ثم مضى في الحلاقة حتى اتمها ، فنهض وانج لنج ونقده الأجر المتفق عليه . وقد شعر وهو يضع النقود في يد الحلاق ، بانه أسرف أكثر مما ينبغي،غير أنه لما سار في طريقه وأحس وقع الريح على جلده الحديث الحلاقة شعر بارتياح وقال لنفسه : « انها مرة في العمر ! »

ثم ذهب الى السوق واشترى رطلين من لحم الخنزير ، وراقب القصاب وهو يضع اللحم في ورقة جافة من أوراق اللوتس . ثم اشترى بعدئذ ستة أرطال من لحم البقر ، وظل يقاوم تردده حتى اشترى كل ما تحتاج اليه مأدبة الطعام . وتوجه أخيرا الى تاجر شمع فابتاع عودين من البخور . ثم عاد أدراجه قاصدا الى دار (هوانج) في خجل شديد !

ولما صار بباب الدار تملكه الرعب ، وجعل يسائل نفسه : « كيف جئت وحدي ؟.. لقد كان الأولى أن يصحبني أبي أو عمي أو (تشنج) أقرب جار لنا ، أو أي انسان ! »

انه لم يدخل قط بيتا كبيرا من قبل . فكيف يدخل الآن وطعام الزفاف على ذراعيه ويقول : « لقد جئت من أجل امرأة ! »

ووقف بالبوابة الكبيرة المغلقة ينظر في حيرة الى خشبها الاسود والاطار الحديدي الذي يتوسطها ، ثم ينظر الى تمثالي الأسدين المقامين على جانبيها من الحجر للحراسة !. وأخيرا وجد أن من المحال ولوج هذا الباب ، وشعر باعياء مفاجيء فرأى أن يذهب أولا لشراء شيء من الطعام لنفسه اذ كان قد نسي أن يأكل !

وهناك في مطعم بشارع صغير قريب وضع درهمين على منضدة وجلس اليها فجاء غلام قذر الهيئة عليه مئزر أسود لامع فصاح به قائلا : « سلطانيتين من عصيدة الأرز ! »

ولما جاء بهما الغلام اليه أخذ يأكل ما فيهما بشراهة وهو يقذف الطعام الى فمه بعودين من القش ، بينما تناول الغلام الدرهمين بين ابهامه وسبابته ثم قال له : « أتريد مزيدا من العصيدة ؟ » . فهز وانج لنج رأسه نفيا وظل جالسا ينظر حوله ، ولم يكن هناك أحد يعرفه بين الجالسين الى المناضد الكثيرة بالمطعم يأكلون أو يشربون الشاي . وكانوا جميعا من الفقراء فبدا بينهم نظيفا أنيقا يكاد يحسب من الأغنياء حتى ان متسولا جاء اليه واستجداه ، فسره هذا لانه لم يحدث له من قبل قط ، ووضع في كشكول المتسول قطعتين من عملة صغيرة كل منهما خمس درهم فسارع المتسول الى دسهما في أسماله ومضى

وضاق خادم المطعم ببقاء وانج لنج جالسا من غير أن يطلب شيئا آخر ، فقال له بصبر نافد وقحة ظاهرة : « اذا كنت لا تريد أن تطلب لنفسك شيئا آخر فستضطر الى دفع ايجار لهذا الكرسي ! »

واغتاظ وانج لنج من هذه الوقاحة وهم بمغادرة المطعم غير أنه تذكر أن عليه أن يعود من هناك الى دار (هوانج) ليطلب امرأة ، فتصبب العرق من جسمه كما لو كان يكدح في الحقل ، وقال للغلام بصوت واهن : « احضر لي شايا ! »

فسأله الغلام : « أين الدرهم ثمن الشاي ؟ » . فنظر اليه مرتاعا ، ثم دفع اليه درهما آخر وغمغم قائلا : « هذه سرقة ! » . وفي هذه اللحظة لمح جاره الذي دعاه الى وليمة العشاء داخلا الى المطعم ، فركز بصره على اناء الشاي ، ثم تجرع ما فيه مرة واحدة ونهض مسرعا فغادر المطعم من باب جانبي . فلما صار في الشارع مرة أخرى قال لنفسه في يأس : « لابد مما ليس منه بد » . ثم مضى في خطى بطيئة صوب دار (هوانج)

كانت البوابة مفتوحة على مصراعيها ، اذ كان الوقت وقت ظهيرة ، وكان البواب جالسا في بلادة وهو ينظف أسنانه بعد الغداء بعود من القش ، وكان رجل طويل القامة ، له شامة كبيرة على خده الأيسر تتدلى منها ثلاث شعرات طويلة لم تقطع قط . ولما رأى وانج لنج قادما وهو يحمل سلة ظن أنه بائع فصاح به قائلا : « ماذا تريد ؟ »

فأجاب في تلعثم : « انني .. وانج لنج ... الفلاح ! »

فعاد البواب يسأله في دهشة : « وما شأني بوانج لنج الفلاح ؟! »

فاشتد تلعثم وانج لنج وهو يجيب قائلا : « لقد جئت ... لقد جئت ... نعم لقد جئت يا سيدى ! »

فقال البواب متبرما : « انى أرى أنك قد جئت !.. فماذا هنـــاك بعد ذاك ؟! »

فقال وانج لنج بصوت خافت كأنه همس : « ها هنا امرأة ! »

وعندئذ ضحك البـواب وقهقه وقال : « اذن أنت هو !. لقد كلفت أن نتظر عريسا اليوم . ولكنى لم أعرفك وأنت تحمل هذه السلة ! »

فقال وانج لنج معتذرا : « ان بها قليلا من اللحم »

وتوقع أن يقوده البواب الى الداخل ولكنه لم يتحرك من مكانه . وأخيرا سأله وانج : « أأدخل وحدى ؟ »

فبدا البواب وكأنه ارتاع لذلك ، ثم قال له : « تدخل وحدك ؟.. ان السيد الشيخ يقتلك لا محالة ! »

ولما لحظ السذاجة البادية عليه قال له : « ان قطعة صغيرة من الفضـة هى مفتاح نافع ! »

فأدرك وانج لنج أن الرجل يريد نقودا منه،وعندئذ قال له : « انني رجل فقير »

فقال له البواب : « دعنى أنظر ما فى حزامك ! »

وهنا وضـع وانج لنج الســلة التى يحملها على الارض ، ورفع ثوبه وأخرج من حزامه كيسا صغيرا ونثر ما فيه بكفه اليسرى فى سذاجة !.. وكان قطعة فضية وأربعة عشر درهما من النحاس.فقال له البواب ببرود : « سآخذ القطعة الفضية ! »

وقبل أن يحتج أو يرفض كان البواب قد أخـذها ووضعها فى كمه ثم تركه بالباب ودخل الدار فى خطى واسعة وهو يصيح قائلا : «العريس!.. العريس ! »

ولم يسع وانج لنج الا أن يتبعه برغم كدره مما حدث وفزعه من اعلان قدومه على هذا الشكل ، ومضى وهو يحمل السلة خلفه لا يلتفت يمينا ولا يسارا وعيناه الى الارض ووجهه يكاد يحترق خجلا كلما سمع صوت البواب يصيح بكلمة (العريس) فتجاوبه الضحكات من كل جانب . حتى اذا خيل له أنه مر بمائة غرفة أو أكثر ، وقف البواب فجأة ثم دفعه الى غرفة صغيرة للانتظار ، فوقف بها وحده فى حين غاب البواب فى غرفة أخرى وعاد بعد

لحظة يقول : « ان السيدة الكبيرة قد أمرت بمثولك أمامها ! »

وتقدم وانج لنج يريد الدخـول ولكن البواب أوقفه قائلا : « لا يمكنك أن تقابل سيدة عظيمة وأنت تحمل سلة على ذراعك .. سلة بها لحم خنزير وفول !. كيف تقدر أن تنحنى اجلالا للسيدة ومعك هذه السلة ؟! »

فقال له وانج لنج : « صدقت..صدقت يا سيدى ! » . غير أنه لم يرد أن يضع السلة على الارض خشية أن يسرق منها شيء . وأدرك البواب ذلك فصاح به فى لهجة ازدراء شديد : « فى بيت كهذا تطعم الكلاب بمثل هذا اللحم ! » . ثم أمسك السـلة ووضعها خلف الباب ودفع وانج لنج أمامه وسار كلاهما فى شرفة طويلة يعتمد سقفها على عمد مزينة بأشكال محفورة فيها ، حتى دخلا قاعة لم ير (وانج لنج) مثيلا لها من قبل ، فقد كانت من الاتساع بحيث يمكن أن يوضع فيها بيته كله.فرفع رأسه متأملا الاشكال المرسومة والمحفورة فى السقف ، وهنا تعثر بالباب حتى كاد يقع لولا أن سارع البواب فأمسك ذراعه وصاح به قائلا : « هل من الأدب أن تقع على وجهك هكذا أمام السيدة الكبيرة ؟! »

فخجل وانج لنج ثم تمالك نفسه ولم يعد ينظر الا أمامه ليتبين طريقه ولا يتعثر مرة أخرى !. فلما توسط القاعة رأى أمامه سـيدة بالغة الكبر مجعدة الوجه تجلس على كرسى كبير فوق منصة ، وكان جسمها النحيـل تغطيه ثياب فاخرة من حرير أسمر مطرز باللآلىء ، وعلى منضـدة واطئة بجانبها غليون للأفيون يتصاعد منه الدخان فوق مصباح صغير !

ونظرت هى اليه بعينين سـوداوين ضيقتين حادتى البصر كأنهما عينا قرد ، فجثا على ركبتيه بين يديها وسجد على أرض الغرفة مسرعا ، فقالت السيدة العجوز للبـواب : « ارفعه !. ان مراسم الخضوع هـذه ليست ضرورية . هل جاء فى طلب المرأة ؟ »

فأجاب البواب : « أجل أيتها السيدة ذات المجد التليد »

فالقت نظرة فاحصـة على وانج لنج ثم قالت للبواب : « لماذا لا يتحدث عن نفسه اذن ؟ »

فقال لها البواب : « هذا لأنه يا سيدتى العظيمة أبله أو أحمق ! »

فأثار هـذا الجواب غيظ وانج لنج ونظر الى البواب نظرة غضب . ثم واجه السيدة قائلا :

ـ انني لست الا فلاحا بسيطا أيتها السيدة العظيمة القديمة . ولست أدرى كيف أخاطب من لها مثل مقامك العالى ! »

فنظرت اليـه العجوز مليا باهتمام ظاهر وهمت بالكلام لولا أن يدها أطبقت على الغليون اذ ناولتها اياه احـدى الجوارى . وما لبثت قليلا حتى

نسيت وجوده وأخذت تشد أنفاسا من الغليون ، وسرعان ما خفتت حدة نظراتها وبدا عليها الذهول ، في حين ظل واقفا في مكانه صامتا ، حتى وقعت عليه عيناها مرة أخرى فقالت في لهجة يشوبها الكدر : « ماذا يفعل هذا الرجل هنا ؟! »

وأدرك وانج لنج أنها نسيت كل شيء ، ونظر الى البواب فلما رآه جامدا في مكانه لا يتحرك ولا يريد أن يتكلم ، قال لها مشيرا : « انى أنتظر المرأة أيتها السيدة العظيمة ! »

فقالت له متعجبة : « المرأة ؟.. أية امرأة ؟! »

وهنا انحنت الجارية الواقفة بجانبها على أذنها وهمست اليها بضع كلمات فتنبهت السيدة العجوز من غفلتها وقالت : « آه .. لقد نسيت !.. انها مسألة صغيرة . لقد أتيت في طلب الجارية المسماة (أولان) .. انى أذكر أننا وعدنا بأن نزوجها لأحد الزراع . أانت هو الذى سيتزوجها ؟ »

فانحنى أمامها وقال في خجل ملحوظ : « أجل يا سيدتى الجليلة ! »

فقالت السيدة لجاريتها : « نادى (أولان) فورا . ! »

لقد أرادت أن تنتهى من هذه المسألة في أسرع وقت لكى تعود فتخلو الى غليون الأفيون . ولم تمض دقيقة حتى عادت الجارية تقود بيدها شابة طويلة القامة ربعة القوام ترتدى ثوبا أزرق نظيفا وسراويل من القطن ، فألقى وانج لنج عليها نظرة وقلبه يخفق خفقانا سريعا . وحدث نفسه قائلا : « حسنا !. انها لأحسن كثيرا مما تخيلت ! » . بينما قالت السيدة العجوز في غير اكتراث : « تعالى أيتها الجارية !.. لقد جاء هذا الرجل في طلبك ! »

فاقتربت (أولان) من السيدة ووقفت حانية رأسها متشابكة اليدين . فسألتها السيدة : « هل أنت مستعدة ؟ »

فردت الجارية في بطء : « أجل يا مولاتى ! »

ولما سمع صوتها لأول مرة نظر الى ظهرها وهى واقفة أمامه . لقد كان صوتها لا بأس به فهو ليس بالمرتفع ولا الناعم ولكنه واضح يدل على هدوء . وكان شعرها ناعما وثوبها نظيفا أنيقا . ولحظ في استياء أن قدميها غير مربوطتين كأقدام الصينيات الحسان ، ولكنه لم يفكر في ذلك طويلا لأن السيدة العجوز كانت وقتئذ تقول للبواب : « احمل صندوقها الى البوابة ودعها تذهب معه ! »

ثم أشارت الى وانج لنج ليقترب وقالت له : « قف بجانبها ريثما أتكلم ! »

ولما وقف بجانب عروسه قالت له السيدة : « ان هذه المرأة قد جاءت الى بيتنا وهى طفلة لا يزيد عمرها على عشر سنوات ، وقد عاشت هنا حتى

بلغت العشرين من عمرها الآن . وقد اشتريتها في سنه مجاعه اذ عاجز أهلها الى الجنوب بعد أن لم يجدوا شيئا يأكلونه . وكانوا قد وفدوا من الشمال من بلدة (شانتونج) ثم عادوا الى هناك ولا أعلم عنهم شيئا بعد ذلك . وأنت ترى أنها قوية الجسم ولها وجه مربع مثل قومها . انها ستعمل عندك بجد في الحقل وستسحب الماء من البئر وتفعل كل ما تطلبه منها . انها ليست جميلة ولكنك لست بحاجة الى الجمال . فان الرجال المتبطلين وحدهم هم الذين يحتاجون الى الحسان لتسليتهم . ولكنها تحسن أداء ما تؤمر به . كما أنها هادئة الطبع . ثم هى فيما أعلم لا تزال عذراء اذ ليس لها من الجمال ما يغوى أبنائى واحفادى . فاذا ظهر غير ذلك فالمسئول عنه لا يمكن أن يكون الا أحد الخدم . على أن الجوارى الحسان هنا كثيرات ، ولهذا أشك كثيرا في أن أحد الخدم هنا يتركهن الى مثلها . والآن هيا خذها واستفد منها . انها جارية طيبة وان تكن بطيئة وغبية الى حد ما !. ولولا أنى وعدت في المعبد بعمل الخير تاهبا لحياتى الاخرى ، لاحتفظت بها لأنها صالحة للخدمة في المطبخ . ولكنى تعودت أن أزوج كل جارية لى اذا رغب أحد في زواجها ، ولاسيما اذا كان أحد من السادة لا يريدها ! »

ثم التفتت الى أولان وقالت لها : « اطيعيه واحملى له أبناء تلو أبناء . واحضرى الى أول ولد لكى أراه ! »

فقالت لها أولان بخضوع : « سمعا وطاعة يا مولاتى ! » . ثم سكتت وبقى وانج لنج ساكتا وهو واقف بجانبها ، اذ لم يدر أيجب عليه أن يتكلم أم لا ، ولكن السيدة العجوز أنقذته من هذه الحيرة اذ صاحت فجأة : « هيا .. اذهبا ! » . فحنى وانج لنج رأسه اجلالا وتحية لها ، ثم خرج مسرعا وفى اثره أولان عروسه ووراءهما البواب حاملا صندوقها على كتفه فلما بلغوا الغرفة التي ترك بها وانج لنج سلته ، وضع البواب الصندوق اذ لم يرد أن يحمله أكثر من ذلك ، ثم تركهما هناك وانصرف من غير أن يتبس بكلمة !

ونظر وانج لنج الى وجه عروسه لأول مرة فوجده مربعا تدل ملامحه على الصدق والاخلاص ، ويتوسطه أنف قصير عريض ذو خياشيم كبيرة ، وفم واسع ، وعينان صغيرتان سوداوان لا تدلان على كثير ذكاء ولكن على حزن عميق غير واضح !.. وكان وجهها من ذلك النوع الذى لا يقدر على التعبير حتى لو أراده !. وقد تلقت نظراته اليها من غير أن تبدو عليها حيرة أو مجاوبة وكأنها تمثال لا حياة فيه !

وقال وانج لنج لنفسه : « انها عاطلة من كل حسن فوجهها الأسمر قد شوهته آثار الجدرى ، وشفتها مشقوقة . وها هى ذى قد حلت أذنيها بالقرط الذى أهديته اليها ، كما حلت أصابعها بالخواتيم اللذين بعثت بهما ». ثم تنهد وقال لها في لهجة تنم عن سروره بأن قد صارت له زوجة : « سنأخذ معنا الصندوق والسلة ! »

ولم تقل هي شيئا،وانما انحنت على الصندوق ورفعته على كتفها وحاولت أن تنهض به لكنها ترنحت تحت ثقله · فقال لها : «سأحمل أنا الصندوق، فاحملي أنت هذه السلة ! »

وحمل الصندوق على ظهره دون أن يعبأ بالثوب الذى يلبسه وهواحسن ثيابه ، وحملت هى السلة من مقبضها ومشت خلفه فى صمت · وكأنما تذكر هو كثرة الغرف التى مر بها ، فأشفق من تعب الحمل الثقيل الذى على ظهره وقال لها : « أليس للدار باب جانبى ؟ »

ففكرت هنيهة كأنها لم تفهم لأول وهلة ما يريده ، ثم أومأت برأسها موافقة وقادته خلال فناء مهجور نما العشب على أرضه وجف الماء فى بركته، وهناك تحت شجرة صنوبر محنية وقفت أمام باب مستدير قديم ففتحته ، وخرجا منه الى الشارع !

وفى طريقهما الى داره ، التفت خلفه لينظر اليها مرة أو مرتين وهى تسير على قدميها الكبيرتين صامتة لا تدل ملامحها على أى تعبير · فلما بلغا باب السور وقف وبحث باحدى يديه فى حزامه عن الدراهم بينما الصندوق على كتفه تسنده يده الاخرى· ثم أخرج درهمين واشترى بهما ست خوخات خضراء صغيرة وقال لها بخشونة : « خذى هذه وكليها ! »

فتناولتها بشغف كما يتناول الطفل لعبة أعجبته ، لكنها لم تنطق بكلمة· ولما نظر اليها مرة أخرى وهما يمشيان على طرف حقول القمح وجدها تقضم احداها بحذر ولما رأته ينظر اليها غطتها بيدها ووقفت فكيها عن الحركة !

ومضيا فى طريقهما هكذا حتى وصلا الى الحقل الغربى الذى أقيم به معبد الارض · وهو بناء صغير لا يعلو على قامة الانسان وقد شيد من طوب أسمر وجعل سقفه من القرميد · وكان جد وانج لنج الذى قضى حياته عاملا فى هذه الحقول نفسها ، قد بنى هذا المعبد بعد أن أحضر له (الطوب) من البلدة على عربة يد كانت له · وكانت حيطانه مغطاة بالطين من الخارج ، وفى احدى سنوات الرخاء استؤجر فنان القرية ليرسم عليها منظرا للتلال والأحراش · غير أن المطر ظل أجيالا يهطل فوق هذا الرسم حتى لم يبق منه سوى ظل لا يكاد يبين !

وفى داخل المعبد قبع تحت السقف صنمان صنعا من طين الحقول التى حول المعبد ، يمثلان اله الارض وزوجته ، وعليهما ثوبان من ورق أحمر مذهب وكان للاله شارب صغير مدلى الطرفين صنع من شعر حقيقى · وفى عيد رأس السنة من كل عام كان أبو (وانج لنج) يأتى بورق أحمر جديد مقطوع بعناية ويلصق منه ثوبين جديدين على الصنمين ، اذ كان المطر والجليد يهطلان عليهما طول الشتاء ، كما كانت الشمس فى الصيف تصل أشعتها اليهما فتفسد الثوبين !

على أن ثوبى الصنمين فى ذلك الوقت كانا لا يزالان سليمين اذ كانت

السنة قد بدأت منذ عهد وجيز ، فشعر وانج لنج بالفخر لحسن مظهرهما . وأخذ السلة من فوق ذراع زوجته ، ثم بحث تحت لحم الخنزير عن البخور الذى اشتراه وقد خاف أن تكون عملته قد انكسرت فيكون ذلك فألا غير حسن ، ولكنه وجدها كاملة لم تنكسر فرشقها جنبا الى جنب فى رماد العيدان التى كانت مكدسة أمام الصنمين ، لأن أهالى القرية كلهم كانوا يعبدونهما · ثم أشعل نارا أوقد بها البخور · ووقف هو وزوجته أمام الصنمين يرقبان عيدان البخور المحترقة فى صمت وسكون

ولما رأت الرماد قد أثقل على عيدان البخور اقتربت منه وأزاحته بسبابتها · وكأنما خافت مغبة ما فعلته فنظرت الى وانج لنج متسائلة ، ولكنه كان مرتاحا الى ما فعلته · وشعرت بأن هذا البخور يحرق لأجلهما معا فقد كانت الساعة ساعة زواجهما · ووقف كلاهما صامتين بينما استحال البخور رمادا · ولما كانت الشمس قد آذنت بالمغيب فقد حمل الصندوق على كتفه ومضى مع زوجته قاصدين الى البيت !

وكان أبوه الشيخ واقفا بالباب يستمتع بآخر شعاع للشمس قبل غروبها ، فلما رآهما مقبلين لم يبد حراكا ، اذ كان مما لا يتفق مع وقاره أن يلحظ وجود الزوجة ، بل انه تظاهر بالتطلع الى السحب ثم قال لولده: « ان هذه السحابة التى الى يسار القمر الجديد تنبىء بالمطر ولن يتأخر عن ليلة غد ! »

ولما رأى وانج لنج يأخذ السلة من زوجته صاح به قائلا : « هل أنفقت نقودا ؟ »

ووضع السلة على المائدة وقال فى ايجاز : « سيكون لدينا ضيوف الليلة ! » · ثم حمل الصندوق الى الغرفة التى ينام بها ووضعه الى جانب الصندوق الذى به ثيابه ، ونظر اليه مستغربا ولكن الرجل الشيخ ما لبث حتى جاء الى الباب وقال له : « لست أرى نهاية للتبذير الذى فى هذا البيت ! »

وكان فى قرارة نفسه مسرورا لأن ابنه قد دعا ضيوفا ، ولكنه رأى ألا يبدى سوى الشكوى أمام زوجة ابنه كيلا تتعود الاسراف من أول يوم · ولم يقل وانج لنج شيئا بل حمل السلة ومضى بها الى المطبخ ، بينما تبعته المرأة الى هناك · ثم تناول الطعام من السلة وأخذ يضعه قطعة قطعة على حافة الفرن ، فلما انتهى من ذلك قال لها : « هذا لحم خنزير ، وهذا لحم بقر · وسيتناول العشاء الليلة سبعة أشخاص· أيمكنك اعداد الطعام؟»

ولم يكن ينظر اليها ، وهو يخاطبها لأن ذلك لا يليق به !·· فأجابت المرأة ببساطة : « لقد كنت من جوارى المطبخ منذ دخلت دار (هوانج) · وكانت هناك لحوم فى كل وجبة ! »

فأومأ وانج لنج برأسه موافقا وتركها هناك ، ولم يرها بعد ذلك

حتى جاء الضيوف وفى مقدمتهم : عمه الذى كان مرحا ماكرا جائعا كعادته، وابن عمه وهو فتى وقح فى الخامسة عشرة من عمره ، وجماعة من زملائه الفلاحين منهم اثنان كان يتبادل معهما الحبوب والعمل فى وقت الحصاد ، ومنهم (تشنيج) أقرب جيرانه وهو رجل وديع دقيق الجسم ، لا يتكلم الا اذا اضطر الى الكلام !

وبعد أن جلس الضيوف فى الغرفة الوسطى مترددين يدافع الأدب والخجل ، ذهب وانج لنج الى المطبخ ليامر زوجته باحضار الطعام للضيوف، فسره منها أن أجابته قائلة : «سأناولك الآنية وأنت تضعها على المائدة فانى لا أحب أن أظهر أمام الرجال ! »

لقد شعر وانج لنج بالفخر لأن هذه المرأة زوجته ، ولأنها تكره ان تظهر أمام الرجال الغرباء . ثم أخذ منها الآنية عند باب المطبخ ووضعها على المائدة بالغرفة الوسطى وصاح قائلا : « هيا كلوا .. أنت يا عمى وأنتم يا اخوانى ! »

وكان عمه شغوفا بالتنكيت فقال له : « الا ترى العروس الحسناء ؟ »

فأجاب وانج لنج فى حزم : « اننا لم نصبح شخصا واحدا بعد . ولا يليق أن يراها أحد قبل ذلك ! »

ثم حثهم على الأكل ليغير مجرى الحديث ، فاقبلوا على الطعام بشهية ، وقصروا كلامهم على امتداح ألوانه ، بينما وانج لنج يرد تحياتهم فى تواضع قائلا : « انه طعام ردىء سىء الطهو ! » . لكنه فى قرارة نفسه كان فخورا بألوان الطعام التى أبدعتها زوجته الصناع ، حتى لقد شعر هو نفسه بأنه لم يذق مثلها من قبل !

وفى تلك الليلة بعد أن تناول الضيوف عشاءهم وشربوا الشاى وفرغت نكاتهم ، كانت المرأة لا تزال قابعة وراء الفرن ، حتى اذا ودع وانج لنج آخر ضيف ذهب اليها فوجدها نائمة على أكداس القش الى جانب الثور . ولاحظ أن بعض القش قد علق بشعرها ، وما سمعته ينادبها حتى رفعت ذراعها فجأة كأنما تتقى ضربة ستنزل عليها ... ثم فتحت عينيها ونظرت اليه نظرة حائرة فخيل اليه أنه يرى طفلة أمامه ، وأمسك بيدها وقادها الى غرفته حيث اغتسل فى الصباح ، ثم أشعل شمعة حمراء كانت على المتضدة . وفى ضوء هذه الشمعة شعر فجأة بالحياء اذ وجد نفسه وحده مع المرأة ، لكنه أخذ يحدث نفسه مشجعا بقوله : « هذه امرأتى ولابد مما ليس منه بد ! » . ثم أخذ يخلع ثيابه متثاقلا ، بينما زحفت هى حول ركن الستارة وأخذت تعد السرير من غير أن تحدث صوتا . ثم قال لها بخشونة : « حين ترقدين لا تنسى أن تطفئى النور ! »

ثم رقد على الفراش وجذب اللحاف الى كتفيه مدعيا النوم ، ولكنه لم ينم بل كان يرتعد وكان كل عصب من أعصابه متوترا . ولما شمل الغرفة الظلام وشعر بأنها بجانبه تملكته نشوة شديدة وضحك ضحكة خشنة !

الولد الأول

بدأ وانج لنج ينعم بالعيش الرغد : ففى صباح اليوم التالى لوصول زوجته الى داره ظل راقدا فى فراشه واخذ يرقب المرأة التى اصبحت كلها ملكا له . وقد نهضت وجابت حولها ثيابها المفككة واوثقت رباطها حول رقبتها وحول وسطها ، ثم لبست حذاءها المصنوع من القماش وربطته بالأربطة التى فى مؤخرته . وانعكس عليها ضوء آت من الثقب فراى وجهها بوضوح ، وادهشه انه لم يطرأ عليه اى تغير ، فى حين انه هو نفسه شعر بأن تلك الليلة قد أحدثت به تغيرا كثيرا ..! ثم أخذ يسائل نفسه : « ما لهذه المرأة قد قامت من السرير وكأنها كانت تنهض منه كل يوم طول حياتها الماضية ؟ ! »

وارتفع سعال أبيه الشيخ مشاكسا فى عتمة الفجر فقال وانج لنج لزوجته : « اذهبى الى أبى بسلطانية ماء حار لأجل صدره »

فسألته : « اأضع بها أوراق شاى ؟ » . فازعجه هذا السؤال البسيط ، وود لو يجيب قائلا : « لا ربب . يجب ان تكون فيها أوراق شاى . أم تحسبيننا بلغنا من الفقر الى حد نشبه معه المتسولين ؟ »

نعم ، لقد ود لو تفهم زوجته أنهم فى هذا البيت لا يقيمون وزنا لأوراق الشاى ! فانها فى دار هوانج كانت ترى كل سلطانية ماء يخضر لونها من أوراق الشاى . ولعل الجوارى انفسهن فى ذلك البيت لايحتسين الماء الساخن وحده !. غير انه كان يعلم أن اباه سيتولاه الكدر اذا رآها فى أول يوم تقدم له شايا بدلا من الماء القراح . ثم قال لنفسه : « الواقع اننا لسنا اغنياء ! ». ثم اجابها فى غير اكتراث : « كلا !.. لا لزوم للشاى انه يهيج السعال عنده ! »

ثم رقد فى سريره دافئا مغتبطا فى حين خرجت هى الى المطبخ فاشعلت النار فى الفرن وغلت الماء !

وكان بوده لو يواصل النوم اذ ليس امامه عمل فى ذلك اليوم، ولكن جسده كان قد اعتاد النهوض فى باكورة صباح كل يوم ، فلم يستطع مواصلة النوم بعد ذلك ، واكتفى بأن بقى ممددا فى فراشه يتذوق بذهنه وجسده لذة الكسل !

وكان لا يزال يشعر بالخجل من التفكير فى هذه المرأة التى صارت له ، فقضى جانبا من الوقت يفكر فى حقوله وفى حبات القمح وفى مقدار المحصول

اذا سقطت الأمطار وفى بذور اللفت التى يريد شراءها من جاره (تشنج) اذا اتفق معه على السعر . ولكن هذه الافكار التى تطرق ذهنه كل يوم كان يتخللها برغمه غير قليل من التفكير فى حياته الجديدة ، وخطر له بغتة ، وهو يفكر فى الليلة الفائتة ، ان يسائل نفسه : « هل مالت اليه زوجته واحبته ؟ » وكان ذلك امرا عجيبا بالنسبة له ، فقبل الآن كان يسأل نفسه : « ترى هل تعجبه ؟. وهل يرتاح اليها فى الفراش وفى البيت ؟ انها اذا كان وجهها عاطلا من الحسن وجلد يديها خشنا ، فان شرة جسدها ناعمة وجسمها لم يمسه احد من قبل ! »

وحينما بلغ به التفكير الى ذلك الحد اطلق مثل تلك الضحكة الجامدة القصيرة ، التى صدرت عنه فى الظلام فى الليلة الماضية ، ثم قال لنفسه : « اجل !.. ان السادة الصغار لم يروا ما وراء ذلك الوجه العادى الذى لجارية المطبخ . ان جسدها جميل وهو مع كبر عظامه مستدير ناعم ! »

وبغتة تمنى لو انها مالت اليه كما تميل الزوجة الى زوجها ، ثم خجل من نفسه واشتد خجله حين فتح باب الغرفة على اثر ذلك ودخلت زوجته فى صمت حاملة اليه آنية يتصاعد منها البخار ، فجلس فى سريره وتناولها منها ، وكانت اوراق شاى تعلو سطح الماء ، فنظر اليها نظرة سريعة جعلتها تشعر بالخوف فقالت : « انى لم اضع شايا للشيخ ... لقد فعلت كما قلت لى ... ولكن لك انت ! »

وادرك انها خائفة منه ، فسره ذلك واجاب قبل ان تتم كلامها : « انى احبه . نعم انا احبه ! » . واخذ يرشف الشاى مسرورا ، وقد شعر فى قرارة قلبه بفرح جديد خجل من ان يعترف به لنفسه : « ان زوجته تحبه ولا ريب فى ذلك ! »

وفى الأشهر التالية ، كان يخيل اليه انه لا يفعل شيئا سوى ان يرقب امرأته هذه . ولكنه فى الحقيقة كان يواصل عمله انشط مما كان قبل الزواج ، فيحمل فأسه على كتفه ويسير الى الحقل حيث يزرع صفوفا من الحب ، او يربط الثور الى المحراث ويحرث الارض تمهيدا لزرع الثوم والبصل . غير ان العمل اصبح عنده ضربا من ضروب الترف ، لأنه متى آذنت الشمس بالمغيب كان يرجع الى بيته فيجد الطعام معدا لياكله ، كما يجد المائدة قد ازيل التراب من فوقها والآنية وعيدان الملاعق نظيفة فوقها. وكان عليه قبل ذلك ان يعد الطعام عقب عودته برغم ما به من تعب ، الا اذا جاع ابوه الشيخ قبل الأوان فعندئذ كان يعد لنفسه طعاما خفيفا او يخبز قطعة من الخبز قبل ان تختمر !

لقد صار فى استطاعته ان يجلس على الدكة التى امام المائدة فور وصوله الى البيت فيجد ما ياكله !. وكانت ارض البيت تكنس ، وكوم الوقود يكمل كلما نقص . فان زوجته كانت اذا خرج هو الى الحقول ، تخرج هى ايضا

لتحتطب من الاحراش القريبة ، وتمضى ساعات تجمع الاعشاب الجافة واغصان الشجر وورقها ، ثم تعود ظهرا ومعها من الوقود ما يكفى لطهو طعام الغداء . وقد سر اباه الشيخ انهم لم يعودوا بحاجة الى شراء الوقود !

وبعد الظهر كانت تأخذ فأسا وسلة وتحملهما على كتفها وتذهب الى الطريق الرئيسية المؤدية الى البلدة حيث تحمل البغال والحمير الأثقال رائحة غادية ، وهناك تلتقط ما يتساقط من هذه الدواب وتعود به الى البيت وتكدس السماد فى الفناء لاستخدامه فى الحقول . وكانت تؤدى هذه الاعمال من غير ان تنطق بكلمة او يكلفها اياها احد . واذا انتهى النهار كانت لا تأوى الى فراشها الا بعد ان تطعم الثور فى المطبخ وبعد ان تحمل الماء الى فمه ليشرب !

وكانت ترقع الثياب المقطعة ، وتعرض الفراش للشمس وتخلع اغطية الأحذية وتغسلها ثم تجففها ، وتستخرج قطع القطن التى اصبحت جافة بها فتقتل الحشرات التى فى طياتها وتضمها فى الشمس . وكانت كل يوم تؤدى عملا بعد اخر حتى صارت الغرف الثلاث نظيفة وتكاد تنم عن الرخاء. وقد تحسنت صحة الشيخ فخفت حدة سعاله وصار يستطيع الاستمتاع باشعة الشمس عند الجدار الجنوبى للبيت وهو اشبه بالنائم شاعرا بالدفء والارتياح !

غير ان هذه المراة لم تكن تتكلم قط الا اذا ارغمتها ضرورات الحياة على الكلام . وكان وانج لنج يراقبها وهى تمشى فى ثبات وبطء على قدميها الكبيرتين فى غرف المنزل ، ويختلس النظر الى وجهها المربع الجامد ونظراتها التى يرتسم فيها الخوف ، فلا يكاد يفهم من امرها شيئا . وكان بالليل يعرف متانة جسدها ونعومته . ولكن فى النهار كانت ثيابها ـ التى لا تعدو الثوب القطنى الأزرق البسيط والسراويل ـ تغطى كل ما يعرفه منها ، فكانت شبيهة بخادمة امينة خرساء ولا اكثر من ذلك . ولم يكن من اللائق ان يسالها : « لماذا لا تتكلمين ؟ » ويكفى انها تؤدى واجباتها احسن الاداء !

واحيانا كان وهو يعمل فى الحقول يتجه فكره اليها : ترى ما الذى راته فى بيت (هوانج) ذى المائة حجرة ؟ وكيف كانت حياتها قبل الآن ، تلك الحياة التى لم يكن شريكها فيها ! انه لم يقدر ان يعرف شيئا من ذلك . ثم يتغلب عليه الخجل من فضوله ومن اهتمامه بها . انها على اى حال ليست الا امراة ؟

غير ان ترتيب ثلاث غرف واعداد وجبتين لا يشغلان امراة كانت جارية فى بيت كبير تشتغل فيه من الفجر الى منتصف الليل . ففى احد الايام كان وانج لنج مشغولا بزرع حبوب القمح بالفأس حتى كاد العمل يقصم ظهره واذا به يرى ظلا ينعكس على الأخدود الذى انحنى فوقه فلما التفت رآها واقفة تحمل فأسا على ظهرها ، وقالت له بايجاز : « ليس فى البيت

ما اعمله حتى المساء » . ثم اخذت تعمل بفأسها فى الاخدود الذى الى يساره بينما الشمس تلفح وجهها اذ كان ذلك فى بداية الصيف ، وصار العرق يتصبب منها . وكان وانج لنج قد خلع رداءه فصار يعمل وظهره عار ، لكنها هى كانت تعمل وثوبها الرقيق يغطى كتفيها ، وسرعان ما ابتل من العرق ولصق بجسمها . وبقيا ساعات يعملان ويتحركان معا فى انسجام تام من غير ان يتبادلا كلاما ، فشعر (وانج لنج) برابطة الوحدة تربطه بها ، وبدد هذا الشعور كل تعب احسه . غير انه لم تكن له فكرة واضحة عن اى شىء ، وانما كان بينهما ذلك الانسجام فى الحركة ، وفى تعريض هذا الجزء من الارض او ذاك للشمس ، تلك الارض التى هى موطنهما ومصدر غذائهما والتى تصنع منها آلهتهما كذلك ... وكانت التربة خصبة سمراء تتشقق بسهولة تحت سن الفأس . واحيانا كانا يمسان بالفأس قطعة طوب او خشب ، ولم يكن ذلك شيئا مذكورا . ومن يدرى لعل فى العصور الماضية قد دفنت فى تلك الارض اجسام رجال ونساء او سقطت بيوت كانت قائمة !. وهكذا سوف يكون مآل بيتهما كذلك اذ يعود فى يوم ما الى الارض ، ومثلهما جسداهما ايضا . ان لكل دوره فى هذه الارض !

ولما غربت الشمس قوم ظهره ببطء ونظر الى المراة وكان وجهها مبللا بالعرق يعلوه تراب ، وكانت سمراء كلون الارض نفسها ، وكانت ثيابها المبللة الداكنة لاصقة بجسدها . وقد سوت آخر اخدود ببطء . ثم قالت بلهجتها العادية بلا مقدمة : « انى حامل ! »

ولما سمع (وانج لنج) ذلك وقف ذاهلا . وماذا يستطيع قوله حيال ذلك ؟. ثم انحنت لتلتقط قطعة طوب وتقذف بها بعيدا عن الاخدود . وكانما قالت شيئا عاديا مثل : « لقد أحضرت بعض الشاى » او كانه قالت : « يمكننا ان ناكل ! »

لقد بدا امر الحمل عاديا عند اولان !.. اما هو فانه لم يقدر ان يعبر عن اهمية هذا النبأ بالنسبة له ، وانما خفق قلبه ثم وقف فجأة وقال لها : « حسنا ! » . ولم يزد على ذلك شيئا !. بل اكتفى بأن اخذ منها الفأس وقال لها بصوت مختنق : « يكفى ذلك . لقد انتهى النهار . وسنخبر الشيخ ! »

وفى طريقهما الى البيت كانت تمشى وراءه على مسافة ست خطوات !.. وكان الشيخ واقفا بالباب وقد شعر بالجوع والشوق الى طعام العشاء الذى صار لا يعده لنفسه ابدا منذ صارت بالبيت امراة .. وكان قليل الصبر فصاح بها : « اننى اكبر سنا من ان انتظر طعامى هكذا ! »

وحينما مر به وانج لنج قاصدا الى غرفته همس اليه قائلا : « انها اصبحت حاملا ! »

وحاول ان يقول ذلك بلهجة عادية كما لو يقول : « لقد زرعت الحبوب فى

الحقل الغربى اليوم » ، ولكنه لم يستطع . ومع انه قاله بصوت منخفض فقد خيل اليه انه صاح به اعلى مما يجب ، فزر الشيخ عينيه لحظة ثم فهم وقرقر بالضحك ... وقال لزوجة ابنه حين رآها : « هه . هه . هه . اذن فامامنا حصاد ! » . ولم ير وجهها فى الغسق ولكنها أجابت ببساطة : « ساعد الطعام الآن » . فقال لها الشيخ بشغف : « اجل . اجل . الطعام ». وتبعها الى المطبخ كالطفل . وكما ان فكرة مجىء حفيد له قد انسته الطعام ، فالآن انساه الطعام كل فكرة عن حفيده ...

اما وانج لنج فقد جلس على مقعد الى المائدة فى الظلام ، واسند راسه على ذراعيه بعد ان ثناهما . لقد تولدت حياة جديدة من جسمه ومن صلبه !

قال وانج لنج لزوجته لما اقتربت ساعة وضعها : « يجب ان تكون لدينا امراة ذات خبرة لمساعدتك فى الوقت المناسب »

وعجب اذ هزت راسها نافية احتياجها الى هذه المساعدة ، وبقى هنيهة يتاملها وهى تنقل الآنية من فوق المائدة بعد طعام العشاء ، وكان أبوه الشيخ قد اوى الى فراشه ، وليس فى الحجرة من ضوء سوى ما يبعث به مصباح صغير من الصفيح به زيت فول وفتيلة من القطن ، فلما انتهت من هذه المهمة سألها مندهشا : « لماذا لا تزيدين امراة لمساعدتك ؟ » . ولكنها اكتفت بأن هزت راسها مرة اخرى !

وكان قد بدا يعتاد منها ذلك الحديث الذى لا يزيد دورها فيه على ايماءة بالراس او اشارة باليد ، او كلمة تخرج اضطرارا من فمها الواسع !. بل شرع لا يحس نقصا فى هذا الحديث ، لكنه مع هذا عاد يقول لها : « سيكون الأمر غريبا ، فالبيت ليس فيه سوى رجلين ، وقد كانت امى تدعو امراة من القرية فى مثل هذه الحالة . وانا لا ادرى شيئا عن هذه الأمور . اليس بذلك البيت الكبير احد ، جارية عجوز مثلا صديقة لك ، يمكنها ان تأتى ؟ »

وكانت هذه اول مرة يذكر فيها البيت الكبير منذ جاءت اليه . فالتفتت اليه وقد انقلبت سحنتها وضاقت عيناها على صورة لم يعهدها من قبل ، وقالت له فى غضب : « لا احد من ذلك البيت ! »

وهنا سقط من يده غليونه الذى كان بصدد ملئه واخذ ينظر اليها متعجبا من غير ان يتكلم ، اما هى فاستعادت هدوءها بعد قليل ثم اخذت تجمع العيدان التى يوقد بها وكانها لم تقل شيئا . فقال لها وقد اشتدت دهشته : « اننا وابى ليست لنا خبرة بالولادة . ولا يليق بابى ان يدخل

غرفتك ، ثم انى لم ار قبل الآن حتى ولا بقرة اثناء الولادة ، وبداى الحسنتان قد تضران بالطفل . وهكذا ترين اننا فى حاجة الى احد من البيت الكبير حيث تلد الجوارى ! »

وكانت قد كدست العيدان الخاصة بتناول الطعام فوق المائدة ، فنظرت اليه هنيهة ثم قالت :

ـ حين أعود الى ذلك البيت سيكون ولدى بين ذراعى وسيكون مرتديا ثوبا احمر ، وعلى راسه قبعة طرزت فى جبهتها صورة يوذا بلون ذهبى ، وفى قدميه حذاء رسمت فى مقدمته صورة نمر . وساكون انا مرتدية حذاء جديدا وثوبا جديدا من الحرير الاسود ، واذ ذاك اتوجه الى المطبخ حيث قضيت ايامى . ثم الى القاعة الكبرى حيث تجلس السيدة العجوز بأفيونها ، وسيرونني وولدى جميعا ! »

ولم يكن قد سمع منها قط مثل هذه الكلمات الكثيرة ، وكانت تصدر عنها فى بطء ، وفى غير انقطاع ، فادرك انها قد رتبت الامر كله لنفسها ، ولا شك انها كانت تدبره وهى تعمل الى جانبه فى الحقول !

وقال لنفسه : « ما اعجبها امراة ! لقد كنت احسب انها لا تفكر فى الطفل الذى توشك ان تضعه ، لأنها كانت تمضى فى عملها هادئة ساكتة يوما بعد يوم . ولكنها فى الواقع كانت تتمثل طفلها وقد ولد والبس ثيابه كاملة ، وتتمثل نفسها كام مرتدية ثوبا جديدا ! »

ولم يجد ما يقوله لها بعد ذلك ، فعاد الى غليونه وملاه بقليل من الطباق بعد ان ضغطه بين سبابته وابهامه وحنى جعل منه ما يشبه الكرة . واخيرا قال لها فى شىء من الغلظة : « احسب انك ستحتاجين الى شىء من النقود ؟ ! »

فقالت بخوف : « حبذا لو تعطينى ثلاث قطع فضية !.. انه مبلغ كبير ولكنى حسبته بعناية ولن اضيع درهما واحدا منه فى غير طائل !.. »

فتحسس وانج لنج حزامه ، وكان قد باع بالامس فى سوق البلدة حملا ونصف حمل من القش بعد ان قطعه من البركة التى بالحقل الغربى ، وحصل بذلك على مبلغ اكثر قليلا مما طلبته فاخرج ثلاث قطع فضية ووضعها على المائدة ، ثم اضاف اليها بعد تردد قليل قطعة رابعة كان قد ادخرها طويلا لكى يجرب بها يوما حظه فى الميسر ، بمشرب الشاى ، ولكنه ضن بها ان تضيع فى هذا السبيل ، فاكتفى بالتفرج على اللاعبين حين ذهب الى هناك . ثم رجع الى ما تعوده من تمضية ساعات فراغه القلائل فى مظلة القصاص حيث يستمع الى قصة قديمة ولا يدفع سوى درهم واحد حين يمر القصاص بسلطانيته على السامعين !

وقال لها وهو يشعل غليونه : « خير لك ان تأخذى هذه القطعة ايضا حتى تجعلى ثوب الطفل من الحرير ... على اى حال انه اول طفل لنا ! »

اولان تسير خلف زوجها وانج لنج عند عودتهما الى البيت بعد ان عملا معا فى الحصاد

فلم تأخذ قطع النقود توا وانما ظلت تنظر اليها ووجها جامد لا اثر فيه لحس . ثم قالت همسا : « هذه اول مرة تقبض فيها يدى على عملة فضية ! »

ثم اخذتها بغتة واطبقت يدها عليها واسرعت الى غرفة النوم ، بينما مكث وانج لنج يدخن ، ويفكر فى العملة الفضية التى كانت على المائدة

ان هذه الفضة جاءت من الارض .. الارض التى يستمد حياته منها ويفنى حياته فى سبيلها !.. لقد انتزع غذاءه منها بسكب عرقه عليها نقطة نقطة ، وانتزع من ذلك الغذاء تلك القطع الفضية !. وكان من قبل اذا اخرج من كيسه قطعة من الفضة ليعطيها احدا من الناس ، يشعر كانه يبذل قطعة من حياته !. اما الآن فهو لا يشعر باى الم لاعطائه زوجته تلك القطع الفضية الاربع !. ولماذا يتالم ؟. ان فضته لم تذهب الى يد غريبة عنه ، ولسوف تتحول الى شىء اكثر قيمة منها ، الى ثياب تغطى جسد ولده . وهذه المراة العجيبة التى صارت له ، تكد وتكدح ولا تقول شيئا ، ستكون اول من يرى الطفل مرتديا تلك الثياب !

وحانت ساعة الوضع بعد ايام ، وكانت الشمس قد غربت منذ قليل ، وقد مكثت زوجة وانج لنج الى جانبه فى الحقل طول النهار تعمل بلا انقطاع فى حصد الارز !

ومن قبل ذلك كانت خير معين له على حصد القمح بعد ان امتلات سنابله ، لم فى غمر الحقل بالماء وبذر الارز وتعهده حتى تم نضجه بمساعدة شمس الخريف الدافئة

وكانت وهى تعمل معه بمنجلها ذى اليد القصيرة اشد انحناء على الزرع ، ولكنها ابطا حركة بسبب الحمل الذى فى بطنها ، فلما فاتت الظهيرة ازداد تعبها ولاحظ هو ذلك فالتفت اليها قلقا وقد كفت عن العمل ووقفت معتدلة تاركة منجلها يسقط من يدها وتصبب وجهها عرقا ، فقالت له :

ـ لقد حانت الساعة !.. ساذهب الى البيت الآن . لا تات الى غرفتى الا اذا ناديتك . ولكن احضر لى الآن غابة مقشرة حديثا وشقها بالطول لكى اقطع بها سرة الطفل !

ومضت خلال الحقول الى البيت ، وكان ليس هناك شىء ، وبعد ان راقبها ذهب الى حافة البركة التى فى الحقل الخارجى . واختار غابة خضراء رفيعة وقشرها بعناية ثم شقها بطرف منجله . وكانت ظلمة المساء قد بدات تنتشر سريعا فوضع منجله على كتفه وقصد الى البيت

وعجب حين وصل الى البيت اذ وجد عشاءه ساخنا على المائدة ، ووجد اباه الشيخ يتناول عشاءه ايضا . اذن اعدت الطعام لهما برغم آلامها ! ! . حقا ان من النادر ان توجد امراة مثلها !.. ثم ذهب الى باب غرفتها وصاح : « ها قد جئت بالغابة المطلوبة ! »

وانتظر متوقعا ان تناديه ليقدم لها الغابة ، ولكنها لم تفعل وانما جاءت الى الباب ومدت يدها خلال فتحته واخذت الغابة من غير ان تقول كلمة ، ولكنه سمعها تلهث كما يلهث الحيوان حين يجرى مسافة طويلة

ونظر الشيخ من فوق سلطانيته ثم قال لابنه : « كل قبل ان يبرد الطعام ... ان الامر يتطلب وقتا طويلا .. انى اذكر جيدا حين ولد اول ولد لى فقد انبثق الفجر قبل ان ينتهى الوضع . آه . تصور انه من بين كل الاولاد الذين رزقتهم وحملتهم امك ـ نحو عشرين تقريبا وقد نسيت عددهم ـ لم يبق سواك على قيد الحياة !.. من هذا ترى كيف انه يجب على المراة ان تحمل مرارا وتكرارا ! »

وبقى وانج لنج ساكتا ، بينما عاد ابوه الشيخ فقال وكانه نسى ما كان بصدده : « فى مثل هذا الوقت غدا قد اكون جدا لغلام ذكر ! . ثم اخذ يضحك فجاة وقد كف عن الاكل وصار يقرق كالدجاج فى ظلمة الغرفة . اما وانج لنج فوقف عند الباب يستمع الى لهاث زوجته ، وما لبث قليلا حتى شم رائحة دم من خلال الباب وكانت رائحة كريهة ازعجته ، بينما ازداد لهاث المراة داخل الحجرة سرعة وارتفاعا حتى صار كصيحات تهمس بها ، ولكن لم يصدر عنها اى صوت مرتفع . ولما لم يستطع ان يحتمل اكثر مما احتمل ، وهم بان يقتحم الغرفة ، سمع صرخة شديدة رفيعة فهتف سائلا وقد نسى امراته وآلامها : « هل هو غلام ؟ »

واستمر الصراخ الرفيع وهى لا تجيب ، فسالها مرة اخرى : « أغلام هو ؟.. تكلمى .. انها كلمة واحدة لا اكثر ! »

فردت المراة بصوت ضعيف كانه صدى : « غلام ! »

وهنا عاد وانج لنج الى المائدة فارتمى على المقعد الذى كان يجلس عليه ! ما اسرع ما حدثت الولادة !.. نعم لقد برد الطعام منذ حين ، وابوه الشيخ قد نام على الدكة . ولكن الامر تم بسرعة على اية حال !

ثم هز كتف ابيه الشيخ وصاح به صيحة ظفر : « انه غلام ! وانت الآن جد وانا اب ! »

فاستيقظ الشيخ من نومه فجاة وعاد يضحك كما كان يفعل حين غلبه النوم ، وقال بصوت كانه نق الدجاج : « أجل .. أجل .. طبعا . جد .. جد ! » . ثم قام وتوجه الى سريره وهو لا يزال يضحك !

وتناول وانج لنج اناء الارز واخذ ياكل بسرعة وقد شعر بالجوع الشديد فجاة ، وكان يسمع المراة فى غرفتها وهى تجر نفسها وصراخ الطفل المستمر ، فقال لنفسه فخورا : « أحسب اننا لن ننعم بالهدوء فى هذا البيت بعد اليوم ! »

ولما فرغ من الأكل ، قام ومشى الى باب حجرة الوالدة مرة أخرى ، وفى هذه المرة هتفت به لكى يدخل فدخل مسرعا !. وكانت رائحة الدم المراق لا تزال تفوح فى الجو ، ولكن لم يكن هناك أثر منه الا فى قصعة من الخشب، صبت زوجته فيها ماء ودفعتها الى تحت السرير حتى لا يكاد يراها !

وعلى ضوء الشمعة الحمراء التى أوقدتها ، لمحها راقدة على السرير وقد غطت نفسها بعناية ، ولمح الى جانبها طفلها ملفوفا فى سراويل قديمة لأبيه كما يقضى العرف بذلك . فاقترب من السرير وهو لا يدرى ماذا يقول وقد أفعم قلبه بالعواطف ، ثم انحنى على الطفل وجعل ينظر اليه ، وكان له وجه مستدير مجعد شديد السمرة ، وبرأسه شعر أسود طويل رطب ، وكان قد انقطع عن الصياح ورقد مغمض العينين !

ونظر الى زوجته ونظرت اليه . وكان شعرها لا يزال مبللا من أثر الألم والتعب وعيناها لا تزالان غائرتين . وفيما عدا ذلك كانت كما هى دائما . ولكنه تأثر من منظرها وهى راقدة هكذا واتجه بقلبه الى هذين الاثنين ، ثم قال :

– غدا أذهب الى المدينة وأشترى رطل سكر أحمر وأذيبه فى ماء مغلى لتشربيه !

ثم نظر الى الطفل مرة أخرى وقال فجأة : « لابد أن نشترى ملء سلتين من البيض ونصبغه باللون الاحمر لنوزعه فى القرية ، حتى يعرف الجميع انى قد ولد لى ولد ! »

▭

فى اليوم التالى لميلاد الطفل قامت أولان كعادتها وأعدت الطعام لزوجها وأبيه ، ولكنها لم تذهب الى الحقول للحصاد مع وانج لنج فبقى يعمل وحده هناك الى ما بعد الظهر ، ثم ارتدى جلبابه الأزرق ورجع الى البلدة حيث توجه الى السوق واشترى بخمسين درهما خمسين بيضة ليست حديثة ولكنها لا تزال صالحة للأكل ، ثم اشترى ورقا أحمر ليغليه معها فى الماء لكى تصطبغ بلونه . وحمل البيض فى السلة وقصد دكان حلوى حيث اشترى رطلا وزيادة من السكر الاحمر ، وقد لفه البائع بعناية فى ورق أسمر ووضع تحت خيط القش الذى ربطه به شريطا من الورق الاحمر ، ثم قال لوانج لنج وهو يبتسم : «لعل هذا لأم طفل ولد حديثا ؟»

فقال وانج لنج بكبرياء : « انه ولد بكر ! »

فقال له التاجر بغير اكتراث : « حظ سعيد ! » . ثم شغل عنه بعميل آخر حسن البزة دخل الدكان فى تلك اللحظة ، وكان قد اعتاد أن يوجه مثل تلك التحية الى كل عميل ، لكن وانج لنج حسبها تهنئة خاصة به ،

وأعجب بأدب الرجل فانحنى له مودعا ، ثم انحنى له مرة أخرى عند باب الدكان !

وخيل اليه وهو يسير تحت أشعة الشمس فى الشارع المترب أن أحدا غيره لم يؤت مثل حظه الحسن ! وقد فكر فى ذلك أولا بشعور الفرح ولكنه ما عتم أن تولاه الخوف ، فانه لا ينبغى للانسان فى هذه الحياة أن يكون سعيدا جدا ، والجو والارض مملوءان بالارواح الشريرة التى تستكثر على البشر سعادتهم . وبخاصة اذا كانوا فقراء !

ودخل بغتة دكان الشمع الذى يبيع البخور أيضا ، واشترى أربعة عيدان من البخور ، عودا لكل شخص فى بيته ، وبهذه العيدان الأربعة توجه الى المعبد الصغير لالهى الحقل ورشقها فى الرماد المتخلف عن البخور الذى وضعه وزوجته هناك من قبل ، وراقب العيدان وهى تحترق ثم عاد قاصدا الى بيته راضيا مطمئنا الى أن هذين الصنمين الصغيرين القابعين تحت سقفهما الصغير سيحولان بالقوة العظيمة التى يملكانها دون وصول أى أذى الى الأسرة التى صارت مؤلفة من أربعة أفراد !

وفى اليوم التالى خرجت أولان مع زوجها الى الحقول لتعمل بجانبه على عادتها من قبل حتى لا يدرك أحد أى شىء !. وكان الحصاد قد تم فأخذا يدرسان القمح فى الجرن المجاور لباب البيت ، يدرسانه معا بمدقة فى يد كل منهما . حتى اذا فرغا من ذلك أخذا يذريانه ويغربلانه ، وهما يقذفان به من سلال البوص الكبيرة المسطحة الى الهواء ثم يتلقيانه ثانية عند سقوطه ، فيطير القش مع الهواء !

وبعد حين هناك مهمة زرع قمح الشتاء ثانية فى الحقول . ولما شد الثور وحرث الارض كانت المرأة وراءه بفاسها تكسر الطين الجامد الذى تجده فى الأخاديد

وكانت الأم تكد طول النهار وترقد الطفل على لحاف قديم ممزق تضعه على الارض فينام . واذا بكى وقفت عن العمل وكشفت عن ثديها ووضعته فى فمه وهى جالسة على الارض والشمس ترسل شعاعها فوقهما ، شمس الخريف التى لا تترك دفء الصيف حتى يرغمها برد الشتاء . وكانت المرأة والطفل فى مثل سمرة الارض وكانا يجلسان هناك وكأنهما صنمان صنعا من الطين . وكان تراب الحقول على شعر المرأة وعلى رأس الطفل الأسود الناعم

ولكن اللبن كان يتدفق من ثدى المرأة أبيض كالجليد ، واذا رضع الطفل من ثدى فاض كالنافورة من الثدى الآخر فتتركه يفيض ، فقد كان لديها أكثر من كفايته برغم ما به من شراهة ، فكانت تترك اللبن يسيل من غير اهتمام به لوثوقها من وفرته . وأحيانا كانت ترفع ثديها وتدع اللبن يسيل على الارض حتى تقى ثيابها ، فكان يسقط على الارض فتتكون منه

بقعة ناعمه داكنة خصبة . وكان الطفل بدينا مرحا يتغـــذى بذلك الغذاء الذى لا ينفد الذى تقدمه له أمه !

ولما حل فصل الشتاء كانوا قد تأهبوا له ، فان الحصاد لم يسبق له مثيل، وكان البيت الصغير ذو الغرف الثلاث قد ضاق بالمخزون فيه . وكان يتدلى من عروق السقف خيوط فوق خيوط من البصل المجفف والثوم ، وكان فى الغرفة الوسطى وفى غرفة الشيخ وفى غرفتهما أيضا حصر مصنوعة من (البوص) على شكل زلع ضخمة مملوءة بالقمح والأرز . وكثير من هذا كله كان معدا للبيع ولكن (وانج لنج) كان مقتصـــدا ولا ينفق نقوده فى لعب الميسر أو فى الطعام الشهى كالمزارعين الآخرين الذين يضـــطرون الى بيع القمح عند الحصاد بسعر منخفض ، بل انه على العكس كان يحتفظ به ولا يبيعه الا بعد أن يسقط الجليد على الارض أو عند رأس السنة حين يكون أهل المدينة مستعدين لأن يشتروا الغذاء بأى ثمن !

وقد كان عمه يضطر دائما الى بيع قمحه حتى قبل أن يتم نضـــجه . وأحيانا كان يبيعه وهو فى الحقل لكى يوفر على نفسه مشقة حصده ودراسه ويحصل على نقود قليلة حاضرة . ولكن زوجة عمه كانت امرأة حمقاء بدينة الجسم شديدة الكسل وكانت لا تفتأ تطلب أطايب الطعام وأحذية جديدة. أما (أولان) امرأة (وانج لنج) فكانت تصنع بنفسها كل الاحـــذية له ولأبيه الشيخ ولنفسها وطفلها . وهو لا يدرى ماذا كان يفعـــل لو أنها أرادت شراء أحذية !

ولم يكن هناك قط شىء يتدلى من عروق السقف فى بيت عمه القـــديم المتهدم . ولكن فى بيته هو كان ثمة فخذ خنزير اشـــتراه من جاره تشنج حين ذبح خنزيره اذ مرض . وقد ذبح الخنزير قبل أن يخف وزنه ولذا كان فخذه كبيرا ، وملحته (أولان) ببراعة وعلقته لكى يجف ، وكان هنـــاك أيضا دجاج لهما ذبحاه وأخرجت (أولان) أمعاءه ثم جففته بريشه بعد أن ملأت جوفه بالملح !

ووسط هذه الوفرة قبعوا بالدار حين حل فصل الشتاء وهبت على الشمال الشرقى رياح قاسية قارسة . وسرعان ما أصبح الطفل يجلس وحـــده . وكانوا قد أقاموا مأدبة بمناســـبة مرور سنة على ميلاده ، ودعا اليهـــا (وانج لنج) كل من دعاهم ليلة زفافه حيث قدم لكل منهم عشر بيضـــات مســـلوقة ومصبوغة باللون الاحمر ، ومنح كل من أتى من أهل القـــرية بيضتين . وهـــذا عدا توزيع « حساء الشعرية » التى هى رمز لطول عمر الوليد !

وكان كل من أهل القرية يغبط (وانج لنج) مبديا اعجابه بولده البدين الذى له وجه كالقمر !

وفى أيام الشتاء كانوا يفتحون الباب الجنوبى للدار لتدخل منه أشـــعة

الشمس ، بينما يغلقون الباب الشمالى اتقاء للريح ، وصار (وانج لنج) يجلس على لحاف يفرش على الارض فى الدار ، اذ لم يكن هنـــاك عمل فى الحقول !

وبقى (وانج لنج) ينتظر فى قلق حتى سقطت الامطار فجأة فى يوم هادىء ، بعد أن سكنت الريح وصار الجو دافئا ، وهنا جلس أفراد الأسرة جميعا بالبيت يراقبون الامطار المبشرة بالرخاء وهى تســـقط غزيره فى الحقول وفوق حافة الباب . وقد دهش الطفل وصـــار يمد يديه ليمسك بخيوط المطر ويضحك ، فلا يســـعهم الا أن يضحكوا معه ، بينما جلس الشيخ القرفصاء بجانبه وقال : « لا يوجد طفل كهذا الطفل فى اثنتى عشرة قرية . ان أطفال أخى لا يلحظون شيئا قبل أن يستطيعوا المشى »

وفى مثل هذا الوقت كان الفلاحون يتزاورون اذ يشـــعر كل منهم بأن السماء تؤدى عنهم العمـــل فى الحقول ، وبأن زراعاتهم تروى من غير أن تتكسر ظهورهم تحت ثقل جرادل الماء التى يحملونها معلقة على طرفى خشبة فوق أكتافهم لرى تلك الزراعات !

كانوا يجتمعون فى هذا البيت أو ذاك لشرب الشاى وتبادل الاحاديث ، وهم يتنقلون من بيت لآخر حفاة الاقدام ممسكين بمظلات من الورق المقوى لاتقاء المطر . أما النساء فكن يقبعن فى البيوت خلال هذه الفترة ليصنعن الاحذية أو ليرقعن الثياب ـ اذا كن مقتصـــدات ـ أو ليفكرن فى المعدات اللازمة لرأس السنة الجديدة !

على أن (وانج لنج) وزوجته لم يكونا يكثران من التزاور ، فالواقع أن القرية كلها لم يكن بين بيوتها المشتتة بيت كبيتهما مملوء بالدفء والخير ، وكان (وانج لنج) يخشى أن تؤدى كثرة التزاور الى لجوء أهـــل القرية الى الاقتراض منه ، فقد كان عيد رأس الســـنة على الابواب ، وأكثر الأهلين لا يملكون من المال ما يكفى لشراء الملابس الجديدة واقامة المآدب ! . وعلى ذلك آثر الاعتكاف بالبيت ، حيث يصلح جرافاته المصنوعة من (البوص) المشقوق وينسج لها حبالا جديدة من الكتان الذى ينتجه بنفسه ، وكلما وجد سنا مكسورة بها وضع بدلا منها سنا أخرى

أما (أولان) زوجته فكانت بجانب العناية بوليدها تصـــلح الأدوات المنزلية . فاذا وجدت ثقبا باحدى الجرار لم ترمها جانبا كما يفعل غيرها من النساء لتستعمل جرة جديدة بل تمزج الطين بالفخار وتسد تلك الثغرة ثم تسخنه فتعود الجرة جديدة كما كانت !

وهكذا مكثا فى بيتهما ونعم كل منهما برضا الآخر عن عمله وان يكن كل منهما لا يزيد قط على كلمات متفرقة مثل : «هل ادخرت الحبوب للزرعة الجديدة ؟ » . أو : « سنبيع التبن ونحرق سيقان الفول فى الفرن » . وفى أحيان قليلة كان (وانج لنج) يقول لها : « هذه حساء شعرية جيدة ! » .

فتجيب (أولان) تواضعا : « ان دقيق القمح الموجود عندنا هذه السنة من صنف جيد »

وادخر (وانج لنج) من محصول سنة الرخاء هـذه قبضة من الريالات الفضية فاضت عن حاجته ، فخاف أن يبقيها فى حزامه أو يخبر بوجودها أى أحد سوى زوجته . وأخذا يبحثان معا أين يخبئانها، وأخيرا اهتدت المرأة الى حفر ثقب صغير فى الجدار الداخلى لغرفتهما خلف السرير ، فخبأ فيه (وانج لنج) تلك الريالات ، ثم غطته هى بالطين !

وشـعر الزوجان بالغنى والطمأنينة ، وقال (وانج لنج) لنفسه : « حسنا !.. الآن صار لدينا من المال أكثر مما ننفقه، وصار لى اذا مشيت بين رفقائى أن أمشى راضيا شاعرا بالاطمئنان ! »

اقتربت السنة الجديدة فأخذ أهل القرية يستعدون لاستقبالها . وذهب (وانج لنج) الى المدينة حيث اشترى من دكان الشـمع بها بعض الورق الاحمر ، ثم رسم عليه بالفرشاة بماء الذهب حرف السعادة وحرف الغنى، ولصق ذلك الورق على أدواته الزراعية لكى تجلب له حسن الحظ فى السنة الجديدة . ولصق قطعة منه على كل من المحراث وقرنى الثور والدلوين اللذين يحمل بهما السماد والماء . ووضـع على أبواب بيته قطعا من ذلك الورق رسمت عليها بالفرشاة كلمات الفال الحسن ، كما وضع على مدخل الدار قطعة عـلى هيئة زهرة . واشترى كذلك ورقا أحمر لصنع ثياب جـديدة للصنمين ، وقد تولى أبوه الشيخ هذه المهمة وأداها بمهارة برغم رعشـة يديه من الكبر ، ثم أخذ (وانج لنج) تلك الثياب ووضعها عـلى الصنمين الصغيرين فى المعبد الصغير بالحقل وحرق قليلا من البخور أمامهما لمناسبة السنة الجديدة . واشترى لبيته كذلك شمعتين حمراوين ليوقدهما ليـلة رأس السنة فوق المائدة وتحت صورة الهه كانت ملصوقة على الحائط بالغرفة الوسطى

ومرة أخرى ، توجه (وانج لنج) الى المدينة واشترى دهن خنزير وسكرا أبيض ، وجعلت (أولان) ذلك الدهن أبيض ناعما ، ثم أخذت مقدارا من دقيق الأرز كانت قد طحنته من أرزهم فى الطاحونة التى يديرها الثور كلما أرادوا ، ومزجت هذا الدقيق بالدهن والسكر وصنعت من عجينتهما كعكا دسما لعيد رأس السنة ، يسمى (كعك القمر) وقد تعلمت صنعه فى بيت (هوانج) الذى نشأت فيه !

ولما وضعت الكعك على المائدة معدا للأكل ، شعر (وانج لنج) بقلبه يوشك أن ينفجر من الفخر ، فليس بالقرية كلها امرأة أخرى تستطيع أن تصنع مثل ما صنعته امرأته من كعك لا يأكله الا الاغنياء فى الاعياد . وكانت

قد وضعت فى بعضه قطعا من الكريز الاحمر والبرقوق الاخضر المجفف . وبلغ من اعجاب (وانج لنج) به أنه قال : « ان مثل هذا الكعك حرام أن يؤكل ! »

وكان أبوه الشيخ يحوم حول المائدة فرحا بالالوان الزاهية وكأنه طفل صغير ، وما لبث أن قال : « ناد أخى وأولاده ودعهم يروا ! »

غير أن (وانج لنج) رأى أن ليس من الحكمة أن يدعى عمه وأولاده لا لشىء سوى أن يشهدوا كعكا ، فقال لأبيه : « انه لفال سىء أن ينظر أحـد الى الكعك قبل عيد رأس السنة ! »

وقالت (أولان) ويداها ما زالتا تحمـلان آثار دقيق الأرز والدهن : « ان هذا الكعك ليس لنا أن ناكل منه سوى كعكة أو اثنتين . اننا لسنا أغنياء حتى ناكل سكرا أبيض ودهنا . وانما أعددت هذا الكعك للسيدة العجوز فى البيت الكبير ، فسآخذ الطفل اليها فى اليوم الثانى من السنة الجديدة وأقدم لها الكعك هدية ! »

وبهذا زاد الكعك أهمية عن ذى قبل . وسر (وانج لنج) لأن زوجتـه ستذهب زائرة الى تلك القاعة الكبرى ـ التى وقف بها مرة فقيرا وجـلا ، وسيكون معها ابنهما مرتديا ثيابا حمراء ، وكعك مصنوع من أحسن صنوف الدقيق والسكر والدهن !

وهكذا صار كل ما عدا هذه الزيارة فى عيد رأس السنة أمرا ثانويا فى بيت (وانج لنج) . ولما رأى ثوبه الاسود الجديد المصنوع من القطن والذى حاكته له أولان ، قال لنفسه : « سالبس هذا الثوب حين آخذها مع الطفل والكعك الى ذلك البيت الكبير ! »

وفى يوم رأس السنة ، حرص (وانج لنج) على أن يبقى مرتديا ثيـابه العادية ، وقد صح ما توقعه اذ جاء عمه وجيرانه الى البيت ليهنئوه وأباه بالعيد ، وأخذوا يصيحون فى طلب الطعـام والشراب . وكان قد حرص كذلك على اخفاء الكعك الملون فى احدى السـلال حتى لا يضطر لتقديمه لأولئك الضيوف العاديين ، ولما امتدحوا الكعك الابيض البسيط الذى قدم لهم كاد يصيح بهم قائلا : «ماذا تقولون اذن لو أكلتم من الكعك الملون ؟!» . غير أنه امسك ولم يقل شيئا !

وفى اليوم التالى ـ وهو اليوم المخصص لتزاور النسـاء بعد أن أكل الرجال وشربوا فى اليوم السابق ـ استيقظوا فى الفجر فالبست (أولان) طفلها ثوبه الاحمر وحذاءه الذى رسم على مقدمته وجه نمر ، ووضعت فوق رأسه ، بعد أن حلق له أبوه بنفسه آخر يوم من أيام السنة الماضية ، قبعة حمراء حيكت فى جبهتها صورة مذهبة لبوذا ، ثم وضعته عـلى السرير . بينما ارتدى (وانج لنج) ثيابه بسرعة ومشطت زوجته شعرها الاسـود

الطويل وربطته بدبوس من نحاس أصفر مطلى بالفضة كان قد اشتراه لها ثم ارتدت ثوبها الجديد الذى حيك من القماش الذى صنعت منه ثوب زوجها الجديد ، وكانت قد اشترت أربعا وعشرين قدما من ذلك القماش الجيد مع (السماح) بقدمين منه عند المقاس كما جرى العرف فى دكاكين الاقمشة . ثم حمل الطفل وحملت هى سلة الكعك ومضيا الى بيت (هوانج) عبر الحقول القاحلة فى فصل الشتاء !

وهناك عند البوابة الكبيرة لبيت (هوانج) جاء اليهما البواب حين نادته (أولان) وما رآهما حتى فغر فاه دهشة وجعل يفتل الشعرات الثلاث النابتة على خده وصاح قائلا : « آه ! وانج المزارع ! ثلاثة أشخاص بدلا من واحد ! »

ثم لحظ الثياب التى يلبسونها فاستطرد قائلا : « لا حاجة بالانسان الى أن يتمنى لكم حظا فى السنة الجديدة أحسن مما كان لكم فى السنة الماضية ! »

فأجاب وانج لنج فى غير اكتراث كما يتحدث الانسان الى آخر لا يسمو الى طبقته : « ان المحصول كان جيدا ! »

وأثر فى البواب كل ما رآه فقال لوانج لنج : « ارجو أن تجلس فى غرفتى الوضيعة حتى أعلن قدوم زوجتك وطفلك ! »

ووقف (وانج لنج) يرقب زوجته أثناء عبورها الردهة حاملة طفلهما ، والبواب خلفها يحمل هديتها الى ربة البيت الكبير . وكان ذلك كله مما يشرفه . حتى اذا غابا عن بصره اذ دخلا غرفة بعد أخرى ، دخل مسكن البواب حيث استقبلته زوجة هذا بوجهها الذى تعلوه آثار الجدرى ، فقدمت له كرسيا يجلس عليه ، وهو كرسى الشرف الى يسار المائدة بالغرفة الوسطى ، فجلس عليه بغير اكتراث ، ولما قدمت له آنية بها شاى لم يزد على أن وضعها أمامه على المائدة ثم تركها كما هى كان الشاى الذى بها ليس مما يليق بمثله أن يشربه !

وخيل اليه أنه انتظر وقتا أطول مما ينبغى ، فلما رأى زوجته مقبلة على كتفها الطفل ، ومن خلفها البواب ، نظر الى وجهها يريد أن يستشف ما وراءه وأن يستوثق من أن كل شىء على ما يرام . وكان قد تعود ادراك ما يعنيه أقل تغير يبدو فى ذلك الوجه الجامد ، فارتاح لما بدا فى نظراتها من دلائل الرضا التام ، لكنه ود لو يسمع منها تفصيل ما حدث فى جناح النساء الذى لا يتاح له أن يدخله الآن بعد أن لم يبق له شأن به . ومن أجل ذلك سارع الى القيام تأهبا للانصراف ، ثم انحنى قليلا تحية للبواب وزوجته ، وتناول الطفل من زوجته وتقدمها الى الباب الخارجى للدار وهو يحمله بين ذراعيه والطفل مستغرق فى النوم . فلما جاوزا الدار نظر اليها من فوق كتفه وهى تمشى وراءه وقال لها : « خيرا ؟ » . فاقتربت منه قليلا وقالت همسا : « أعتقد أنهم فى ذلك البيت يعانون ضائقة ! »

وكانت تتكلم بصوت مختنق كما يتحدث الانسان عن آلهة يقاسون الجوع ... فقال لها يستحثها على زيادة الشرح : « ماذا تعنين ؟ »

فقالت : « ان السيدة العجوز تلبس هذه السنة ذلك الثوب نفسه الذى كانت تلبسه فى السنة الماضية . ولم أعهد عليها مثل ذلك قط من قبل . وكذلك العبيد لم أجد بينهم من يلبس ثيابا جديدة ! »

ثم سكتت قليلا وأردفت قائلة : « أما ولدنا فلم يكن بين أبناء خليلات السيد العجوز نفسه من يقارن به فى الجمال ولا فى الثياب ! »

فارتسمت ابتسامة عريضة على وجه (وانج انج) ثم ضحك ضحكة عالية وضم الطفل اليه فى حنان . على أنه سرعان ما شمله الخوف اذ فطن عقب ذلك الى أنه يمشى تحت صفحة السماء مع طفل جميل مستهدف لأية روح شريرة تمر مصادفة وسط الهواء ! . ولم يسعه الا أن أخفى رأس الطفل فى ثوبه وهمس الى زوجته قائلا :

ـ ما أسوأ حظنا اذ وهبنا طفلة أنثى لن يريدها أحد ، وهى فضلا عن ذلك مغطى جسمها بالجدرى ! فلندع كى تموت !

فادركت زوجته ما يعنى وقالت : « أجل . أجل ! »

ولما اطمأنا الى هذه الحيطة التى اتخذاها ، عاد (وانج لنج) يحث زوجته على الكلام فقال : « هل علمت لماذا قلت ثروتهم ؟ »

فقالت : « لم أتحدث الا قليلا مع الطاهية التى كنت أساعدها ، على أنى فهمت من كلامها ان هذا البيت لا يمكن أن يستمر غناه لأن الأسياد الشبان الخمسة فيه يسرفون فى انفاق الاموال ويبعثون اليه بامرأة بعد أخرى بعد أن يملنها ، فى حين يضيف السيد الكبير نفسه فى كل عام خليلة أو اثنتين الى خليلاته ، وفى حين تلتهم السيدة العجوز من الافيون كل يوم ما يكفى لملء خزائن بالذهب ! »

فقال (وانج لنج) مندهشا : « أيفعلون ذلك حقا ؟! »

واستطردت (أولان) قائلة : « ثم ان الابنة الثالثة ستتزوج فى الربيع القادم ، وصداقها يكفى لفدية أمير وشراء منصب رسمى فى مدينة كبيرة . ولن تكون ثيابها الا من أفخر حرير (الساتان) على نماذج نسجت فى (سوشو) (هانجشو) .. وسيكون لها حائك يبعث خصيصا من (شنغهاى) مع مساعديه خشية أن تجد ثيابها مغايرة لأحدث طراز هناك فى تلك الجهات الاجنبية ! »

فسألها (وانج لنج) وقد امتلأت نفسه اعجابا وروعة من ذلك الاسراف: « من الذى ستتزوجه ؟ »

فقالت : « ستتزوج الابن الثانى لأحد الحكام فى شنغهاى ! »

وساد الصمت وقتا غير قصير ، ثم استأنفت (أولان) كلامها فقالت :

ـ لا شك أنهم أقل غنى من قبل ، لأن السيدة العجوز نفسها أخبرتنى أنهم يريدون بيع بعض الارض التى يملكونها جنوبى بيتنا خارج سور المدينة ، وقد كانوا يزرعونها دائما بالأرز لأنها أرض طيبة ويسهل ريها من الخندق الذى حول السور !

فقال لها : « يبيعون أرضا ؟! لا شك أنهم بدأوا يفتقرون حقا ! ان الارض هى لحم الانسان ودمه ! »

وجعل يفكر برهة ثم طرقت خاطره فكره فصاح قائلا : « كيف لم افكر فى ذلك ؟.. سنشترى تلك الارض ! »

ونظر اليها مسرورا ، فبدا الذهول مرتسما على وجهها وقالت متلعثمة : « ولكن الارض ... الارض ! »

فصاح بصوت ينم عن كبرياء : « سأشتريها !.. نعم سأشتريها من بيت هوانج الكبير ! »

فقالت له : « انها بعيدة عنا . وسنضطر الى أن نسير نصف الصباح لكى نصل اليها ! »

فقال بعناد كما يقول الطفل حين يكرر طلبا له عند أمه : «سأشتريها !»

وسكتت هى قليلا ثم قالت فى هدوء : « انه لشىء حسن أن يشترى الانسان أرضا . انه بلا ريب أفضل من وضع المال فى حائط من طين . ولكن لماذا لا تشترى قطعة من أرض عمك ؟. انه يلح فى بيع تلك الارض القريبة من حقلنا الغربى ؟! »

فقال (وانج لنج) بصوت مرتفع : « لن أشترى تلك الارض التى لعمى . لقد كان يستمد منها المحصول طول العشرين سنة الماضية من غير أن يضع بها شيئا من السماد أو الكسب ، فتربتها أشبه بالجير وعلى هذا سأشترى أرض (هوانج) فهى أحسن كثيرا ! »

ونطق بكلمة (أرض هوانج) بغير اكتراث كما لو كان يقول (أرض تشنج) جاره فى الارض . انه سيكون أكثر من ند لأولئك القوم الذين يقطنون فى ذلك البيت الكبير الاحمق المتلاف . انه سيذهب اليهم والفضة فى يده ويقول ببساطة : « عندى مال . فما ثمن تلك الارض التى تريدون بيعها ؟ » . وتصور نفسه يقول ذلك للسيد الشيخ ثم يقول لوكيله : « اعتبرنى كأى انسان آخر . فما هو الثمن العادل ؟ انه فى يدى » . وزوجته التى كانت جارية رقيقة فى مطابخ تلك الأسرة المتكبرة ستكون زوجة رجل يملك قطعة من الارض كانت منذ أجيال تجعل بيت هوانج بيتا كبيرا . وكأنما تبينت مجرى فكره لأنها كفت بغتة عن كل اعتراض وقالت :

« اشتر تلك الارض . ان أرض الأرز جيدة وهى قريبة من الخندق ويمكننا الحصول على الماء كل عام . انها مضمونة ! »

▭

وأحدث شراء تلك القطعة من الارض التى امتلكها (وانج لنج) تغيرا كبيرا فى حياته . وقد شعر بأسف شديد على اخراجه نقوده الفضية من مخبئها فى الجدار وذهابه بها الى البيت الكبير حيث كان له شرف التحدث مع السيد الكبير .. ان ذلك الجحر الذى كان مملوءا بالفضة أصبح الآن خاليا منها، وهذه الارض الجديدة هى على أى حال فى حاجة الى كد وكدح ، ثم هى ـ كما قالت (أولان) زوجته ـ على بعد نحو ثلث ميل من البيت . وعدا هذا فان شراءها لم يعد عليه بما كان يتوقع من فخر ، فقد ذهب الى البيت الكبير وقت الظهر وطلب مقابلة السيد الكبير ، واذ وجد أنه لا يزال نائما قال للبواب : « قل للسيد الشيخ انى جئت لأمر ذى شأن يتعلق بالمال » . فأجاب البواب قائلا : « ان جميع مال العالم لن يغرينى بأن أوقظ النمر العجوز . انه نائم مع خليلته الجديدة »

وأخيرا لم يكن هناك بد من عقد الصفقة مع وكيل السيد الكبير ، وهو شخص ماكر ناعم الملمس، ثقلت يداه بالمال الذى يلصق بهما خلال الصفقات التى يعقدها بالنيابة عن سيده العجوز الثرى !

وهكذا لم يفرح (وانج لنج) كثيرا بشراء تلك الارض ، ولكنها أصبحت له على كل حال ، وتم ذلك فى الشهر الثانى من السنة الجديدة ، وان لم يدر أحد غير زوجته أنها أصبحت ملكا له ، وقد توجه على أثر ذلك ليتفقدها، حيث تمتد بجانب الخندق المحيط بسور المدينة . وأخذ يقيسها بعناية فوجدها ثلاثمائة خطوة طولا ومائة وعشرين خطوة عرضا ، وكانت هناك أربعة أحجار عليها شعار آل (هوانج) تحدد تلك الارض ، فقال لنفسه : « لابد من تحطيم هذه الاحجار ، لتوضع بدلا منها أحجار تحمل اسم (وانج لنج) . ولكن فلنؤجل ذلك الآن فانه يجب ألا يعلم الناس اننى غنى الى حد شراء أرض من ذلك البيت الكبير ! »

ثم تغيرت نظرته الى الأمر وازدرى نفسه اذ اهتم بقطعة أرض صغيرة كل هذا الاهتمام !. انه حين وضع نقوده الفضية أمام الوكيل تناولها هذا بغير اكتراث وقال له : « هذا يكفى بضعة أيام لأقيون السيدة العجوز ! »

وبدا له بغتة أن الفارق العظيم الذى بينه وبين ذلك البيت الكبير ليس من الممكن تخطيه ، وأنه كالخندق المملوء ماء أمامه ، او السور العالى الذى وراءه . وعندئذ تملكته عزيمة قوية، وألى على نفسه أن يعيد ملء ذلك الجحر فى الحائط فضة ، مرة بعد أخرى !

ثم حل الربيع ومعه رياح عاصفة وسحب يهطل منها المطر ، وانقلبت

أوقات التبطل فى الشتاء أياما طويلة يكدح فيها (وانج لنج) فى أرضه ، تساعده (أولان) زوجته بينما يعنى أبوه الشيخ بطفلهما أثناء تعيبهما فى الحقول من الفجر حتى غروب الشمس !

ولما لحظ (وانج لنج) أن (أولان) زوجته صارت حاملا مرة أخرى ، تملكه الغيظ لأول وهلة لان هذا قد يقلل مساعدتها له فى العمل عند الحصاد ، فصاح بها : « أهكذا اخترت هذا الوقت لكى تلدى من جديد ؟! »

فقالت له : « فى هذه المرة لا يعد الأمر شيئا يذكر . ان المرة الأولى وحدها هى الصعبة ! »

وفيما عدا ذلك لم يدر بينهما أى حديث عن الطفل الثانى المنتظر ، الى أن كانا فى الحقل يوما ، فاذا بها تضع فأسها فجأة ، وتترك العمل معه عائدة للبيت ، اذ شعرت باقتراب الوضع !

ولم يعد هو للبيت فى ذلك اليوم لتناول الغداء كعادته ، فقد كانت السماء مثقلة بالغيوم ، والأرز الناضج فى الحقل يتطلب الحصاد . وقبل أن تغرب الشمس عادت (أولان) للحقل تاركة وليدها الجديد فى البيت ، وكانت تبدو متعبة وان بقى وجهها جامدا لا ينم عن شىء . فاراد (وانج لنج) أن يصرفها لتستريح ولكن التعب الذى قاساه فى الحصاد وحده جعله قاسيا ، فقال لنفسه : « لقد قاسيت فى العمل وحدى طول اليوم مثل ما قاست هى من الوضع » . ولم يزد على أن سألها وهو يواصل حصد الأرز بمنجله : « أهو ذكر أم أنثى ؟ » . فأجابت فى هدوء : « انه غلام ! »

ولم يتبادلا أى كلمة بعد ذلك ، لكنه كان يادى السرور ، وكأنما شعر بأن مواصلة العمل أصبحت أقل اجهادا من قبل ، وجعلا يشتغلان معا فى الحقل حتى بزغ القمر فوق سحب حمراء ، وعندئذ رجعا معا الى البيت !

ولما تناول عشاءه وغسل جسده الذى حرقته الشمس بماء بارد ، ومضمض فاه بالشاى ، ذهب ليرى وليده الجديد . وكانت (أولان) قد رقدت على السرير بعد انتهائها من طهو الطعام ، ورقد الطفل الى جانبها وكان طفلا بدينا هادئا ولكنه أقل حجما من الطفل الأول حين ولد . فنظر (وانج لنج) اليه ، ثم عاد للغرفة الوسطى راضيا ، لكنه حدث نفسه بأن ليس هناك ما يدعو الى شراء بيض وصبغه بلون أحمر ، ولا الى تلك النفقات الاخرى التى تحملها عند ميلاد الطفل الأول !

ثم صاح بأبيه قائلا : « الآن أيها الشيخ وقد ولد لك حفيد آخر سنضطر الى وضع الطفل الأكبر فى سريرك ! »

فابتسم الشيخ مسرورا ، اذ كان يرجو من زمان بعيد أن ينام هذا الطفل معه فى سريره ليدفىء جسمه المرتعش ، غير أن الطفل لم يكن يرضى أن يترك أمه قبل الآن ، لكنه سيرضى بذلك بعد قدوم هذا الطفل الجديد !

فأل سيء !

بدا عم (وانج لنج) يسبب له كثيرا من المتاعب كما توقع هو نفسه ذلك من قبل . وكان عمه هذا هو الأخ الأصغر لأبيه ، وبحكم صلة القرابة هذه كان له الحق فى أن يعتمد هو وأسرته على (وانج لنج) اذا لم يجدوا كفايتهم من وسائل العيش !

وفيما مضى ، حين كان (وانج لنج) وأبوه فقيرين ، كان ذلك العم يبذل ما يستطيع من جهد فى أرضه ليكسب منها ما يطعم به نفسه وزوجته وأولادهما السبعة . ولكن زوجته كانت من الكسل بحيث لا تتحرك لكنس أرض الكوخ الذى يعيشون به ، كما أن أولئك الاولاد لم يكونوا أنشط منها . وكان من بواعث العار أن كبرت البنات منهم وبلغن سن الزواج لكنهن مع ذلك بقين يتسكعن فى طرقات القرية مشعثات الشعر قذرات الثياب ، وأحيانا كن يحدثن الرجال !

ولما صادف (وانج لنج) كبرى بنات عمه هكذا يوما فى الطريق تملكه الكدر من العار الذى تنزله بأسرته بمسلكها هذا ، فذهب الى زوجة عمه وقال لها : « الآن من ذا الذى يرضى أن يتزوج ابنة عمى وهى تسير هكذا فى الطرقات ؟!.. انها بلغت سن الزواج منذ ثلاث سنوات ، فكيف تترك لتتسكع هكذا ؟ » وقد رأيت جلفا يضع يده على ذراعها فى شارع القرية فجاوبته بضحكة خالية من الحياء ! »

ولما كان لسان امرأة عمه هو العضو النشط الوحيد فى جسمها ، فقد انطلقت تقول له :

ـ حسنا !.. انها بلغت سن الزواج حقا ، لكن من الذى يدفع صداقها وتكاليف عرسها وأجر وسيط الزواج ؟ . ان من السهل أن يتكلم أولئك الذين يملكون من الارض أكثر مما يحتاجون اليه ولا يزالون يشترون المزيد من أرض الأسر الكبيرة بالفضة الفائضة لديهم ، ولكن عمك رجل سيء الطالع وقد كان كذلك منذ البداية من غير ذنب جناه ، فهكذا شاءت له الأقدار !.. واذا كان غيره يستطيعون انتاج القمح الجيد ، فانه هو تموت بذوره فى الارض ولا تنبت منها سوى أعشاب !. وهذا برغم كونه يكد ويكدح حتى يوشك أن يقصم ظهره !

ثم عمدت الى البكاء والنحيب ، وتولتها سورة الغضب فحلت عقدة شعرها

في مؤخرة رأسها حتى غطى وجهها وأخذت تصرخ وتقول : « انك لا تدرى معنى أن يكون الانسان سيء الطالع !. ان حقول الآخرين تنتج أرزا وقمحا بينما حقولنا لا تنتج سوى حشائش !. وحيثما تقوم بيوت الغير مائة سنة أو تزيد تهتز الارض تحت أقدامنا حتى توشك جدران بيتنا أن تنقض . وحيثما تحمل النساء ذكورا أحمل أنا أنثى بعد ذكر !.. وهذا هو سوء الطالع الذى يلازمنا ولم نجد سبيلا الى التخلص منه ! »

وبقيت المرأة تصرخ بأعلى صوتها حتى هرعت جاراتها اليها ليرين ما هناك، على أن (وانج لنج) ثبت فى مكانه برغم ذلك ليتم المهمة التى جاء من أجلها، ثم قال لزوجة عمه :

ـ ليس من شانى أن أنصح لعمى بانه خير للفتاة أن تتزوج وهى عذراء !

وانصرف بعد ذلك قاصدا الى بيته تاركا زوجة عمه تواصل الصراخ والبكاء ، وكان فى نيته أن يشترى هذه السنة قطعة أخرى من الارض من آل (هوانج) طبقا لخطته التى رسمها لنفسه ، كما أنه كان يعتزم بناء غرفة جديدة تضاف الى بيته . ولكن ساءه انه فى الوقت الذى بدأ فيه يكون أسرة مستقرة تعيش عيشة حسنة ، اذا ببنات عمه اللاتى يحملن اسم أسرته يجلبن لها العار !

وفى صباح اليوم التالى زاره عمه فى الحقل الذى كان يعمل وحده فيه ، اذ كانت (أولان) فى البيت تستعد لوضع وليد ثالث !

وكان العم فى حالة يرثى لها من الفقر والاعياء ، يرتدى ثيابا مهلهلة لو أن ريحا هبت عليها لأصبح عارى الجسد ، فلما بلغ الى موضع (وانج لنج) وقف بجانبه صامتا ، وكان هذا يعمل بفأسه فى خط ضيق ليزرع فولا ، فقال له وهو يواصل العمل :

ـ معذرة يا عمى !. انى لا أستطيع ترك العمل كما ترى لأن هذا الفول كما تعلم ، يجب أن يزرع مرتين أو ثلاثا ، ولا شك أنك انتهيت من زرع فولك . أما أنا فانى فلاح بائس لا أتم عملى قط فى حينه لأستريح !

وأدرك عمه ما وراء هذا الكلام ، ولكنه قال فى لين : « انتى رجل سيء الطالع !. فى هذا العام لم تنبت من الفول الذى زرعته حبة واحدة !. وسنضطر الى شراء الفول هذا العام اذا أردنا أن نأكله ! »

ثم تأوه من أعماق قلبه ، وقد أدرك (وانج لنج) أن عمه ما جاء الا ليطلب اليه شيئا ، فأخذ يعمل فأسه فى الارض بحركة منتظمة وبعناية كبيرة ، يكسر كل مدرة فى الارض الناعمة التى تم زرعها من قبل ، وكان نبات الفول يقف مستقيما فى صفوف منتظمة ، ويرسل ظلالا صغيرة فى شعاع الشمس !

وأخيرا استطرد العم يقول : « لقد ذكرت لى المرأة التى فى بيتى اهتمامك

بالجارية الكبرى من بناتى ، وأنت على حق فى كل ما قلته ، فانك أكبر عقلا من سنك .. أجل ينبغى لها أن تتزوج فقد بلغت الخامسة عشرة من عمرها وفاتها الحلف منذ ثلاث سنوات أو أربع . وأنا فى خوف دائم من أن تحمل من كلب ضال وتجلب لى العار وللأسرة كلها !.. تصور مثل ذلك يحدث فى أسرتنا المحترمة ؟! »

فغرس (وانج لنج) فأسه بعنف فى الارض ، وكان بوده لو يتكلم فى صراحة ويقول لعمه : « ولماذا لا تحكمها اذن ؟. لماذا لا تحجزها فى البيت كما ينبغى وتجعلها تكنس وتتظف وتطهو الطعام وتحيك الثياب للأسرة ؟. ولكن هذا لا يجوز أن يقال لمن هو فى مقام الوالد ، ولذلك ظل صامتا واخذ يعمل فأسه حول نبات صغير ، بينما استطرد عمه فقال فى لهجة حزينة :

ـ لو كنت حسن الطالع لتزوجت ـ كما تزوج أبوك ـ امرأة تقدر أن تعمل معه وأن تلد أولادا فى آن واحد ، أو مثل زوجتك أنت أيضا ! . ولكن زوجتى لسوء الحظ لا تعرف أن تنمى أى شيء سوى لحمها ، وهى لم تلد الا أناثا ، وولدا واحدا هو من البلادة بحيث يكاد يعد أنثى . ولولا هذه المرأة وأناثها لاستطعت أن أصبح غنيا مثلك . وفى هذه الحالة كنت بلا ريب أشركك فى ثروتى ، وكنت أزوج بناتك لرجال صالحين وأجعل ابنك (صبيا) فى دكان تاجر وأدفع له الضمانة بلا تردد ، كما كنت أبادر باصلاح بيتك وأطعمك من أطيب طعامى أنت وأباك وأطفالك ، ذلك لأننا أسرة واحدة يجرى فى عروقنا دم واحد !

فأجاب وانج لنج بايجاز : « أنت تعلم أنى لست غنيا !. وعندى فى البيت خمسة أفواه تطعم ، وأبى الشيخ لا يعمل لكنه مع هذا يأكل . والآن يولد لى فم آخر لابد له من الطعام ! »

فبان الغيظ فى وجه عمه وقال له فى حدة : « بل أنت غنى جدا ..! وقد اشتريت أرضا من آل البيت الكبير بمبلغ ضخم لا يعلمه الا الآلهة . فهل أحد سواك بالقرية كان يستطيع ذلك ؟ »

وهنا تملك (وانج لنج) الغضب فرمى فأسه وصاح بغتة وهو ينظر الى عمه شزرا :

ـ اذا كان لدى قبضة من الفضة فهذا لأنى وزوجتى نكد ونكدح، ولسنا مثل بعض الناس نجلس كسالى الى مائدة القمار أو نثرثر على عتبة الدار ، تاركين الحقول تنمو بها الحشائش وأطفالنا يشكون العرى والجوع !

وهنا صعد الدم الى وجه عمه الأصفر ، واندفع نحوه ولطمه بشدة على خديه وهو يصيح به : « كيف تجرؤ على أن تقول مثل هذا لعمك ؟. أليس لك دين ولا خلق حتى تكون قليل الأدب الى هذا الحد ؟! ألم تسمع فى الوصايا المقدسة أنه لا يجوز لانسان أن ينتقد من هو أكبر منه سنا ؟! »

فوقف (وانج لنج) عابسا بلا حراك ، وقد شعر بأنه أخطأ بتوجيهه ذلك اللوم العنيف الى عمه ، وان بقى فى قرارة نفسه حانقا عليه !

ثم صاح عمه قائلا : « سأذيع هذا الذى قلته لى فى القرية كلها !.. وسيعلم الجميع أنك اتهمت ابنة عمك الكبرى امس بأنها ليست عذراء !. وبأنك اليوم أضفت الى ذلك خطيئة أخرى فوجهت الى عمك نفسه اهانة لا تغتفر ناسيا أنه فى مقام ابيك !. والآن لتكن بناتى كلهن غير ابكار ، ولكنى لا أقبل أن أسمع ذلك من أحد كائنا من كان ! »

ثم أخذ يصيح قائلا : « سأنبىء القرية كلها !.. سأنبىء القرية كلها ! »

ولم يسع (وانج لنج) الا أن يسترضيه كارها ، فقد مس كبرياءه أن يقال ذلك عنه فى القرية . وعلى أى حال فعمه وبناته من لحمه ودمه ، وعلى هذا قال له فى لهجة هادئة : « لا تغضب يا عمى !.. ماذا تريد أن أفعل ؟! »

وهنا تولى الغضب عن عمه وحل محله الابتسام ، ثم وضع يده على ذراع (وانج لنج) قائلا : « انى أعرفك !. انت فتى طيب !. نعم ان عمك الشيخ يعرفك حق المعرفة فانت ولدى ولا شك ، والآن ضع فى كفى قليلا من الفضة .. عشر قطع أو تسع قطع ، وعندئذ أستطيع أن أرتب أمر جاريتى (يقصد ابنته) مع وسيط للزواج !.. انك كنت على صواب يا بنى فقد حان الوقت لكى تتزوج تلك الجارية .. نعم لقد حان الوقت ! »

ثم تأوه وهز رأسه أسفا ونظر الى السماء نظرة توسل ورجاء ، بينما أمسك (وانج لنج) فأسه وقذف بها بعيدا ، ثم قال لعمه : « تعال معى الى البيت ، فأنا لا أحمل الفضة معى كما يفعل الأمراء ! »

ومشى أمامه فى الطريق الى البيت ، ولم يتبس بكلمة واحدة طول الطريق ، لكنه كان يفكر حانقا متحسرا على قطع جديدة سينتقل بعضها الى كف عمه ، ومن يدرى ؟.. فقد يضيعها على مائدة القمار قبل أن يرخى الليل سدوله !

وحينما وصلا الى البيت ، وجد (وانج لنج) ولديه الصغيرين يلعبان فوق العتبة عاريى الجسم فى أشعة الشمس ، فدفعهما من طريقه فى جفاء ، بينما ناداهما عمه اليه وأخذ يداعبهما فى حنان ووداعة وهدوء ، ثم أخرج من ثنايا ثيابه قطعتى عملة من النحاس فأعطى كلا منهما قطعة ، وراح يضمهما ويشم خديهما قائلا : « يا لكما من رجلين صغيرين ! »

ولم يقف (وانج لنج) ليشهد هذا المنظر ، بل دخل الى الغرفة التى ينام بها مع زوجته وطفله الاخير ، وقد بدت له مظلمة اذ كان آتيا من وهج الشمس فى الخارج ، وكاد لا يرى شيئا فيها لولا نفاذ قليل من الضوء من خلال ثقب فى السقف ، ثم شم رائحة الدم الدافىء وقد ملأت خياشيمه فصاح قائلا : « ماذا ؟. هل حان الوقت ؟ »

فردت عليه (أولان) زوجته وهى راقدة فى سريرها وقالت بصوت

لا يكاد يبين من فرط الضعف : « نعم لقد انتهى الأمر . وهى فى هذه المرة جارية لا تستحق الذكر ! »

ووقف فى مكانه لا يتحرك ، فقد تملكه شعور بالتشاؤم ، وحدث نفسه قائلا : « أنثى ؟!.. ان كل هذه المتاعب قد سببتها أنثى أيضا هى الابنة الكبرى لذلك الشيخ الواقف بالباب ! »

ولم ينطق ببنت شفة ، بل قصد الى الحائط وأخذ يتحسس الثقب الذى خبأ النقود فيه ، ثم أزال الحجر الذى يسده ، ومد يده الى قطع النقود الفضية فأخذ تسعا منها ، وهنا قالت له زوجته بغتة وسط الظلام : « لماذا تخرج النقود من مكمنها ؟ »

فأجاب بايجاز : « انى مضطر الى ذلك الآن !.. سأقرض عمى اياها ! »

فسكتت قليلا ، ثم قالت بلهجتها السهلة الرصينة : « ليس هناك اقراض فى بيت عمك ، ليس هناك الا المنح ! »

فقال وانج لنج بمرارة : « أعرف ذلك !. وانى اذ أعطيه من مالى أشعر كأنى اقتطع له من لحمى ، لا لشىء سوى أنه قريبى ! »

ثم عاد الى عمه الواقف بالباب ، فدفع النقود اليه ثم رجع مسرعا الى الحقل وأخذ يعمل بعنف وكأنه يريد أن يقطع الارض من أسسها ، ولم يكن يفكر الا فى النقود الفضية ، وتصورها ترمى بغير اكتراث على مائدة القمار ثم تقبض عليها يد أحد الكسالى بعد أن جمعها هو بعرق جبينه من ثمار حقوله لكى يحيلها أرضا له !

وحينما حل المساء ، كانت سورة غضبه قد هدأت قليلا ، وتذكر بيته وطعامه ، وفكر فى الفم الجديد الذى جاء الى بيته فى ذلك اليوم ، وكان فى حنقه على عمه قد نسى أن يلقى نظرة على وجه هذه المخلوقة الصغيرة الجديدة . فوقف معتمدا على فأسه وقد تملكه حزن شديد . انه لن يقدر أن يشترى الارض الجديدة المجاورة للقطعة التى اشتراها الا بعد الحصاد القادم ! ..

وفى تلك اللحظة حوم فوقه فى الجو سرب من الغربان السود وهى تنعق بصوت مرتفع وراتبها حتى حطت فوق الاشجار التى حول حقله ، فلوح بفأسه كأنما يهددها لتطير ، وعادت هى فطارت محلقة فوق رأسه وجعلت تحوم حواليه وكأنها تسخر منه بصيحاتها المزعجة . ثم ابتعدت أخيرا فى الجو . فتنهد بصوت مرتفع . لقد كان ذلك فألا سيئا !

www.liilas.com

جريمة الجوع

خيل الى (وانج لنج) أن الآلهة تنكرت له واعتزمت ألا ترعاه بعد ذلك أبدا !. فقد امتنع هطول الامطار ، خلافا لما كان يتـــوقع من هطولها فى باكورة الصيف ، واستمرت السماء صافية وحرارة الشمس تشتد يوما بعد يوم ، حتى صارت الارض جافة يابسة ، ولم يكن الجو تظهر فيه أية سحابة منذ الفجر ، فاذا حل الليل تألقت النجوم وبدا لونها الفضى المذهب قاسيا قابضا برغم ما فيه من روعة وجمال !

واجدبت الحقول برغم أن (وانج لنج) مكث يفلحها باقصى ما يملك من جهد،وكانت سيقان القمح قد برزت فى جرأة مادة رؤوسها لتمتلىء بالحبوب، ولكنها وقد طال بها انتظار الماء كفت عن النماء ، ووقفت بلا حـراك تحت شعاع الشمس ، ثم انكمشت واصفرت وصارت هشيما تذروه الرياح . وكذلك كانت زراعة الأرز التى وجه (وانج لنج) اليها نشـــاطه بعد أن يئس من زراعة القمح وطالما حمل اليها الماء فى دلوين يحملهما عـلى طرفى عصا غليظة خشنة أرهقت كتفيه الى أن جف المـاء فى البركة ولم يبق فى قاعهـا سوى الطين وغاض ماء البئر وبعد غوره ، حتى قالت (أولان) له يوما : « اذا كان لابد للاطفال أن يشربوا ، ولأبيك الشيخ أن يرشف ماءه الساخن ، فلا مناص من ترك الزرع دون رى ! »

فرد عليها (وانج لنج) فى كدر شديد : « حسنا !. انهم ينبغى لهم أن يموتوا عطشا اذا كان لابد للزرع أن يبقى بلا رى ! »

لقد كانت حياتهم تعتمد كل الاعتماد على ما تنتجه الارض ، وهـذه هى حقولهم كلها لم تنتج شيئا ، فيما عدا قطعة الارض التى بجانب الخنـدق ، وذلك لأن (وانج لنج) حين رأى الصيف ينقضى دون أمطار ترك كل حقوله الاخرى وصار يقضى يومه كله فى تلك القطعة من الارض ، يحمل اليها الماء من الخندق فى صبر عجيب . وحينما حصد القمح الناتج منها ســـارع الى بيعه وقبض ثمنه فضة أطبق عليها كفه وقال لنفسه متحديا القدر وتنكر الآلهة له : « لقد حطمت جسمى فى سبيل هذه القبضة من الفضة ، واذن من حقى أن أصنع بها ما أشاء ! » . ثم توجه من فوره الى دار (هوانج) وقابل الوكيل هناك وابتدره قائلا : «معى من المال ما أشترى به بقية الارض التى على الخندق ! »

وكان (وانج لنج) قد سـمع أن آل (هوانج) أشرفوا على الفقر ، وأن

السيدة العجوز لا تجد حاجتها من الأفيون أياما عديدة متواليه فصـارت كالنمرة الهائجة من الجوع ، ولا تكف عن تعنيف الوكيل ولعنه ، وقد تلطم وجهه بالمروحة وتصيح به قائلة : « الم تبق لدينا أفدنة من الارض ؟ » . كما سمع أن الوكيل نفد صـبره ، وبلغ به الأمر أن قدم للأسرة ما كان يحجزه لنفسه من مال فى الصفقات التى يعقدها لها !. وعدا هذا كله كان السيد الشيخ قد اتخذ لنفسه خليلة جديدة هى ابنة جارية كانت خليلته فى شبابها ووهبها بعد أن سئمها الى خادم فى الدار !

ان ذلك البيت الكبير لم يكن بد من تقوض مجده وضياع ثروته،فعميده السيد الكبير كلما أوغل فى الكبر وزاد جسمه لحما وشحما ، اشـــتدت رغبته فى النساء الخفيفات الجسم اللاتى فى عنفوان الشباب ، وهو لا يريد أن يقتنع بأنه لم يبق يملك من الارض ما يكفى لشراء الحلى والثياب لخليلاته الكثيرات ، فقد تعود فيما مضى أن يجد ما شاء من المال متى شـــاء !... والسـيدة العجوز صارت لا هم لها الا تدخين الأفيون فى اسراف لا يقف عند حد !.. أما أولادهما فكانوا على غرارهما فى الاسراف ، ولا يكفون عن طلب المال من الوكيـــل فاذا لم يلب رغباتهم فورا لاموه واتهموه بســوء ادارته لأملاك الأسرة ، ومن هنا نحل جسم المسكين وصار جلدا على عظم من الغيظ والقلق بعد أن كان بدينا كثير الشحم واللحم !

وفى هذه السنة لم تنتج حقول آل (هوانج) أى شىء من الحاصـلات ، لأن السماء لم ترسل اليها ماء . ومن أجل ذلك كله كان (وانج لنج)وهو يقول للوكيل : « معى فضة لشراء تلك القطعة » كأنه قال : « معى طعـام لسد جوعكم ! » . فتشبث الوكيل بهذه الفرصـــة التى سنحت ، وتمت الصفقة فى دقائق معدودات !..

ولم يشعر (وانج لنج) بأن انتقال الفضة من يده هـذه المرة بمثـابة اقتطاع قطعة من جسمه ، فقد حقق بها أمنية عزيزة لديه ، وصار له الآن حقل فسيح من الارض الجيدة ، فقد كانت مساحة القطعة الجـديدة ضعف مساحة الحقل الاول . وفى هذه المرة لم ينبىء أحدا بما فعـــله ، حتى ولا (أولان)

وانقضى شهر بعد آخر والمطر لا يسقط ، حتى اذا اقترب فصل الخريف تجمعت فى السماء سحب خفيفة صغيرة ، فامتلأت طرقات القرية برجالها الواقفين فى بلادة وقلق يرقبون هذه السحب ويتساءلون أهى محملة بالماء؟ ثم هبت فجاة ريح عاتية من الشمال الغربى ، فعصفت بتلك السحب كما تزيح المكنسة كومة من التراب على الارض ، وعادت السماء خالية قاحلة ، وصارت الشمس تشرق كل يوم ثم تغرب ، وبعـــدها يبزغ القمر وكأنه ـ لصفاء السماء ـ شمس صغيرة تضىء !

واســـتطاع (وانج لنج) أن يجنى من حقوله قليلا من القمـح والفول

والذرة ، وقد حرص على ألا يضيع أى شىء من هذا الحاصل القليل ، فقام هو وزوجته بدق الفول وقشر الحنطة فوق أرض الغرفة الوسطى . ولما أراد أن يضع (القوالح) جانبا لتكون وقودا قالت له (أولان) زوجته : « كلا !.. لا تسرف فيها بالحريق.انى أذكر حين كنت طفلة فى (شانتونج) أن مرت بنا سنوات عجاف مثل هذه ، وعندئذ كنا نطحن (القوالح) ونأكلها ، فهى خير من الحشائش ! »

وتلقى هو وأبوه الشيخ وولداه كلامها فى صمت رهيب وخوف كثير ، ولكن الوليدة الجديدة لم تكن تعرف الخوف ، اذ كان فى ثديى أمها ما يكفى لطعامها وزيادة ، على أن (أولان) ما لبثت قليلا حتى حملت من جديد فجف اللبن فى ثدييها وصارت الطفلة تملأ البيت صراخا من الجوع !

ولو أن أحدا سأل (وانج لنج) : « كيف قمت بأودك وأود أسرتك فى ذلك الخريف ؟ » . لما وجد ما يجيب به ، ولكن هول المجاعة جعل كل انسان فى القرية لا يفكر الا فى نفسه !

وقد بقى يعنى بثوره أشد عناية ، ويجهد نفسه فى تزويده بقليل من التبن ما وجد الى ذلك سبيلا ، فلما نفد التبن صار يقطع له أوراق الشجر الجافة حتى انتهت هذه أيضا بحلول الشتاء . وأخيرا لم تكن هناك أرض تحرث ، ولا بذور تبذر غير التى ماتت فى بطن الارض ، فقد أكلوا كل ما عندهم من البذور !. وهكذا ترك الثور يبحث عن غذائه بنفسه،واكتفى بأن عهد الى ابنه الأكبر فى أن يجلس فوق ظهره طول النهار ويمسكه بحبل مربوط الى أنفه حتى لا يسرق . ثم خاف أن يتركه كذلك فيذبحه جيرانه ويأكلوه ، فصار يربطه الى باب الدار ، ولم تمض أيام حتى بات الثور وكأنه هيكل عظمى لقلة الغذاء !

وأخيرا ، لم يبق بالدار غير قليل من الفول ، فقد نفد كل المدخر من الأرز والقمح برغم التقتير الشديد ، ولم يعد يسمع للثور خوار لشدة ضعفه وهزاله . وعندئذ قال الشيخ : « لم يبق لنا سوى الثور نأكله ! ». فصرخ (وانج لنج) رعبا وكان أباه قال له : « سنأكل انسانا » ، فقد كان الثور رفيقه فى الحقول وقد سار وراءه طويلا ممتدحا اياه ، أو لاعنا أباه ، كما يحلو له ، وقد عرفه منذ كان فتى يافعا اذ اشتروه وقتئذ عجلا صغيرا.. وعلى هذا قال لأبيه : « كيف نأكل الثور ؟!.. وكيف نحرث الارض بعد ذلك ؟ »

فأجاب الشيخ فى هدوء : « اما حياة الثور ، وامّا حياتنا جميعا ! »

ولكن لم تطاوعه نفسه على ذبح الثور فى ذلك اليوم.ثم مر اليوم التالى والذى بعده . وصاح الاطفال فى طلب الطعام ولم يرضوا أن يسكتوا ، ونظرت (أولان) الى زوجها نظرة توسل لأجل أطفالها الجياع ، فأدرك

أخيرا ألا بد من ذبح الثور ، وقال بخشونة : « اذبحوه اذن .. أما أنا فلا أستطيع ! »

ودخل الى الغرفة التى ينام فيها ورقد على السرير وأدنى اللحاف الى رأسه حتى لا يسمع صراخ الثور حين يذبح !. بينما خرجت (أولان) الى خارج الدار وتناولت سكينا كبيرة من المطبخ وذبحت الثور ، وأخذت اناء ليجرى فيه دمه المهراق لتستخدمه فى الطهو ، ثم سلخت الحيوان الضخم وقطعته اربا . ولم يرض (وانج لنج) أن يخرج من غرفته حتى تم الأمر كله وطهى اللحم ووضع على المائدة . غير أنه لما أراد أن يأكل منه اشمأزت نفسه ووقف لحم الثور فى حلقه ، فقنع بأن شرب قليلا من المرق . وعندئذ قالت له أولان : « ان الثور قد كبر وشاخ . واذن يجب أن يؤكل ، وثق أننا سيكون لنا ثور أحسن منه يوما من الايام ! »

وكأنما وجد (وانج لنج) فى هذا القول شيئا من العزاء فأكل قطعة لحم ثم قطعة اخرى ، وأكلوا جميعا حتى شبعوا . وانتهى الثور أخيرا ولم تبق منه الا العظام فمصوا نخاعها ، وجففت أولان جلده

وثارت فى البداية عداوة أهل القرية له اذ حسبوا انه يخبىء عنهم فضة ويحبس دونهم طعاما.وكان عمه من أوائل الذين أحسوا الجوع فجاء متطفلا الى بابه ، والواقع أنه وزوجته وأولادهما السبعة لم يكن لديهم ما يأكلونه. فوضع (وانج لنج) فى ذيل ثوب عمه مقدارا قليلا من الفول وقبضة من الحنطة ثم قال له بحزم : « ان هذا كل ما أستطيعه لمساعدتك ، وعندى أبى وأولادى وكلهم أحق برعايتى ! »

ولما عاد اليه عمه مرة أخرى صاح به : « ان صدق البنوة من جانبى لن يملأ بيتى طعاما » . وتركه يمضى خالى الوفاض !

ومنذ ذلك عاداه عمه كالكلب الذى ركل ، وصار يذيع فى القرية أن ابن أخيه يملك فضة ويقتنى طعاما ولكنه لا يحب أن يعطى أحدا شيئا !

وكانت بيوت القرية ينفد الطعام منها بيتا بعد آخر ، وتنفق آخر درهم لها فى أسواق المدينة لشراء القليل من الغذاء الباقى بها !.. ثم هبت رياح الشتاء من الصحراء جافة قارسة كحد السيف ، فأعان هذا كله عم (وانج لنج) على تضليل أهل القرية الذين اشتدت حاجتهم وأطفالهم الى الغذاء ، وأخذوا يصدقون ما يقوله وهو يسير مرتعدا فى طرق القرية . « هناك شخص يخزن طعاما ولا يزال أطفاله سمانا من الشبع » . وما لبثوا قليلا حتى أخذوا هراواتهم وهرعوا ذات ليلة الى بيت (وانج لنج) وأخذوا يقرعون الباب بعنف ، وما ان فتح لهم حتى هجموا عليه وأزاحوه عن الباب ثم اخ جوا أطفاله المذعورين من الدار ، واقتحموا الغرف وفتشوا كل ركن فيها ، باحثين عن طعام مخبوء ، حتى اذا لم يجدوا سوى قليل من الفول اليابس والحنطة المجففة تملكهم اليأس ، وأخذوا يحطمون المائدة والدكك

والسرير الذى كان الشيخ راقدا فوقه مرتعدا باكيا من الخوف !

وعندئذ برزت لهم (أولان) وارتفع صوتها الواضح الرصين على أصواتهم قائلة لهم : « هذه حماقة منكم !.. لقد أخذتم كل القليل الذى نملكه من الزاد . ولكنكم لم تبيعوا بعد ما فى بيوتكم من موائد ودكك.فدعوا متاعنا لنكون مثلكم ونتساوى معكم فى كل شىء . اننا الآن لا نملك فولة واحدة أكثر منكم ، بل الواقع أنكم الآن فى حال خير من حالنا لان معكم كل ماكان عندنا من طعام . فاذا أخذتم أكثر من ذلك عاقبكم الله بذنبكم . والآن هيا بنا نذهب جميعا معا لنبحث عن حشائش وقشر شجر لنا ولأطفالنا،ولهذا الجنين الذى أحمله وسيولد فى هذا الوقت الرهيب ! »

وكانت تضع يدها على بطنها وهى تتكلم ، فخجل الرجال من أنفسهم وخرجوا من الدار واحدا فى اثر آخر ، لأنهم لم يكونوا أشرارا ولكن الجوع جعلهم كذلك !

على أن « تشنج » الفلاح ذا الوجه الاصفر المجعد الذى يشبه وجه القرد، تلكأ قليلا كأنه يريد أن يقول شيئا يعتذر به لأنه رجل شريف وما دفعه الى هذا الشر الا بكاء طفله من الجوع . ولكن كان فى عبه قبضة من الفول سلبها حين اقتحم الهاجمون المخزن وخاف أن يضطر الى اعادتها اذا هو نطق معتذرا،ولذا قنع بالنظر الى وانج لنج هنيهة ثم خرج لا يلوى على شىء!

ووقف (وانج لنج) بباب بيته حيث كان يقوم بدراس محاصيله الوفيرة عاما بعد عام . وتولاه فزع شديد اذ لم يبق بالبيت أى شىء لاطعام أبيه وأطفاله ، ولا لاطعام زوجته التى كان عليها أن تغذى نفسها والجنين الذى فى بطنها الا أن يأكل من لحم أمه ودمها !. ثم قال يعزى نفسه أخيرا :

ـ انهم لا يستطيعون أن يسلبونى أرضى !. لقد أودعت كدى وثمار حقولى فى شىء لا يمكن أن يسلب أو ينهب . ولو أنى ادخرت الفضة لأخذوها ، ولو أنى اشتريت بها غذاء لنهبوه !

▭

رأى (وانج لنج) بعد أن اشتد الجوع به وأفراد أسرته أن ليس من الحكمة أن يمكثوا هكذا فى الدار حتى يدركهم الموت !.. وكان قد شد حزامه على بطنه ولم يرد أن يفقد حياته فى الوقت الذى اكتملت فيه رجولته، ولكنه لم يدر أين يذهبون ؟!

وأخذ ينظر الى السماء ويهز قبضته فى حنق وغيظ . ثم تحامل على نفسه وتوجه الى معبد الحقل وهو يجر قدما بعد أخرى ، وهناك وقف يحدق فى وجه الصنم الصغير الجالس بجانب قرينته .. ولم تكن هناك عيدان بخور أمام الصنمين اذ لم يقدم لهما شىء منه منذ أشهر ، وكانت ثيابهما

المصنوعة من الورق قد تمزقت وكشفت عن أجزاء من جسديهما المصنوعين من الطين.ولكنهما مع ذلك قبعا فى مكانهما لا يحركهما شىء ، فنظر اليهما (وانج لنج) شزرا وعاد الى بيته ساخطا ورقد على فراشه هو الآخر فى انتظار ما تجىء به الأقدار !

وكانوا قد جففوا قوالح الذرة وأكلوها ، وقشروا الاشجار وتغذوا بقشورها !. وكان الناس فى نواحى الريف كله يأكلون الحشائش حيثما وجدوها بسفوح التلال . ولم يكن ثمة حيوان يرى فى أى مكان !.وكانت بطون الاطفال منتفخة بالهواء ، ولم يكن يرى طفل يلعب فى طرق القرية ، ولم يكن ولدا (وانج لنج) يتخطيان عتبة الباب حيث يجلسان فى الشمس القاسية وقد نحف جسداهما بعد امتلاء وبرزت عظامهما الصغيرة . أما الطفلة فلم تكن تستطيع أن تجلس وحدها مع أن أوان ذلك قد فات بالنسبة لسنها ، وانما كانت ترقد ساعة بعد أخرى ملتفة فى لحاف وهى تبكى وتصيح . وكان صياحها فى البداية يملأ البيت ولكنها تولاها التعب أخيرا فهدأت وصارت تمص أصبعها دون أن ترفع صوتها . وكانت تنظر اليهم جميعا بعينين زائغتين وقد تدلت شفتاها الزرقاوان كأنهما شفتا امرأة عجوز خلا فوها من الأسنان !

وقد أثر منظرها هذا فى قلب أبيها فأحبها وصار دائم الاهتمام بأمرها مع أنه حين كانت صحيحة الجسم مرحة كالأطفال الآخرين ما كان يوليها أى اهتمام !

وكان ينظر اليها أحيانا ويقول : « يا لها من بلهاء مسكينة ! »

ومرة حاولت أن تبتسم فكشفت عن فمها الخالى من الاسنان ، فغلبه البكاء وامسك بيدها الصغيرة فى يده ، وأحيانا كان يحملها وهى عارية الجسد ويضعها على صدره تحت جلبابه ، ويجلس بها هكذا على عتبة الباب وهو يتأمل الحقول اليابسة الجرداء !

أما أبوه الشيخ فكانت حاله خيرا منهم لأنه اذا كان هناك شىء يؤكل كان من نصيبه حتى ولو لم يأكل الأطفال . وكان (وانج لنج) يقول لنفسه فى كبرياء : « ان أحدا لن يقدر أن يتهمنى بأنى نسيت أبى حتى فى ساعة الموت !. بل اذا وجب أن يأكل من لحمى أنا فانى لن أضن به عليه ! »

وكان الشيخ ينام ليل نهار ويأكل ما يعطى اياه وقد بقيت به قوة يزحف بها الى الباب وقت الظهيرة حين تكون أشعة الشمس دافئة ، وقد كان أكثر مرحا منهم جميعا ، وقال لهم يوما بصوت مرتعش كأنه صوت ريح ضعيفة وسط (بوص) مشدوخ . « لقد كانت هناك أوقات شرا من هذه الاوقات !. وقد رأيت فى حياتى رجالا ونساء يأكلون الأطفال ! »

فقال (وانج لنج) وقد تولاه فزع شديد : « لن يكون فى بيتى أبدا شىء من ذلك ! »

وفى أحد الايام جاء جاره (تشنج) اليه فى بيته وقد أصبح هيكلا عظميا وهمس قائلا : « فى المدينة يأكلون الكلاب ، وفى كل مكان يأكلون الخيل والقاذورات من كل نوع . ونحن هنا قد أكلنا الدواب التى كانت تحرث لنا الارض وقشور الاشجار . فماذا بقى الآن لنتبلغ به ؟ »

فهز (وانج لنج) رأسه يأسا . وكان يحمل على صدره طفلته الصغيرة ناتئة العظام فنظر اليها نظرة حزينة وهى ترقبه ولا تحيد عنه ببصرها ، وكلما التقى نظرها بنظره ابتسمت له ابتسامة تكاد تقطع نياط قلبه !

ثم اقترب منه (تشنج) وقال له همسا : « انهم فى القرية يا للون لحم البشر . وقد سمعت هذا عن عمك وزوجته ، ولابد أنه صحيح والا فمن أين لهما هذه القوة التى يعيشان بها ويتسكعان ، وهما اللذان لم يملكا شيئا قط ؟! »

فتراجع (وانج لنج) ذعرا وقد تملكه بغتة خوف لا يدرى كنهه ، ثم قام فجأة كمن يدفع خطرا داهما وقال بصوت مرتفع : « سنغادر هذا المكان !. سنرحل الى الجنوب . ان الناس يموتون جوعا . ولكن مهما يكن القدر قاسيا فانه لن يمحو الناس جميعا ! »

فنظر اليه جاره وقال له بحزن : « أنت شاب ويمكنك أن تهاجر . أما أنا وزوجتى فكبيرا السن وليس لنا سوى ابنة واحدة فمن اليسير علينا أن نموت جوعا ! »

فقال له وانج لنج : « أنت أسعد حالا منى ، فان لدى أبى الشيخ وهؤلاء الاطفال الثلاثة المحتاجين للطعام ، وسيولد لى طفل آخر . فيجب أن نهاجر حتى لا ننسى طبيعتنا البشرية ويأكل بعضنا بعضا كالكلاب الضالة ! »

وبدا له بغتة أن ما قاله عين الصواب ، وصاح بأولان ، وكانت ترقد فى فراشها صامتة ، بعد أن لم يبق شىء لطهوه على الفرن ولا وقود لاشعاله به ، وقال لها : « تعالى يا أولان . اننا سنهاجر الى الجنوب ! »

وكان لصوته رنة فرح لم تعهد فيه منذ أشهر ، ونظر اليه الاطفال ، ودب الشيخ خارجا من غرفته ، وقامت (أولان) فى اعياء من سريرها وجاءت الى غرفتهم واستندت الى الباب وقالت : « انه لشىء حسن أن نرحل فاننا يمكننا على الأقل أن نموت فى أثناء السير ! »

وكان الطفل الذى فى بطنها يتدلى منه كالثمرة البارزة ، ثم قالت : « فلننتظر حتى الغد لكى أضع حملى !.. اننى أعرف عوارض الوضع من حركة الجنين ! »

فقال لها وانج لنج : « لا بأس . فلننتظر الى غد ! »

ثم أبصر وجه زوجته فتملكته الشفقة عليها وقال لها : « كيف تستطيعين المشى ، أنت أيتها المخلوقة البائسة ؟ »

ثم التفت الى (تشنج) جاره الذى كان لا يزال واقفا متكئا على الباب وقال له :

ـ اذا كان لا يزال لديك أى طعام فانى أرجو أن تعطينى قبضة منه لأنقذ حياة أم أطفالى ، وعندئذ أنسى انك كنت مع من اقتحموا بيتى كاللصوص !

فنظر اليه (تشنج) فى خجل وقال بانكسار : « انى منذ تلك الساعة لم أفكر فيك الا غلبنى النـدم !.. لقد كان ذلك الكلب عمك ، هو الذى حرضنى زاعما أن لديك حاصلات مخبوءة . وانى أقسم لك أمام هذه السماء القاسية انى لا أملك الآن سوى قبضة من الفول الاحمر مخبأة تحت حجر عتبتى ، وقد وضعتها مع زوجتى هناك احتياطا لساعتنا الاخيرة ، أنا وزوجتى وطفلتنا ، حتى نموت وفى بطوننا شىء من الطعام . ولكنى سأعطيك جانبا منها ، وغدا يمكنك أن تهاجر الى الجنوب اذا استطعت . أما أنا فسأبقى فى بيتى . انى أكبر منك سنا وليس لى ولد ولا أبالى أأعيش أم أموت ! »

وذهب (تشنج) ثم عاد بعد قليل ومعه مقدار قبضة من الفول الاحمر ملفوفة فى منديل وعليها طبقة من الطين . وانتعش الاطفال عند رؤية الطعام ، ولمعت عينا الشيخ ، ولكن (وانج لنج) دفعهم عنه لأول مرة فى حياته ، وأخذ الطعام الى زوجته فى سريرها فجرشت قليلا منه ، فولة بعد اخرى ، وما كانت لتؤثر نفسها به ، لولا أن ساعة الوضع قد دنت وقد أيقنت أنها اذا لم تتبلغ بشىء فهى لا محالة مائتة وسط ما تعانيه من آلام الوضع !

كان (وانج لنج) قد أخفى حبات من الفول فى راحته ، فوضعها فى فمه وأخذ يمضغها ، وبعدئذ وضعها فى فم ابنته ، ولما رأى شفتيها تتحركان كشعر كانه شبع !

وفى تلك الليلة مكث فى الغرفة الوسطى ، وكان الولدان مع جدهما فى غرفته ، وفى الغرفة الثالثة كانت (أولان) تضع حملها وحدها !

وجلس (وانج لنج) هناك كما جلس فى أثناء ولادة طفله الأول وأخذ ينصت !.. ولم ترد (أولان) أن يكون بجانبها فى تلك الساعة ، بل أرادت أن تضع وحدها بالسة القرفصاء فوق وعاء كبير قديم كانت تحتفظ به لهذا الغرض ، ثم تزحف فى الغرفة تزيح آثار بقع الدم كما تفعل الحيوانات عند الولادة !

وأصغى (وانج لنج) مسترقبا صيحة الوليد الرفيعة التى يعرفها جيدا ، وكان قد تولاه اليأس فهو لا يبالى أيكون الوليد ذكرا أم أنثى ، وانما كان يذكر أن ثمة طفلا جديدا يحتاج الى الطعام ! وغمغم قائلا : « ان من رحمة الله أن يولد ميتا ! » . وعندئذ سمع صيحة ضعيفة تخترق السكون فأتم جملته قائلا : « ولكن لا توجد رحمة فى هذه الأيام ! »

ولم يسمع (وانج لنج) صيحة ثانية اذ عاد السكون يشمل الدار ، وكان البيت يبدو هكذا منذ أيام عديدة ، ولكن (وانج لنج) لم يحتمل ذلك السكون ، فقد تملكه الخوف،وما لبث قليلا حتى نهض وتوجه الى باب الغرفة التى بها (أولان) وصاح بها من الثقب : « هل أنت بخير ؟ » . ولم يسمع أى جواب ، فارتعد جسمه خوفا من أن تكون قد ماتت ، غير أنه سمع صوتها وهى تتحرك فى الغرفة ، وأخيرا سمعها تقول بصوت واهن : « تعال ! » . فدخل على الفور حيث وجدها راقدة على سريرها ولا يكاد جسدها النحيل يرفع الغطاء الى أعلى ، وكانت وحدها فسألها : « أين الطفل ؟ »

فأشارت بيدها الى جثة الطفل على الارض ولم تنبس بكلمة ، بينما صاح هو قائلا : « ميت ؟! » . فهمست قائلة : « أجل ! »

وانحنى (وانج لنج) على الجثة يفحصها ، وكانت كومة من عظم وجلد، وهى طفلة أنثى ، وكاد يقول لزوجته : « لقد سمعت صيحتها فلابد أنها ولدت حية » . ولكنه نظر الى وجه (أولان) وكانت مغمضة العينين ولونها كلون الرماد وجلدها لاصق بالعظام ، فكان وجهها وحده ينم عن كل ما قاسته فلم يجد ما يقوله !.. انه مهما يكن الأمر لم يكن يجر سوى جسده وحده فى هذه الشهور الاخيرة . فما أشد ما عانته هذه المرأة من جوع وفى بطنها جنين يقضم فيه ليعيش !

وحمل الطفلة المائتة الى الغرفة الاخرى وبحث حتى وجد قطعة حصير ممزق فلف فيها جثتها ، وكان رأسها المدور يميل يمينا وشمالا فرأى على جانبيه بقعتين داكنتين ، ولكنه أتم ما كان بصدده ، ثم أخذ الحصيرة بما فيها وذهب بعيدا عن البيت الى أقصى ما تقوى عليه قدماه ، ثم وضع جثة الطفلة فى جوف قبر مهجور ، على سفح التل القائم فى أقصى حقله الغربى. ولم يكد يضع الجثة على الارض حتى جاء كلب ذئبى يحوم وراءه ، وبلغ الجوع منه أنه لما رماه بحجر صغير وأصابه ، لم يتزحزح الا قليلا عن مكانه . ثم شعر (وانج لنج) بركبتيه تخذلانه فغطى وجهه بيديه وذهب عائدا الى البيت وهو يغمغم قائلا : « الأفضل أن يكون الأمر هكذا ! » . وتملكه اليأس والقنوط !

وفى صباح الغد ، خيل اليه أن من الحلم والخيال أن يفكر فى مغادرة هذا البيت مع هؤلاء الاطفال القليلى الحيلة،ومع هذه المرأة الضعيفة ، وهذا الرجل الشيخ . فكيف يقدرون أن يجروا أجسامهم مسافة مائة ميل حتى لو كان الخير والرخاء بعد ذلك ؟.. ومن يدرى أيجد فى الجنوب طعاما أم لا يجد ؟. ولعلهم يستنفدون البقية الباقية من قواهم ليجدوا أناسا آخرين لا يقلون عنهم جوعا ، وهم غرباء عنهم مع ذلك ، أليس الأفضل أن يبقوا حيث هم ليموتوا فى فراشهم ؟

وجلس على عتبة داره مستغرقا فى الفكر ، ناظرا الى غير هدف نحو حقوله اليابسة الجرداء التى اقتلع منها كل نبات يصلح للأكل أو للوقود !

ولم تكن عنده نقود ، ولكن ما فائدة النقود ما دام ليس هناك ما يشترى بها من الطعام ؟!

ومضى فى تفكيره المضطرب ، فتذكر ما سمعه من أن بالمدينة أناسا أغنياء يخزنون الطعام لأنفسهم وليبيعوه لمن هم أغنى منهم ، ولكن ذلك نفسه لم يعد يكدره ، فانه شعر بأنه لا يستطيع السير الى المدينة حتى اذا كان الطعام هناك يقدم بلا مقابل . انه فى الواقع لم يكن يشعر بالجوع فقد وفى الشعور الاول بالجوع الذى كان ينهش فى معدته ، وصار يقدر أن يأخذ قبضة من الطين من بقعة معينة فى حقل من حقوله ويعطيها الى الاطفال دون أن يرغب فيها لنفسه . وكانوا قد ظلوا منذ أيام يأكلون هذا الطين ممزوجا بالماء ، فكان يسد جوعهم برهة ويشغل بطونهم الخاوية . وقد أصر على أن لا يلمس الغول الذى بيد (أولان) تتناول منه واحدة بين فترة وأخرى

ولما جلس على عتبة الدار ، وقد ودع كل أمل وارتاح الى فكرة الرقاد على سريره حتى يموت ، أبصر أناسا يمشون فى الحقول قاصدين له . ومكث جالسا فى مكانه وهم يقتربون ، ثم رأى بينهم عمه وقد جاء معه ثلاثة رجال لا يعرفهم

ثم قال له عمه بلهجة ودية وصوت مرتفع : « انى لم أرك منذ أيام عديدة » . ولما اقترب منه قال له : « لقد طابت عيشتك ! وأخى الأكبر : أليس على ما يرام ؟ »

فنظر (وانج لنج) الى عمه ، لقد أصبح حقا نحيل الجسم ولكن لا يبدو عليه أنه يقاسى الجوع كما ينبغى لمثله . وشعر بالبقية الباقية من قوته تستحيل غضبا وحنقا على هذا الرجل الذى هو عمه . فقال له بلا مواربة : « لقد أحسنت الغذاء ! ما أطيب ما أكلت ! »

ولم يبال الغرباء الذين معه ، ولا واجب الأدب والمجاملة نحوه ، وانما رأى هذا الرجل الذى لا يزال اللحم على عظامه . فنظر عمه الى السماء ورفع يديه وقال : « أكلت ؟. لو أنك رأيت بيتى ؟!. ان العصفور نفسه لا يجد ما يلتقطه فيه . أما زوجتى فهل تذكر كيف كانت بادنة الجسم ؟. انها الآن مثل ثوب معلق على وتد ، ولا يبدو منها سوى عظام ناتئة من الجلد . أما أطفالنا فلم يبق منهم سوى أربعة.والثلاثة الصغار قد ذهبوا : ذهبوا! أما أنا فهأنت ذا ترانى ! »

وقال له (وانج لنج) : « انك يبدو عليك الشبع ! »

فقال عمه بغتة : « انى لم أفكر الا فيك وفى أبيك الذى هو أخى.والآن جئت أبرهن لك على ذلك ، فقد استعرت من هؤلاء الصحاب الطيبين من

المؤونة قليلا من الطعام ، واعدا اياهم بأني ، بالقوة التي أستمدها منه ، سأساعدهم في شراء بعض الاراضي بالقرية.وكان أول ما فكرت فيه أرضك الجيدة ، أنت ابن أخي . وقد جاءوا ليشتروا أرضك ويعطوك في مقابلها المال والطعام والحياة ! »

واذ قال ذلك تراجع الى الوراء مشبكا ذراعيه معا ، ملوحا بكفيه القذرين !. فلم يتحرك (وانج لنج) من مكانه ولم يقف ولم يهتم بالرجال الذين جاءوا مع عمه . وانما رفع رأسه ليلقي نظرة عليهم فرآهم من المدينة حقا . وكانوا يرتدون ثيابا طويلة من الحرير المتسخ ، ولكن أيديهم ناعمة وأظافرهم طويلة وقد بد عليهم الشبع من الدم الذي يجري سريعا في عروقهم . وأحس فجأة بغضا شديدا نحوهم.فقد رآهم أناسا أكلوا وشربوا ثم جاءوا اليه في الوقت الذي يموت فيه هو وأطفاله من الجوع ليغتصبوا أرضه مستغلين كربه !. فنظر اليهم عابسا وقال لهم : « لن أبيع الارض!»

وفي هذه اللحظة زحف أصغر ولديه الى الباب على يديه وقدميه ، اذ كان لضعفه قد عاد لطفولته الأولى وصار يحبو بدل أن يمشي ، فأشار اليه عم (وانج لنج) وقال له : « هل هذا ابنك ! هل هذا هو الطفل السمين الذي أعطيته عملة نحاسية في الصيف الماضي ؟! »

ونظروا جميعا الى الطفل !. وعندئذ بكى (وانج لنج) بغتة ، وهو الذي لم يبك طول تلك الأيام !.ثم التفت الى القوم في ذلة وانكسار وقال لهم : « ما هو الثمن الذي تدفعونه ؟ »

انه هو وزوجته في امكانهما أن يحفرا لنفسيهما قبرين ويرقدا فيهما حتى يوافيهما الموت . ولكن ماذا يصنع أبوه الشيخ وهؤلاء الاطفال الضعاف ؟!

وهنا تكلم رجل من القوم ليس له غير عين واحدة فقال : « ان حالتكم يرثى لها حقا . ولهذا سندفع لك ثمنا لا تنال مثله في هذه الايام ، من أجل هذا الطفل الذي يموت جوعا . سنعطيك .... »

وكف عن الكلام فجأة ، ثم قال بعد هنيهة : « سنعطيك خيطا به مائة درهم ثمنا للفدان الواحد ! »

وضحك وانج لنج بمرارة وقال : « ان معنى هذا أنكم تأخذون أرضي بلا مقابل !.. أنني حين أشتري الارض أدفع عشرين مثلا لما تعرضونه الآن!»

فقال له رجل آخر منهم ، وكان ضئيل الجسم ذا أنف رفيع ولكن له صوتا خشنا غليظا :

ـ ولكنك لا تدفع ذلك الثمن حين تشتري الارض من أناس يموتون جوعا !

وعندئذ نظر (وانج لنج) شزرا الى الرجال الثلاثة ، لقد كانوا واثقين

من اضطراره الى قبول ذلك الثمن الزهيد ، وما الذي لا ينزل عنه الانسان من أجل أطفاله وأبيه اذا كانوا يموتون جوعا ؟..غير أن ضعف الاستسلام في نفسه انقلب غضبا شديدا لم يشعر بمثله من قبل . فقفز نحوهم كما يقفز الكلب على عدو ، وصرخ فيهم قائلا : « انني لن أبيع الارض أبدا ، بل سأحفر الحقول قطعة قطعة وأطعم أطفالي طينا . واذا ماتوا فسأدفنهم في بطن الارض ، وأنا وزوجتي ، وأبي الشيخ نفسه ، سنموت على الارض التي كانت مصدر حياتنا ! »

وظل واقفا يبكي ويرتعد ، في حين وقف عمه والرجال الثلاثة يبتسمون ابتسامة خفيفة ولا يبدون حراكا !

وبغتة ظهرت (أولان) بالباب ، ثم قالت لهم في صوت هادىء وكأن ما هي بسبيله شيء يحدث مثله كل يوم : « لن نبيع الارض بأي حال . والا فاننا حين نعود من الجنوب لا نجد ما نقتات منه . ولكنا سنبيع المائدة والسريرين والفراش والمقاعد الأربع وحتى القدر الذي بالفرن . ولكنا لن نبيع المحراث ولا الفأس ولا المناجل ! »

وكان في صوتها من الهدوء ما هو أقوى أثرا في النفس من غضب (وانج لنج) . فقال لها عمه : « هل ستهاجرون الى الجنوب ؟ »

ثم تهامس الرجال الثلاثة قليلا ، والتفت الرجل الأعور الى (أولان) وقال لها :

ـ انه أثاث قديم لا يصلح الا للوقود . وعلى هذا ندفع قطعتين فضيتين ثمنا له كله !

فقالت له (أولان) في هدوء : « انه أقل من ثمن سرير واحد . ولكن اذا كانت الفضة معك فادفع الثمن سريعا وخذ الأثاث ! »

فتحسس الأعور حزامه ووضع قطعتي الفضة في يدها ودخل الرجال الثلاثة الى البيت وحملوا فيما بينهم المائدة والمقاعد والسرير الذي في غرفة (وانج لنج) مع فراشه ونزعوا القدر من الفرن . ولكنهم لما دخلوا غرفة الشيخ وقف عم (وانج لنج) في خارجها فانه لم يحب أن يراه أخوه الشيخ، ولا أن يشهد وضعه على الارض وأخذ السرير منه.ولما تم ذلك وصار البيت خاليا الا من المنجلين والفأسين والمحراث في ركن بالغرفة الوسطى ، قالت (أولان) لزوجها : « هيا بنا نهاجر في حين نملك قطعتين من الفضة والا اضطررنا الى أن نبيع عروش السقف ثم لا نجد جحرا نأوي اليه حين نعود!»

فقال (وانج لنج) بمرارة : « هيا بنا نذهب ! » . ثم ألقى نظرة على حقوله الجرداء وأردف قائلا :

ـ حسنا !.. اننا على الأقل ما زلنا نملك الارض !

هجرة الى الجنوب

تعاون وانج لنج وزوجته على ربط باب الدار بعد اغلاقه ربطا وثيقا بما كان لديهم من حبال، ثم غادروا القرية فى سكون وهم يرتدون كل ما عندهم من ثياب ، وأخذت أولان سلطانية للأرز وعيدانا لتناول الطعام بها ، ثم واصلوا المشى عبر الحقول حتى جاوزوا سور المدينة ، وكان وانج لنج يحمل طفله على صدره ، لكنه رأى أباه الشيخ يوشك ان يسقط فاعطى أولان الطفلة وحمل أباه على ظهره ، ومشى يتعثر تحت عبء هيكله العظمى ويتصبب منه العرق لفرط الضعف والاعياء !

وكانت الريح عاصفة ، وانتفض الطفلان من شدة البرد ، ولكن (وانج لنج) أخذ يشجعهما قائلا : « أنتما رجلان كبيران مسافران الى الجنوب حيث الدفء والطعام ، وحيث نجد الأرز الابيض كل يوم فنأكل ونشبع ! »

ولكن الوحل كان كثيفا تحت أقدامهم يتخلله الجليد ، فكان عسيرا على الطفلين أن يواصلا السير ، وكانت أولان تئن تحت ثقلها وثقل الطفلة التى تحملها ، بينما وانج لنج يحمل أباه ثم طفليه بالتناوب واحدا بعد آخر ، وقد اضطر الى أن يقف غير مرة ليسترد أنفاسه اللاهثة ، فى حين تجلس الأسرة كلها على الارض فى انتظاره وهى ترتعش من البرد !

ولما وصلوا الى البيت الكبير ـ بيت آل (هوانج) ـ كانت بوابته الكبيرة موصدة ، وأمامها رجال ونساء جلسوا القرفصاء على الدرج ، وسمع وانج لنج أحد هؤلاء يقول لآخر منهم :

ـ ان قلوب هؤلاء الأغنياء قد تحجرت ، فانهم لا يزال لديهم أرز يأكلونه ويصنعون الخمر من فائضه فى حين يتركوننا نموت جوعا !

كما سمع ذلك الآخر يرد قائلا : « آه لو كانت فى يدى بقية من قوة ، اذن لأشعلت النار فى هذا الباب وفى الغرف التى وراءه حتى ولو احترقت بها . ألف لعنة على الآباء الذين خلفوا آل هوانج »

ولكن وانج لنج لم يعبأ بشىء من ذلك، ومضى مع أسرته يواصلون مشيهم صوب الجنوب !

وحينما حل المساء وأوشك الظلام أن يحجب معالم الطريق ، وجدوا جموعا كثيرة من الناس قاصدين الجنوب كذلك . وفيما كان وانج لنج

يبحث عن موضع ينام فيه مع أسرته متلاصقين من البرد ، اذا بتلك الجموع تجرفهم معها فسأل واحدا منهم : « الى أين تذهب هذه الجموع ؟ »

فأجاب الرجل : « اننا قوم نوشك أن نموت من الجوع ونحن ذاهبون الى حيث نركب العربة النارية (يريد القطار) لنذهب بنا الى الجنوب . وهى تسير من ذلك البيت (يريد المحطة) وتوجد عربات لأمثالنا أجرة الركوب فيها أقل من قطعة فضية ! »

وقال وانج لنج لنفسه : « عربات نارية ؟! .. لقد سمعت بها من قبل !.. نعم لقد سمعت فى الايام الخالية أناسا فى مقهى الشاى يتحدثون عن تلك العربات ، ويقولون ان بعضها يربط ببعض بسلسلة من الحديد ، وأنها لا يجرها انسان ولا دابة ، بل تسيرها آلة يخرج منها نار وماء ودخان وكأنها غول ! »

وتذكر أنه اعتزم يوما أن يذهب لمشاهدة تلك العربات النارية لكن شواغله فى الحقول حالت دون ذلك ولم يجد قط فراغا من وقته لاسيما أنه كان فى شمال المدينة بعيدا من البيت الذى تخرج منه تلك العربات

ثم التفت الى زوجته وقال لها مترددا : « ألا نسافر بتلك العربة النارية التى يقولون عنها ؟ » . وكانت أولان تجاهد معه لتسحب الاطفال والشيخ من طريق الجموع ، فلم تستطع الاجابة واكتفت بنظرة شاع فيها القلق والخوف !..

وفى تلك اللحظة سقط الشيخ على الارض، بينما رقد الغلامان الصغيران بجانبه على التراب غير عابئين بأقدام الناس حولهما . ولحظ وانج لنج أن رأس الطفلة يتأرجح على كتف أمها فى حين أن عينيها مغمضتان، فأشفق أن تكون ميتة ، ونسى كل ما هم فيه وصاح بزوجته قائلا : « هل ماتت الجارية الصغيرة ؟ »

فهزت أولان رأسها وقالت : « لم تمت بعد..لا يزال فيها نفس يتردد. ولكنها ستموت هذه الليلة وسنموت نحن كلنا الا اذا ... »

وهنا أمسكت عن الكلام كأنها لا تقدر عليه ونظرت الى زوجها نظرة اعياء ، فلم يقل لها شيئا بل قال لنفسه : « انهم اذا مشوا يوما آخر على هذه الحال فان مآلهم الموت فى ليلتهم هذه »

ثم قال لولديه بصوت فيه رنة العزاء والتشجيع : « قوما أيها الغلامان وساعدا جدكما على النهوض !. سنسافر بالعربة النارية ونجلس وهى تسير بنا الى الجنوب ! »

وفى تلك اللحظة سمع وسط الظلام صوت كصوت الغول وبدت عينان كبيرتان تخرج منهما النار ، فانطلقت صيحات الدهشة والفزع هنا وهناك، وتدافعت الجموع فى اضطراب شديد ، قاصدة الى باب صغير مفتوح وراء

غرفة كالصندوق . ثم ركبوا ذلك الشيء فسار بهم يزأر زئيرا متواصلا وسط الظلام وهم جالسون فى بطنه !

▭

دفع وانج لنج أجر السفر مائة ميل من قطعتى النقود الفضية اللتين معه،وقد أعطاه الموظف الذى أخذهما ما زاد على الأجر المطلوب وهو قبضة من النقود النحاسية ، فاشترى منها (وانج لنج) أربعة أرغفة صغيرة من الخبز الجاف وسلطانية من عصيدة الأرز للطفلة ، ومع أنهم كانوا فى شدة الجوع لم يستطيعوا أن يرددوا ذلك الطعام بسهولة ، فيما عدا الشيخ الكبير فانه أخذ يمضغ الخبز الجاف فى عناء بين لثتيه الخاليتين من الاسنان، ثم يقول لمن حوله : « لابد للانسان أن يأكل !.. ان معدتى الحمقاء أصابها الكسل فى هذه الايام التى لم تجد فيها ما تعمله ، ولكن لابد من اجبارها على العمل ، فليس من الحكمة أن يموت المرء لا لشيء سوى أن معدته لا تريد أن تعمل ! » . وقد أثار هذا ضحكات كل من سمعوه !

وكان بالعربة النارية (القطار) رجال ونساء سافروا الى الجنوب من قبل ، اما فرارا من المجاعات الماضية ، واما لتعودهم السفر كل عام الى المدن الغنية بالجنوب للعمل أو الاستجداء !.. فلما أصغى وانج لنج لما يقولونه ، مباهين بمعلوماتهم ، سمع أحدهم يقول لآخر :

– ينبغى لك أولا أن تشترى ست حصر لتقيم بها سقيفة تأوى اليها ، واذا كنت أريبا لا فلاحا ساذجا ، فلن تدفع أكثر من درهمين ثمنا للحصيرة الواحدة !.. انني لا يمكن أن يخدعنى أهل مدن الجنوب حتى لو كانوا من كبار الاغنياء !

وأعجب وانج لنج بهذا الحديث وهو جالس بين أفراد أسرته على أرض العربة الخشبية التى تسير بهم ، اذ لم يكن بها مقاعد للجلوس عليها وكانت الريح والتراب يطيران فى جوها بعد أن يتفذا من ثغرات بالارض ، فأخذ يرهف أذنيه حتى لا يفوته شيء من تلك المعلومات ، وكان من حسن حظه أن رفع الرجل صوته فصار واضحا برغم قعقعة العجلات ، ومضى يقول لزميله : « بعد ذلك تربط الحصر بعضها ببعض وتصنع منها عشة ، ثم تخرج للاستجداء بعد أن تلطخ نفسك بالوحل والقذارة لتستدر رحمة الجنوبيين الأغنياء ! »

ولم يكن وانج لنج قد استجدى فى حياته أحدا من الناس ، ومن أجل ذلك سأل ذلك الرجل : «هل من الضرورى أن يستجدى الانسان فى الجنوب ليعيش ؟! »

فضحك الرجل وقال : « ان أولئك القوم فى الجنوب قد توافر لديهم

الأرز حتى انك تستطيع صباح كل يوم أن تذهب الى مطعم عام وتشترى بدرهم واحد من عصيدة الأرز الأبيض ما يملأ بطنك . وبعد ذلك يمكنك أن تستجدى وأنت هادىء النفس ثم تشترى فولا وكرنبا وثوماكما تشاء !»

وهنا انتحى قليلا عن الآخرين ، ثم جعل وجهه الى جدار العربة وعد بيده خفية ما بقى فى حزامه من نقود ، فوجد أن معه ما يكفى لشراء ست حصر وسلطانية من عصيدة الأرز لكل فرد من أفراد أسرته ، بل يبقى معه ثلاثة دراهم بعد ذلك ، وشعر عند ذلك بالاطمئنان اذ أن معه ما يكفى ليبدأ به الحياة الجديدة المنتظرة فى الجنوب ، غير أنه بقى غير مستريح الى فكرة استجداء الناس ، وقال لنفسه : « قد يكون ذلك مناسبا لوالدى الشيخ وللطفلة ، وقد تصلح له أولان أيضا بوصفها امرأة ضعيفة .. أما أنا فلا ينبغى لى الا أن أكد وأكدح لأكسب عيشى بعرق جبينى ! »

ثم سأل الرجل مرة أخرى : « ألا يوجد هناك عمل لمن يرغب فيه ؟ »

فبصق الرجل على أرض العربة وقال بازدراء : « عمل ؟.. نعم يمكنك أن تعمل فى جر عربة أو نقالة يسمونها هناك (ريكشا) ويستعملونها فى تنقلاتهم ، لكنك بهذا تنهك قواك بالجرى والجر ، ثم يتجمد عرقك من البرد حين تقف بانتظار عميل آخر يركب عربتك . ولذا أوثر الاستجداء على مثل هذا العمل البغيض الثقيل ! »

ولم يجرؤ على أن يوجه الى الرجل سؤالا آخر ، ورأى أنه قد سمع ما فيه الكفاية ، فالتزم الصمت من جديد ، وبقى كذلك حتى وقفت بهم العربة النارية عند أول مدن الجنوب ، فغادروها مع بقية الركاب . ثم أجلس أباه الشيخ والطفلين بجانب جدار بيت فى أول المدينة ، وكلف زوجته أن تراقبهم ، بينما ذهب هو ليشترى حصرا يقيم بها البيت الجديد الذى سيسكنون فيه !

وأخذ يسأل المارة عن الطريق الى السوق ، لكن لهجته كانت مغايرة للهجتهم الى حد كبير ، فلم يستطع التفاهم معهم ، ولاسيما أنهم جميعا كانوا قليلى الصبر سرعان ما يغضبون !

لكنه وجد دكان الحصر أخيرا فى طرف المدينة فانتقى ست حصر وناول البائع اثنى عشر درهما كشأن من يعرف سلفا ثمن السلعة التى يشتريها، ثم حمل الحصر وعاد الى حيث ترك أسرته،فلما رآه ولداه سارعا الى استقباله وقد عاودهما الاطمئنان بعد أن امتلأ رعبا فى ذلك المكان الغريب عليهما . أما أبوه الشيخ فكان يرقب كل شيء بسرور ودهشة وغمغم قائلا لوانج لنج: « أرأيت ما عليه أهل الجنوب هؤلاء من بدانة وما فى وجوههم من صفرة ودسم ؟!. انهم لا شك يأكلون لحم خنزير كل يوم ! »

وكان الناس يمرون بالأسرة وهى قابعة فى موضعها ذاك فلا يكادون يعبأون بها ، بل يواصلون سيرهم مشغولين بأنفسهم ، ومن حين لآخر

كانت تمر قافلة من الحمير محملة بالطوب لبناء المنازل أو بأكياس كبيرة من الحبوب . وخلف كل قافلة منها سائق راكب على الحمار الاخير وبيده سوط طويل يفرقعه بشدة وهو يزجر الحمير مستحثا . ولحظ (وانج لنج) أن كل سائق من هؤلاء كان يحدج الأسرة بنظرة متعالية ، وكأنه أمير ينظر الى بعض عبيده ، ولم يكن يحلو للسائق أن يفرقع بسوطه بشدة الا حين يقترب من (وانج لنج) وأسرته ، فكان الصوت الحاد الذى يحدثه السوط يفزعهم كل الفزع ، وحينئذ يقهقه السائق مسرورا ، ولما رأى (وانج لنج) أن هذا تكرر مرات متتالية لم يجد بدا من ترك هذه البقعة والبحث عن بقعة أخرى ينصب فيها عشة الأسرة

وهناك الى جانب السور العالى الممتد الى مسافة بعيدة ، كانت مئات من العشش الصغيرة لاصقة به وكأنها براغيث على ظهر كلب !. ونظر وانج لنج مليا الى تلك العشش ثم بدأ يقيم عشته على شاكلتها ، ولما لم يتقن عمله قالت له زوجته :

ـ دع ذلك لى .. انى أعرفه منذ كنت طفلة !

ثم وضعت طفلتها على الارض وأخذت تشد الحصر بعضها الى بعض ، ثم أقامت منها أربعة جدران ، وجعلت لها سقفا على ارتفاع يكفى لان يجلس الرجل تحته دون أن يصطدم بقمته ، كما ثبتت الاطراف السفلى للحصر بالأرض مستعينة على ذلك ببعض الحجارة وقطع الأغصان الجافة ، فلما انتهت من اقامة العشة فرشت الارض فى داخلها بحصيرة كانت قد أبقتها لهذا الغرض . وهكذا صار للأسرة بيت مسقوف مفروش ، فدخلوه وجلسوا فيه آمنين !

ومضى وقت غير قصير وأفراد الأسرة صامتون ينظر بعضهم الى بعض فى ذهول ، وكأنهم لا يصدقون انهم صاروا على بعد مائة ميل من بيتهم الأول وأرضهم ، وأنهم قطعوا فى ليلة واحدة هذه المسافة الطويلة التى لو قطعوها على الأقدام لاستغرقت رحلتهم أسبوعا على الأقل ، ولمات بعضهم أو ماتوا جميعا قبل أن يقطعوها !

وكان يبدو أن نفوسهم قد امتلأت اطمئنانا الى الرخاء فى هذه المنطقة التى لا يبدو فيها أحد جائعا ، ولما قال لهم وانج لنج : « هيا بنا نذهب الى المطاعم الشعبية » قاموا جميعا وقد استخفهم الفرح ، وتقدمهم (وانج لنج) ليرشدهم الى الطريق ، ومن خلفه طفلاه ينقران على سلاطين الأرز الفارغة بالأعواد الخاصة بتناوله وكأنما وثقا من وضع طعام فى تلك السلاطين عما قليل

وعرفوا أخيرا لماذا أقيمت العشش على طول ذلك السور ، فهناك على مسافة قصيرة من طرفه الشمالى كان الشارع المؤدى الى تلك المطاعم الشعبية .

وكان سكان العشش الكثيرون يسيرون فيه حاملين آنية شتى ليضعوا فيها الطعام . فاختلط (وانج لنج) وأسرته بهؤلاء ، ووصلوا معهم أخيرا الى عشتين كبيرتين كان الناس يتدافعون اليهما ، وفى مؤخرة كل منهما فرن كبير لم ير (وانج لنج) مثله ضخامة ، وعلى كل فرن وعاء كبير كأنه لاتساعه بركة صغيرة ، وفيه أرز أبيض يغلى فى الماء وينبعث منه بخار نيف له فى أنوف الجموع الحاشدة ما ليس لأزكى الروائح العطرية ، وماكادوا يشمونه حتى تدافعوا بالمناكب ، وتعالت صرخات الأمهات مشفقات أن يطأ الناس أقدام أطفالهن الباكين فى انتظار الطعام

وكان الرجال الواقفون وراء القدور يصرخون قائلين : « عندنا ما يكفى الجميع فكل بدوره » . ولكن جموع الجياع من الرجال والنساء والاطفال استمروا يتشاجرون كالوحوش فى سبيل السبق الى الطعام . بينما وانج لنج حائر وسطهم وقد أعياه دفع الناس عن أبيه وولديه ، ثم جرفه الزحام أخيرا الى حيث القدر الكبرى، فرفع يده بسلطانيته وفيها درهم ، وما لبث قليلا حتى عاد بها ملأى بالأرز الساخن ، ومن خلفه أبوه وولداه وزوجته . وما كادوا يصلون الى الطريق ثانية حتى وقفوا يأكلون فرحين كأنهم ظفروا بكنز عظيم !

وبقيت فى السلطانية حبات من الأرز فقال لولده الأكبر : « أبقها معك لتأكلها فى المساء » . ولكن سرعان ما تدخل فى الأمر شخص من الحراس المنتشرين هناك ، وكان يرتدى ثيابا خاصة زرقاء حمراء، فأمسك السلطانية فى يد الغلام وقال فى حدة : « ليس لأحد أن يأخذ معه شيئا من الطعام ، بل يجب أن يأكل هنا كل ما يشتريه ! »

فقال له وانج لنج : « ما دمت قد دفعت الدرهم فما شأنك أنت اذا كنت أحمل بقية الطعام فى يدى أو فى بطنى ؟ »

فرد الحارس قائلا . « هذه قاعدة مرعية هنا ، لان من الناس من قست قلوبهم حتى انهم يأتون الى هنا فيشترون الأرز المعد للفقراء بالثمن الزهيد الذى يباع لهم به ثم يحملونه الى بيوتهم ليطعموا به الخنازير !. وهذا الأرز قد جعل للبشر لا للخنازير ! »

فبدت الدهشة فى وجه وانج لنج ثم قال : « أيوجد بين الناس من بلغت بهم القسوة هذا الحد ؟! »

ثم سأل الحارس : «من الذى يعطى هذا الأرز للفقراء بهذا الثمن الزهيد؟»

فأجاب الرجل : « انهم أغنياء المدينة وسراتها ، وبعضهم يفعلون ذلك رغبة فى ثواب الدار الآخرة ، وبعضهم يفعلونه ابتغاء المدح والثناء ! »

فقال وانج لنج : « مهما يكن الأمر فهو عمل طيب ! »

وكان الحارس قد مل الكلام معه فأدار له ظهره . وعندئذ تعلق الغلامان

بأبيهما فعاد بهما وبأبيه الى العشة حيث ناموا جميعا حتى صباح اليوم التالى !

لقد كانت هذه أول مرة شعروا فيها بالشبع منذ فصل الصيف ، ولهذا راحوا جميعا فى نوم عميق !

وكانت الأسرة فى حاجة الى كسب نقود بأى سبيل بعد أن أنفقوا آخر درهم عندهم فى شراء أرز الصباح . ونظر وانج لنج الى أولان متسائلا عما يجب عمله ، ولكن نظرته اليها لم تكن نظرة يأس كتلك التى لاحت فى عينيه حينما كانا فى القرية . فهنا فى الجنوب يغدو الناس ويروحون فى الطرق وعليهم دلائل الشبع ، واللحم والسمك والخضر والأرز والقمح متوافرة فى الاسواق ، فلا خوف من أن يموت رجل وأطفاله من الجوع . أما هناك فالحقول جرداء ، والطرق والاسواق مقفرة حتى ان الفضة نفسها لا تجدى شيئا فى سبيل الحصول على الطعام !

وقالت أولان له فى ثبات وكأنها ألفت هذه الحياة : « اننى أنا والغلامين يمكننا أن نستجدى الناس ، وكذلك أبوك فان شعره الابيض يستدر عطف من لا يعطف على ! »

ثم نادت الغلامين ، وكانا قد نسيا كل شىء سوى أنهما وجدا طعاما وصارا فى مكان غريب عليهما ، فأخذا يجريان فى الشارع ويتفرجان على كل شىء يمر أمامهما ، فلما حضرا قالت لهما : « ليأخذ كل منكما سلطانية ويمسكها بيده ثم يصيح كلما مر أحد به قائلا : (الرحمة يا سيدى . الرحمة يا سيدتى . ان الدرهم الذى تجود به سينقذ طفلا مسكينا من الموت جوعا !) »

كانت تقول ذلك بلهجة تستدر العطف حقا وهى تمد يدها بالسلطانية، فحدق فيها الغلامان متعجبين ، ولم يكن وانج لنج أقل عجبا منهما واخذ يسائل نفسه : « ترى أين تعلمت الاستجداء هكذا ؟! . ألا ما أكثر ما لا أعرفه عن هذه المرأة ! »

وكأنما أدركت هى ما يجول بذهنه فقالت له .

ـ هكذا كنت أفعل وأنا طفلة لكى أكسب طعامى ! . ولقد باعنى أهلى فى سنة كهذه السنة !

وعندئذ استيقظ الشيخ وكان نائما فأعطوه سلطانية ليستجدى فيها هو الآخر ، ثم خرجوا جميعا الى الطريق حيث أخذت أولان تصيح مستجدية وهى تهز آنيتها أمام كل عابر أو عابرة ، بينما الطفلة نائمة على صدرها ورأسها يتأرجح كلما تحركت يد أمها ممدودة بالسلطانية ، فتبدو كأنها ميتة أو توشك أن تموت جوعا ! . مما حدا ببعض المارة الى التصدق على أمها بقطعة أو أكثر من العملة الصغيرة !

أما الغلامان فما لبثا قليلا حتى وجدا فى الاستجداء نوعا من اللعب واللهو ، وكان أكبرهما فى خجل من نفسه يضحك حياء وهو يستجدى فلحظت أمهما ذلك ، وناداتهما ثم دخلت بهما الكوخ ولطمتهما على وجهيهما بشدة وصاحت بهما غاضبة : «تضحكان هكذا فى حين تزعمان أنكما تموتان جوعا ؟ . ان جزاءكما هو أن تموتا حقا من الجوع ! »

واستمرت تلطمهما حتى كلت يداها وجرى الدمع مدرارا من أعين الغلامين وصارا ينتحبان وعندئذ قالت لهما : «الآن تصلحان للاستجداء ! . والويل لكما اذا ضحكتما ثانية ! »

ولم يستطع وانج لنج أن يستجدى الناس ، فمضى فى الشوارع يسأل هنا وهناك عن محل لتأجير النقالات (الريكشا) فلما اهتدى اليه استأجر نقالة ليوم واحد على أن يدفع الأجرة آخر النهار ، ثم انطلق بها الى الشارع وهو يجرها خلفه على عجلتيها ، وقد خيل اليه أن كل انسان ينظر اليه ويسخر من ارتباكه وهو يجرها كأنه ثور يربط الى محراث لأول مرة ! . لكنه ما لبث قليلا حتى تشجع وزايله خجله اذ رأى أمثاله كثيرين فى الشارع يجرون عربات كعربته لينقلوا عليها من شاء الى حيث يشاء ، كما أنه فى حاجة الى كسب عيشه بعمل غير الاستجداء !

وذهب الى شارع فرعى ليس به حوانيت ولكن به أبواب دور خاصة مغلقة ، وأخذ يروح فيه ويجىء بعربته فارغة ليعود نفسه هذا العمل الجديد، وكاد يتملكه اليأس ويؤثر الاستجداء ، واذا بباب ينفتح عن شيخ مهيب يضع على عينيه منظارا ، وتدل هيئته على أنه مدرس ، ثم ناداه هذا الشيخ وأشار اليه آمرا أن يخفض العريشين حتى يركب العربة ، فصدع وانج لنج بالأمر ، ثم قال له الشيخ بعد أن جلس فى العربة فى وقار : « خذنى الى معبد كونفوشيوس ! » . فمضى وانج لنج بالعربة وهو لا يدرى أين يقع ذلك المعبد ولم يجرؤ أن يسأل الشيخ عنه ومر فى طريقه بشوارع مزدحمة يروح فيها الباعة ويغدون بسلالهم ، وتمضى فيها النساء الى السوق ، وتسير فيها عربات تجرها الخيل ، وعربات أخرى كعربته يجرها ناس مثله ، وكل يدفع الآخر فلا تبقى ثمة فرصة للاسراع ، فسار بما يستطيع من سرعة وهو شاعر بارتباك من الحمل الذى وراءه ! . . لقد كان معتادا حمل الأثقال على ظهره ولكنه لم يألف جرها !

وقبل أن تبدو أمامه جدران المعبد كانت ذراعاه تؤلمانه ويداه قد أصابهما تسلخ ، ثم نزل الشيخ من العربة (الريكشا) فى حين وقف وانج لنج أمام باب المعبد صامتا حتى أخرج الشيخ من صدره قطعة فضية صغيرة ومد يده بها قائلا : « لن أدفع أكثر من هذه ، ولا داعى للشكوى ! » . ثم أدار له ظهره ودخل المعبد لا يلوى على شىء

ولم يكن قد رأى هذه العملة من قبل فلم يدر كم تساوى من الدراهم ، ومن أجل ذلك عرج فى طريق عودته على دكان أرز ليصرف تلك

القطعة ، وكان سروره شديدا حين أعطاه الصراف فى مقابلها ستة وعشرين درهما ، وقال يحدث نفسه : « ما أسهل كسب النقود هنا فى بلاد الجنوب ! » .

ولكن سائق (ريكشا) آخر كان يقف الى جواره وهو يعد النقود فقال له : « ستة وعشرون درهما فقط ؟ . ما هى المسافة التى ركبها ذلك الشيخ ؟ »

ولما أخبره وانج لنج صاح به قائلا : « حقا انه لرجل قاسى القلب ! . لقد أعطاك نصف الأجر الذى تستحقه ! لماذا لم تساومه كثيرا قبل أن تحمله على عربتك ؟! »

وكان بعض المارة قد وقفوا يستمعون الى هذا الكلام ضاحكين ، فخجل وانج لنج ولكنه لم يقل شيئا ، وشعر بمهانته وجهله وسط هذا الجمع من أبناء المدينة ، فسحب عربته ومضى فى سبيله وهو يقول لنفسه : « على أى حال ، هذه الدراهم ستكفى لاطعام أطفالى غدا » . ثم تذكر أن عليه أن يدفع أجر العربة ليلا ، وهو ضعف ما معه وأكثر ، فتنهد أسفا ومضى بالعربة هنا وهناك بحثا عن ركاب !

وقبل الظهر نقل راكبا آخر ، وقد ساوم هذا الراكب سلفا حتى اتفق معه على الأجر . وبعد الظهر ركب عربته اثنان آخران . غير أنه بعد هذا كله لم يبق معه سوى درهم واحد بعد دفع أجر العربة ، فعاد الى كوخه وهو فى حنق شديد ، وقال لنفسه : « أفى مقابل كدح يوم كامل ، أشد من يوم حصاد بالحقل ، لا يكسب المرء هنا سوى درهم واحد ؟! » . وعادت الى ذهنه ذكرى أرضه ، ولم يكن قد ذكرها قط طول يومه ، وامتلأت نفسه طمأنينة اذ تذكر أنها لا تزال هناك فى القرية تنتظره حتى يعود !

ولما وصل الى الكوخ وجد أولان قد كسبت فى يومها أربعين قطعة عملة صغيرة ، أى ما يقرب من خمسة شلنات . أما الغلامان فان أكبرهما كسب ثمانى قطع ، والصغير ثلاث عشرة قطعة ، فكانت جملة هذه المبالغ تكفى لشراء أرز الصباح . غير أنهم لما وضعوا ما كسبه الصغير مع غيره بكى وأصر على أن يبقى لنفسه ما كسبه من نقود ، ونام ليلته وهى فى يده ثم لم يقدروا أن يأخذوها منه الا حين لم يجد بدا من ذلك اذا شاء أن يسد جوعه بتناول الطعام !

أما الشيخ ، فلم يكسب شيئا مطلقا . وكان قد صدع بالأمر فجلس طول اليوم الى جانب الطريق غير أنه لم يمد يده بالسؤال ، بل نام ملء جفنيه ، ولما استيقظ أخذ يحملق فى كل من يمر به صامتا حتى تعب من ذلك فنام ثانية ! . واذ كان كبير السن فلم يستطع أحد أن يوجه اليه لوما . ولما رأى يديه خاليتين لم يزد على أن قال : « لقد طالما حرثت الارض وبذرت البذور وحصدت المحاصيل وبذا استحققت غذائى من الأرز . وفضلا عن ذلك لى ولد واحفاد ! »

لحم محرم

هدأت سورة الجوع التى تملكت وانج لنج واسرته ، واطمأنوا الى أنهم سيجدون كل يوم ما يأكلونه من الأرز بعد أن يدفعوا ثمنه من اجر عمله فى جر عربة (الريكشا) ومن تسول زوجته وولديه ، والف هو تلك الحياة الجديدة ، فبدأ يتعرف أحوال المدينة التى أوى واهله اليها ، وساعده فى ذلك جريه هنا وهناك كل يوم بعربته عابرا مختلف أحياء المدينة !

وقد عرف أن الرجال الذين يركبون عربته صباحا يقصدون فى الغالب الى المدارس او المتاجر ، أما النساء فلا يقصدن الا الى السوق !

على انه لم يدر عن تلك المدارس الا القليل ، فاحداها مثلا تسمى « المدرسة الكبرى للتعليم الغربى » أو « المدرسة الصينية الكبرى » ولكنه لم يذهب الى أبعد من بابها الخارجى فلا يدرى ماذا هناك فى داخلها . كذلك لم يكن يعنيه من المتاجر التى يجر ركابه اليها ، الا أن يدفع اليه هؤلاء أجره المناسب !

وقد تعود العمل ليلا ايضا فعرف أن الناس الذين ينقلهم بعربته حينذاك يذهبون الى مشارب الشاى والى اماكن اللهو التى تنبعث منها اصوات الموسيقى ولعب الميسر بقطع من العاج والبوص على منضدة من الخشب ، كما سمع انها تحوى عدا ذلك ضروبا من المسرات الخفية الصامتة ، لكنه بقى لا يعرف شيئا من هذه المسرات لانه لم يدخل قط أحد تلك الاماكن !

كان يعيش فى تلك المدينة الغريبة وكانه فارة فى دار رجل غنى ، تأكل من الفتات الذى يرمى هنا وهناك ، ثم تعود لجحرها لتختفى فيه

ان هذه المدينة (كيانجسو) لا تبعد اكثر من مائة ميل عن (انهواى) المدينة الاخرى التى تقع قريته فى ضواحيها ، وليس هناك فارق كبير بين المدينتين من حيث هيئة الأهلين او لغتهم ، الا ان الاولين ينطقون فى بطء ويخرجون الكلمات من حلوقهم ، بينما اهل مدينة (كيانجسو) تنطلق الكلمات من شفاههم واطراف السنتهم !.. ولكن الفارق الكبير حقا بين المنطقتين هو ان ارض الاولى لا تنتج اذا أنتجت اكثر من مرتين فى السنة ، وانتاجها فى كلتا المرتين قليل سواء اكان من القمح أم من الأرز أم الفول والثوم ، أما الحقول التى حول (كيانجسو) فيدفعها زراعها دفعا الى الانتاج السريع الوفير ، وهم يستعينون على ذلك بأسمدة كريهة الرائحة من الفضلات البشرية فتنتج حقولهم الى جانب الفول مثلا كثيرا من الخضراوات !

وفى موطن وانج لنج اذا اتيح للرجل رغيف به بعض الثوم فانه بعد ذلك وجبة طعام حسنة ويقنع بها . ولكن الناس هنا يأكلون عدا الحنطة والفول شرائح من لحم الخنزير وقسطلا (أبا فروة) وارزا محشوا بالدجاج وقوائص الأوز ، وصنفا او اكثر من الخضراوات !.. فاذا حدث ان فاحت رائحة الثوم من فم احدهم فانهم يرفعون انوفهم اشمئزازا ويقولون ساخرين « هاهوذا رجل كريه الرائحة له ذيل خنزير من اهل الشمال ! »

على ان منطقة الأكواخ الصغيرة القائمة بجانب السور لم تندمج قط فى تلك المدينة ولا فى المنطقة الممتدة وراءها . وذات يوم سمع وانج لنج شابا يخطب جماعة بالقرب من معبد كونفوشيوس حيث يباح لأى انسان ان يقول ما يشاء اذا اوتى الجراة على الخطابة ، وكان ذلك الشاب يقول : « ان الصين يجب ان تثور على الأجانب » ، فتألم وانج لنج من هـذا الـكلام اذ حسب نفسه وأمثاله هم الأجانب الذين يعنيهم الخطيب !

وسمع فى يوم آخر شابا يخطب فى ركن شارع ويقول : « ان الصين يجب أن تتحد وان الصينيين يجب ان يتعلموا » .. فلم يتصور انه هو وانداده ممن يشملهم هذا الكلام !

وأخيرا عرف ذات يوم ان هناك اجانب فى هذه المدينة اكثر منه اختلافا عن اهلها !. فقد كان يومئذ واقفا بشارع سوق الحرير فى انتظار من يركب عربته ، وكان على مقربة منه دكان تخرج منه السيدات بعد ان يشترين حريرا منه وقد سبق أن ركبت معه بعضهن ودفعت له أجرا حسنا . فبينما هو يرقب باب الدكان اذا بسيدة تخرج من هناك لم ير مثلها قط من قبل ، بل الواقع انه لم يدر أول الأمر اهى امراة ام رجل ، فقد كانت طويلة القامة ترتدى معطفا أسود من قماش سميك وقد لفت حول عنقها جلد حيوان ميت !.. ثم نادته وركبت عربته بعد ان نطقت بكلمات غريبة لم يفهم منها غير اسم (شارع الكبارى) . فمضى بها فى العربة الى ذلك الشارع باقصى سرعته ، وهو يسائل نفسه : « هل الراكب معى انثى ام ذكر ؟ » . الى ان صادف زميلا له فى الطريق ، فاستطلع رايه فى هذا الأمر الغريب ، وهنا ضحك زميله وقال له :

ـ انها سيدة من امريكا . . . وستدفع لك أجرا يغنيك !

ولما عاد تلك الليلة الى كوخه ومعه الفضة التى قبضها دون ان ينفقها بعد ، اخبر اولان بما حدث فقالت له : « لقد رايت هؤلاء الأجانب ، وانا دائما أستجديهم فانهم وحدهم الذين يتصدقون بقطع نقد من الفضـة لا من النحاس ! »

غير ان وانج لنج وزوجته حسبا ان الأجانب يدفعون عملة فضية ، لا بدافع حب الخير ، ولكن من جراء جهلهم وعدم درايتهم أن العملة النحاسية هى التى تعطى للشحاذين لا القطع الفضية !

وانج لنج يثور غاضبا على ابنه لانه سرق قطعة لحم من قصاب

وعلى اى حال فقد علم من تلك التجربة ما لم يعلمه من الخطباء الشبان ، وهو انه واحد من عشيرته السود الشعر والعيون !

حسب وانج لنج أن لا خوف على اسرته من الجوع بعد ان استقرت فى كوخها عند مدخل « كيانجسو » تلك المدينة العظيمة المنبسطة ، التى ليست مثل القرية المهجورة لا يوجد بها طعام اذا أجدبت الارض حولها ، بل الغذاء متوافر فى كل مكان بها ، وشوارع سوق السمك المرصوفة قد صفت على جوانبها سلال كبيرة مملوءة بالسمك الفضى الكبير الذى صيد ليلا من النهر ، وبجانبها قصاع بها أسماك صغيرة لامعة صيدت بالشباك من البرك ، والسوق بعد زاخرة بصنوف اخرى من السمك . وكذلك اسواق الخضر بها كل نوع مما يزرع بالارض ، وتلال من الحبوب يمكن الانسان أن يغطس فيها من غير أن يدرى به احد ، فهناك الأرز الأبيض والأسمر ، وفول الصويا الأصفر ، والفول الأحمر والأخضر ، والقمح الأصفر الداكن والذهبى الشاحب ، وهناك الذرة والسمسم وغيرهما . اما اسواق اللحوم ففيها خنازير كاملة معلقة من أعناقها وقد شقت اجسامها ليرى لحمها الاحمر ودهنها السميك وجلدها الناعم . وفيها دكاكين الطيور ترى بها صفوفا من البط الأسمر المقدد ، والبط المملح ، وخيوطا تنتظم ما لا يحصى من القلوب والقوانص والأكباد ، ومثلها من الأوز والديوك البرية وغيرها من صنوف الطيور والدواجن !

وعدا هذه الأسواق كان الباعة يروحون ويغدون حاملين الحلوى والفاكهة والبطاطا الحلوة فى الزيت وشرائح مطهوة من لحم الخنزير وفطائر مصنوعة من الأرز والسكر ، وكان الاطفال يلتفون حول أولئك الباعة وفى أيديهم دراهمهم ، يشترون منهم ويأكلون حتى تلمع بشرتهم من وفرة السكر والزيت !

على أن وانج لنج وافراد اسرته — برغم ذلك كله — كانوا يخرجون من كوخهم فى فجر كل يوم وبأيديهم أوعيتهم وملاعقهم ويمشون فى موكب طويل من الناس ، خرجوا مثلهم من اكواخهم وهم يرتعدون تحت ثيابهم الخفيفة من برد الصباح الباكر ، قاصدين الى المطاعم الشعبية حيث يتاح لكل منهم أن يحصل على سلطانية من عصيدة الأرز فى مقابل درهم واحد !

كان كدح وانج لنج بعربته طول اليوم ، وممارسة اولان استجداء الناس هى وطفلاها . . كل هذا لا يتيح لهم أن يطعموا الأرز لانفسهم فى كوخهم . فاذا كسبوا درهما يفيض عن ثمن الأرز فى المطاعم الشعبية ، طهوا به قليلا من الكرنب ، بل ان الكرنب كان يكلفهم ما لا طاقة لهم به لأن طهيه يحتاج الى وقود ، ولم يكن هناك سبيل الى الحصول على شىء من هذا الا بأن يختطفه الغلامان من أحمال الحطب والأعشاب التى يحملها الزراع الى أسواق الوقود

وقد برع الغلام الأصغر فى هذا العمل ، وفى السرقة عامة ، اكثر من براعته فى الاستجداء . ولم تكن أمة تكترث لذلك ، بل كانت ترى ان يسرق الغلامان

ان لم يستطيعا الاستجداء ليحصلا لنفسيهما على طعام يسد الجوع !. ولكن وانج لنج كان يشمئز من لجوء ولديه الى السرقة ولم يلم اكبرهما حين الفاه قليل البراعة فيها ، فان هذه العيشة التى يعيشونها فى ظل السور الكبير ليست هى الحياة التى يحبها لأسرته ، وهناك أرض تنتظر أوبته !

وفى احدى الليالى عاد الى كوخه متأخرا فوجد فى حساء الكرنب قطعة كبيرة مستديرة من لحم الخنزير . وكانت هذه اول مرة توافر لهم فيها اللحم منذ ذبحوا ثورهم فى القرية ، فدهش وانج لنج وقال لاولان : « لا بد انك استجديت أحد الأجانب اليوم ! »

لكنها كعادتها لم تقل شيئا ، وعندئذ قال الغلام الصغير مفاخرا ببراعته :

— لقد إختلستها !.. انها لى .. وقد غافلت القصاب واختطفتها بعد أن قطعها ووضعها على المنضدة امامه ريثما يقطع غيرها لامرأة جاءت لتشترى منه لحما ، ثم بقيت اجرى بها حتى بلغت عطفة اختفيت خلف باب دار صغيرة بها ، ووضعت قطعة اللحم فى اناء به ماء حتى جاء اخى الاكبر !

وهنا غضب وانج لنج غضبا شديدا وقال : « لن آكل من هذا اللحم المحرم !.. اننا لا نأكل الا اللحم الذى نستطيع أن نشتريه أو نستجديه ، اما اللحم المسروق فلا ناكله ابدا !.. لقد كفى أن صرنا متسولين ويجب أن نموت جوعا ولا نكون من اللصوص !

ثم تناول قطعة اللحم باصابعه من القدر ورماها على الارض من غير أن يبالى بكاء ولده الصغير !.. وعندئذ قامت أولان ببلادتها المعتادة وتناولت اللحم وغسلته بقليل من الماء ثم اعادته الى القدر على النار ، وقالت بهدوء : « ان اللحم لحم ! »

ولم يقل وانج لنج شيئا ولكنه كان غاضبا !. كان يخشى أن ينشأ ولداه لصين فى هذه المدينة ، ولكنه لم يقل شيئا حين قطعت أولان قطعة اللحم قطعا كبيرة واعطت منها للشيخ والد وانج لنج والغلامين وملأت بقطعة منها فم الطفلة واكلت هى منها كذلك !

لم يقل وانج لنج شيئا ولكنه لم يرض أن يذوق شيئا من ذلك اللحم واكتفى بالكرنب الذى كان قد اشتراه . غير انه بعد انتهائهم من تناول الطعام اخذ ابنه الصغير الى الخارج وراء بيت هناك ووضع راسه تحت ذراعه ، ثم أخذ يضربه على جنبيه ضربا موجعا غير مبال صراخه وقال له : « هذا لانك لص ! » . ثم قال لنفسه بعد أن ترك الغلام يرجع باكيا الى الكوخ : « يجب أن نعود الى الارض ! »

وراء السور

عاش وانج لنج وأسرته في مدينة (كيانجسو) يشهدون بأعينهم ما تنعم به من رخاء وأمن واطمئنان،فالغذاء تفيض به الاسواق ، والحرير على اختلاف أنواعه يباع في حوانيت تخفق عليها أعلام مصنوعة منه والعطور الزكية تنبعث من ثياب الاغنياء المتبطلين ، والمقاهي والنوادي والطرقات حافلة دائما بكل ما هو فخم وجميل . ولكن الجحر الذي تعيش فيه الأسرة في الاكواخ التي بجانب السور لا ينعم ساكنوه بطعام يكفي لسد الجوع ولا بثياب تكفي لتغطية الاجساد !

وكان بعض القوم يكدون طول النهار ليصنعوا خبزا وكعكا لولائم الاغنياء .. وكان أطفالهم يكدحون مثلهم من الفجر حتى منتصف الليل ، ثم ينامون بما عليهم من شحم وقذارة فوق فراش من قش على الارض ، فاذا أصبح الصباح عادوا لعملهم في الافران من غير أن ينالوا من الأجر ما يكفي لشراء قطعة من الخبز الجيد الذي يخبزونه لغيرهم !

وكان بعضهم يعملون لاعداد فراء سميكة للشتاء واخرى خفيفة للربيع كما كانوا يطرزون الحرير ويحيكونه لأولئك الذين يأكلون من وفرة الاسواق ، في حين لا يجدون ما يستر أجسامهم غير قطع من الاقمشة القطنية الخشنة الزرقاء !

وفي خلال الأشهر التي عمل فيها وانج لنج بين أولئك الذين يكدون لرفاهية غيرهم ، كان يرى ويسمع كثيرا من الغرائب لم يكن يأبه لها أول الأمر ، ولكن لم يسعه فيما بعد أن يمضي في اهماله اياها !

كان المسكين يمضي في عمله يوما بعد يوم ، لا يشكو ولا يتبرم ، بل يعزي نفسه بأن جر عربة (الريكشا) أسهل كثيرا من جر العربات المحملة بالفحم والخشب الى المخابز والقصور !. وكذلك لم يكن أحد من أولئك الزملاء الاشقياء يشكو ما يجدون من عناء في دفع تلك العربات الثقيلة أو سحبها ، ولا من الحرمان الذي يتمثل في عجزهم عن الحصول على حاجتهم من الغذاء والكساء والغطاء حتى في أبرد ليالي الشتاء !

نعم ، انهم جميعا صامتون لا يتكلمون ، وقد صارت وجوههم كوجه أولان صماء الملامح لا يتبين الناظر اليها أي شعور لاصحابها ، ولا أي فكرة تدور في رؤوسهم !. وفي الاحيان القليلة التي كانوا يتكلمون فيها ، كان

كلامهم كله يدور حول الدراهم المعدودة التي يضحون قواهم في سبيل الوصول اليها لكي يحصلوا بها على عصيدة الأرز أو ما اليها مما لا يسمن ولا يغني من جوع !

وأثر فيهم هذا العناء المتواصل في حمل أثقال تفوق قوتهم ، فجعلت شفاههم العليا ترتفع وتكشف عن أسنانهم فيما يشبه الزمجرة ، وكثرت الغضون الغائرة حول أعينهم وأفواههم فصارت سحنهم مقلوبة مخيفة ، بل صاروا هم أنفسهم على مر الايام لا يكادون يعرفون أنفسهم !. فقد حدث أن رأى أحدهم يوما صورته في مرآة بعربة بضاعة مرت به فصاح قائلا : « ما أقبح هذا الوجه ! » . ولما ضحك سامعوه منه ابتسم وهو لا يدري لماذا ضحكوا ، ونظر حواليه خشية أن يكون قد أساء الى أحد !

وهناك في الاكواخ القذرة التي يعيشون فيها ، حول كوخ وانج لنج كانت النساء يحكن الاسمال والخرق ليجعلن منها ثيابا للاطفال ، وكن يختطفن قطع الكرنب من حقول الزراع ، ويسرقن قبضات من الأرز من أسواق الحبوب ، ويلتقطن فضلات الحصاد على سفوح التلال !. كان الاطفال يولدون ويموتون ثم يولد غيرهم ، وهكذا لا تدري الأم أو الأب كم من أطفالهما ولدوا وكم ماتوا ، ولا يكادان يعلمان كم منهم لا يزالون على قيد الحياة ، وانما كانا يفكران فيهم على أنهم أفواه تتطلب الغذاء !

كان الرجال والنساء والاطفال من هؤلاء القوم يعيشون عيشة أدنى من عيشة السوائم .. يدخلون الاسواق وحوانيت الاقمشة ويتسكعون في طرقات المدينة ، وقليل منهم من يعملون كما يعمل وانج لنج قانعا بذلك الأجر الذي لا يزيد على بضعة دراهم . وأكثرهم يسرقون أو يخطفون أو يستجدون !

وكثر التذمر بين الشباب ، ثم اشتد تذمرهم حين صارت لهم زوجات وأثقلت كواهلهم بأعباء أسرهم التي يزداد عدد أفرادها.ومن هنا استحال غضبهم يأسا قاتلا وثورة أشد من أن تعبر عنها الالفاظ !

وفي ذات مساء ، استمع وانج لنج الى حديث ثائر من هذا القبيل ، فعرف لأول مرة معنى اليأس ، كما عرف ماذا على الجانب الآخر من السور العالي الذي قامت بجانبه تلك الاكواخ !

كان الوقت في أواخر الشتاء ، وقد بدت تباشير الربيع ، وغطيت الارض التي حول الاكواخ بمزيج من الوحل والجليد ، ثم تسرب ذلك المزيج الى داخل الاكواخ ، فصار أفراد كل أسرة يجرون هنا وهناك يبحثون عبثا عن حجر أو نحوه يمكن الجلوس عليه فوق ذلك الوحل ان لم يمكن النوم ساعة أو بعض ساعة للاستراحة من عناء النهار !

ولكن الجو كان برغم ذلك معتدلا ، فلم يسع وانج لنج بعد أن تناولت

الأسرة عشاءها الا أن غادر الكوخ الى طرف الشارع حيث كان أبوه الشيخ قد اعتاد أن يجلس هناك مستندا الى السور . وكان الشيخ جالسا في مكانه المختار ذاك وفي يده طرف حبل فتله من بعض الخرق القديمة ، بينما أمسكت الطفلة طرف الحبل الآخر وراحت تمشي نحو جدها فتتعثر وتقع ، وتبادل جدها ضحكاته !. وكانت قد رضيت أخيرا بأن تكون في رعايته بعد أن حملت أمها مرة أخرى فلم تعد تقوى على حملها فوق صدرها حين قيامها بالعمل في الكوخ أو عند خروجها الى الطريق للاستجداء !

ووقف وانج لنج يراقب طفلته وهي تقع ثم تنهض وأبوه يداعبها بجنب طرف الحبل !. وكأنما أثار اعتدال مزاجه مع اعتدال جو المساء شوقه القديم وحنينه الى الحقول ، فقال لأبيه بصوت مرتفع : « في مثل هذا اليوم يجب أن تقلب الارض ويزرع القمح ! »

فقال الشيخ في هدوء : « أجل . اني أعرف ما يجول بخاطرك . ولقد اضطررت مرتين ثم مرتين في حياتي الى أن أهاجر كما هاجرنا هذه السنة، وأن أترك الحقول بعد أن صارت كما تركناها ليس فيها بذور ! »

فقال له وانج لنج بعد أن سكت قليلا : « لكنك كنت تعود دائما .. اليس كذلك ؟ »

فقال الشيخ في بساطة : « نعم يا ولدي ، لقد كانت الارض هناك فلم يكن بد من الرجوع ! »

فسكت وانج لنج ولكنه حدث نفسه قائلا : « حسنا !.. اننا اذن .. سنعود جميعا ، ان لم يكن هذا العام ففي العام المقبل ، لان الارض لا تزال هناك ! »

واطمأنت نفسه الى هذا الأمل ، واشتد به الحنين الى الارض التي ترتقب أوبته وقد زخرت بأمطار الربيع . ثم نهض عائدا للكوخ حيث قال لزوجته: « لو كنت أملك شيئا يباع لبعته الآن كي نعود لأرضنا . ولعلنا لولا أبي الشيخ كنا نستطيع العود ماشين !.. نعم ان أبي المسكين لا يستطيع أن يمشي مسافة مائة ميل !. وكذلك الطفلة ، ثم أنت الآن حامل ولا طاقة لك بحملها أيضا ! »

وكانت أولان قد غسلت آنية الأرز بقليل من الماء وكدستها في ركن بالكوخ ، فنظرت اليه وهي جالسة القرفصاء هناك وقالت له ببطئها المعهود : « ليس لدينا ما نبيعه سوى الطفلة ! »

فارتاع وانج لنج وقال لها في حزم : « نبيع الطفلة ؟! هذا مستحيل !.. اني لن أبيع طفلة لي مهما تكن الظروف ! »

فقالت له أولان بالبطء نفسه : « لقد باعني أهلي أنا أيضا .. باعوني الى بيت كبير حتى يمكنهم أن يعودوا لأرضهم ! »

فسألها مستنكرا : « أهذا تريدين أن تبيعي طفلتك ؟! »

فأجابت في هدوء : « لو كان الأمر بيدي لآثرت قتلها على أن أبيعها !. لقد كنت أنا حينذاك بحيث أجد من يشتريني ، ولكن مثل هذه الطفلة لا تساوي شيئا . وانما عرضت أن نبيعها من أجلك أنت لكي تستطيع أن تعود للأرض ! »

فقال لها وانج لنج في حدة : « كلا !. لن أبيعها ولو اضطررت الى أن أعيش طول حياتي في هذه البرية ! » . ثم غادر الكوخ الى حيث كانت الطفلة تلعب مع أبيه ، فأخذ ينظر اليها وهي تترنح ممسكة طرف الحبل الذي أمسك جدها بطرفه الآخر . ولاح له أنها نمت وكبرت على الطعام الذي يعطى لها كل يوم ، واذا كانت لم تنطق بعد بأية كلمة فان جسمها ممتلىء كأي طفل في سنها . وصارت شفتاها حمراوين بسامتين ، وما لمحته حتى بدت فرحة برؤيته وازدادت ابتسامتها عذوبة وجمالا ، فقال يحدث نفسه : « كلا !.. أأبيعها وهي تبتسم لي هكذا ؟! »

ثم عاد به الفكر الى أرضه فصاح قائلا : « ألا أراها ثانية ؟.. اننا مع كل هذا الكدح وهذا التسول لا نكسب أكثر مما يكفي لطعامنا يوما بيوم ! »

وهنا سمع وسط الظلام صوت رجل يرد عليه قائلا : « انك لست وحدك في هذا ، بل يوجد مئات ومئات في هذه المدينة ! »

ثم اقترب منه الرجل صاحب الصوت فعرف وانج لنج أنه جاره الذي يقطن وأسرته في الكوخ الثاني بعد الكوخ المجاور لمسكنه هو وأسرته . وكان هذا من النادر أن يرى بالنهار لانه يعمل طول الليل في جر عربات ثقيلة محملة بالبضاعة ، وقد جرت العادة بألا تسير نهارا حتى لا تصطدم بالعربات الاخرى في الطرق ، ولكن وانج لنج كان يراه أحيانا عائدا لكوخه عند الفجر وهو يلهث من الاعياء وقد تدلى كتفاه العريضان بعظامهما الناتئة . كما كان الرجل اذا غادر كوخه عند الغروب ليبدأ عمله الليلي يقف قليلا للتحدث مع من يلقاهم من جيرانه !

وسأله وانج لنج في مرارة : « أترى الحالة تستمر هكذا الى الأبد ؟ »

فجذب الرجل ثلاثة أنفاس من غليونه ثم بصق على الأرض وقال : « كلا !. ليس الى الأبد .. حين يكون الاغنياء أغنى مما ينبغي هناك طرق كما أن هناك طرقا أيضا حين يكون الفقراء أفقر مما يجوز !. »

وسكت وانج لنج اذ لم يفهم شيئا ، بينما واصل جاره كلامه فقال : « في الشتاء الماضي بعنا طفلتين من أطفالنا فاستطعنا أن نعيش . وفي هذا العام اذا كان الجنين الذي ستضعه امرأتي أنثى فسنبيع مرة أخرى !. انه لخير لنا أن نبيعهن من أن نقتلهن وان كان هناك من يؤثرون أن يقتلوهن قبل أن تتردد أنفاسهن !. وعلى كل حال فهناك كما قلت لك طرق لابد من

سلوكها حين يكون الاغنياء أغنى مما ينبغي !.. واذا لم يخطىء حسباني فان هذه الطرق ستتبع عما قريب ! »

ثم أومأ الرجل برأسه وأشار بغليونه الى السور العالي الذي وراءهما وقال : « ألم تنظر قط ما وراء هذا السور ؟ »

ولما هز وانج لنج رأسه نفيا ، استطرد جاره فقال : « لقد أخذت احدى بناتي الى هناك يوما لأبيعها ، وبذلك رأيت كثيرا مما وراء السور !.. انك لا تصدقني اذا قلت لك كيف يجيء المال ويروح في البيت الذي بعته طفلتي !.. ولكن يكفي أن أقول لك ان الخدم أنفسهم في ذلك البيت يأكلون الطعام بعيدان من العاج مطعمة بالفضة ، وان الجواري أنفسهن فيه يتحلين بأقراط من حجر اليشم (حجر كريم) واللؤلؤ بل يعلقن لآلىء بأحذيتهن ، وحينما تعلو الحذاء قطعة من طين أو حين يصيبه شق مما لا يكترث له مثلك ومثلي ، فان صاحبته ترميه جانبا بما فيه من لآلىء ! »

وجذب الرجل أنفاسا طويلة أخرى من غليونه ، في حين فغر وانج لنج فاه من الدهشة . وقال لنفسه : « اذن .. وراء هذا السور توجد أشياء من هذا القبيل ؟! »

ثم عاد الرجل للكلام فقال : « نعم ، ان هناك طرقا لمعالجة الأمر اذا زاد غنى الناس على حده ! »

وكف عن الكلام فجأة ، لكنه قبل أن ينصرف الى المدينة لمزاولة عمله الليلي قال لوانج لنج بغير اكتراث وكأنه لم يقل شيئا من قبل : « حسنا !.. الى العمل ثانية ! »

ولم يذق وانج لنج للنوم طعما طول ليلته هذه ، فقد بقي حتى موعد خروجه الى العمل في الصباح وهو يفكر في الذهب والفضة واللآلىء التي هناك وراء السور ، الذي يرقد في جانبه الآخر وليس على جسمه غير الرداء القديم الذي ليس عنده سواه ، وهو بمثابة الفراش والغطاء !. ثم قال لنفسه « ربما يكون من الخير أن تباع الطفلة الى بيت غني وراء هذا السور حتى تلبس ثيابا فاخرة وتتزين بحلى ثمينة اذا قدر لها أن تكبر وتصير حسناء تسر أحد السادة ! »

ولكنه رد على نفسه قائلا : « لو أني بعتها لما كفاني ثمنا لها وزنها ذهبا وياقوتا !.. واذا كان ثمنها يكفي لاعادتنا الى الارض ، فمن أين لنا ما نشتري به ثورا ومائدة وسريرا ودككا ؟!. أأبيع طفلة لكي نموت في النهاية جوعا في أرضنا بدل أن نموت جوعا هنا ؟!. اننا لا نملك حتى البذور لكي نزرع بها الارض ! »

ولم يدر ما هي الطرق التي أشار اليها جاره في حديثه معه بالأمس غير أنه قال لنفسه : « هناك طرق لابد من سلوكها حين يكون الاغنياء أغنى مما ينبغي ! »

باب الأمان !

طاب الربيع في قرية الاكواخ ، فاستغنى أهلها عن الاستجداء ، وصار النساء والاطفال يذهبون الى التلال والحقول بحثا عن الاعشاب الصغيرة الخضراء والهندباء البرية وما اليها مما تنبت الارض ، ولم يعودوا بحاجة الى أن يختطفوا الخضراوات من هنا وهناك ، فهم يخرجون من أكواخهم كل يوم وفي أيديهم سلال من (البوص) أو الجريد ، ومناجل يتخذونها من الصفيح أو الاحجار المدببة ، ويمضون ساعات في ملء سلالهم من ذلك الرزق الذي ساقه الله اليهم مع الربيع الناضر ذي الجو المنعش البديع !

وكانت أولان وطفلاها ممن يذهبون لهذه المهمة . أما وانج لنج فبقي يمارس عمله المختار كأكثر زملائه الرجال ، غير عابىء بطول النهار ولا بالمطر المفاجىء الذي يملأ الطرقات بالاوحال !

لقد كانوا في الشتاء يكدون صامتين ، صابرين على الثلج والجليد تحت أقدامهم الحافية الا من نعال من القش ، ثم يعودون الى أكواخهم بعد أن ينتشر الظلام ليأكلوا في صمت ما يقدم لهم من طعام تافه هو كل ما نالوه بالكد والاستجداء في يومهم ، ثم ينامون متلاصقين كل أسرة في كوخها الفقير الحقير لتكسب أجسامهم شيئا من الدفء ، وليعوض النوم من قواهم المحطمة ما عجز عن تعويضه ذلك الغذاء التافه القليل !.

أما وقد حل الربيع فقد تبدل الحال غير الحال ، وبدأ الكلام ينبعث من القلوب فتنطق به الأفواه . ولاسيما في المساء اذ يجلس الجميع خارج أكواخهم في ضوء الشفق ويمضون ساعات في السمر والحديث !

وفي هذه الأمسيات اللطيفة رأى وانج لنج رجالا من جيرانه لم يكن قد رآهم في الشتاء ، بل لم يكن يعرف عنهم شيئا لأن أولان كانت تؤثر الصمت فلم تحدثه ـ مثلا ـ عن ذلك الذي يضرب زوجته ، أو عن ذلك الذي أكل البرص خديه ، أو الذي هو زعيم عصابة من اللصوص . ومن هنا صار وانج لنج يقف متهيبا عند طرف حلقة السمر ، مكتفيا بالاصغاء الى الاحاديث التي يتبادلها أولئك الرجال !

كان يشعر دائما بأنه ليس واحدا من هؤلاء ، لأن أكثرهم لا يملكون شيئا بينما هو يملك أرضا تنتظر عودته . واذا كان تفكيرهم كله منصرفا الى قطعة سمك يحلمون بأكلها ، أو الى دراهم معدودة يقامرون بها ، أو الى

ساعة يستريحون فيها من العمل المضنى بالنهار ، فان تفكيره هو لم يكن فى غير أرضه تلك ، وفى الوسائل التى يستطيع بها أن يرجع اليها ، لأنه لن يشعر بالحياة الصحيحة الا اذا شعر بالارض تحت قدميه ، وسار وراء محراث فى الربيع ، وحمل فى يده منجلا فى موسم الحصاد !

وهكذا كان يصغى الى أحاديث جيرانه من بعيد حريصا على ألا يختلط بهم ، ثم سرعان ما ينصرف عن متابعة كلامهم بالتفكير فى أرضه الجيدة التى تنتج القمح وكانت لآبائه من قبله وفى أرضه الجديدة الاخرى التى تنتج الأرز واشتراها هو نفسه من آل (هوانج)

ان هؤلاء الرجال لا يتحدثون الا عن النقود ، فهم يذكرون كم درهما دفعوه ثمنا لقدم من القماش ، أو لسمكة صغيرة لا يزيد طولها على أصبع رجل ، كما يذكرون ماذا يكسبونه فى اليوم أجرا على العمل ، وكان حديثهم ينتهى دائما بذكر ما يفعلونه لو أنهم يملكون مثل المال الذى يكنزه ذلك الرجل الغنى الذى وراء السور

ولم يرض وانج لنج عن أمانيهم التافهة لو صار لهم مثل ذلك المال ، فقد انحصرت هذه الأمانى فى أنهم سيأكلون كثيرا وينامون طويلا ، وسيختارون أطايب الطعام التى لم يتذوقوها قط من قبل ، كما يقامرون فى مشرب شاى كبير ، ويشترون الحسان لشهواتهم ، ويكفون عن كل عمل ، مثل ذلك الرجل الغنى الذى يسكن وراء السور ولا يعمل مطلقا !. وعلى هذا صاح بهم فجأة : « لو صار لى ما ذكرتم من الذهب والفضة واللآلىء لاشتريت بها أرضا ولأنتجت منها حاصلات ! »

وكان طبيعيا ألا تعجبهم وجهة نظره هذه ، لأنهم ليسوا مثله ولا أرض لهم تنتظر عودتهم ، فالتفتوا اليه متعجبين ، وأخذوا فى تأنيبه والسخرية منه ، ووصفه بأنه فلاح من الشمال له ذيل خنزير ولا يدرى شيئا من حياة المدن ولا ما ينبغى عمله بالمال ، ومن أجل ذلك لا يريد الا أن يظل يكدح كالعبد الرقيق وراء ثور أو حمار !

والواقع أن كل واحد منهم كان يرى نفسه أجدر بنيل المال والثروة من وانج لنج لأنهم يعرفون ما ليس يعرفه من وجوه الانفاق والاستمتاع بمباهج الحياة !

غير أن هذا كله لم يغير من رأى وانج لنج . وحينما أوى الى فراشه فى تلك الليلة كان آخر ما حدث به نفسه قبل أن ينام : « مهما يكن الأمر فانى لو أتيح لى أن أملك كل ذهب الدنيا وفضتها ، لاشتريت بهما أرضا خصبة جيدة ! »

وهكذا كان وانج لنج يزداد تفكيرا واشتياقا الى أرضه كلما تقدم الربيع ، واتسع مجال الراحة والترفيه لسكان قرية الاكواخ !. وصار يرى الاشياء

التى تحدث حوله بالمدينة وكأنه يرى حلما من الأحلام ، فاذا رأى أى شىء غريب لم يسأل عنه وقبله على علاته !.. الى أن صادفه ذات يوم شىء أثار فضوله وعبثا حاول صرف ذهنه عن التفكير فيه !.. كان أناس فى المدينة يوزعون أوراقا ، وقد أعطوه ورقة منها هو الذى لا يدرى أى معنى للحروف التى تكتب على الورق ، ومن ثم لم يفهم شيئا مما فى هذه الورقة ، وان رأى مئات منها ملصقة على أبواب المدينة وعلى الاسوار والجدران ، ورأى مئات أخرى منها تباع أو تمنح بلا مقابل !

وكان مما أثار فضوله وعجبه أن الذى أعطاه هذه الورقة كان يشبه تلك السيدة الاجنبية التى ركبت عربته يوما ، غير أن هذا ليس امرأة ، فهو طويل القامة ، نحيل كأنه شجرة جردتها الرياح من أوراقها ، وله عينان زرقاوان ، ووجه ملتح ، ويد حمراء يعلوها شعر ، وأنف كبير بارز بعيد من خديه ، كمقدم السفينة الذى يسبق جانبيها ، وقد خاف وانج لنج أن يأخذ الورقة من هذا الرجل ، ولكن خوفه من رفضها كان أشد ، منذ رأى عينى الرجل العجيبتين وأنفه المخيف . وهكذا أخذ الورقة منه ، ولما جرؤ على النظر اليها بعد ذهاب ذلك الاجنبى ، رأى عليها صورة رجل أبيض البشرة معلقا على صليب من خشب ومضى يتأمل هذا الرجل متعجبا ، فرآه مجردا من الثياب الا ما يستر خصره ، وكل الدلائل تدل على أنه فارق الحياة ، لأن رأسه مدلى على كتفه ، ولأن عينيه مغمضتان فوق شفتيه المحاطتين بلحيته وشاربه .. وكانت هناك حروف تحت صورة هذا الرجل ، ولكن وانج لنج لم يفقه لها معنى !

وحمل تلك الصورة ليلا الى كوخه واطلع عليها أباه الشيخ ، وكان هذا أيضا لا يعرف القراءة فأخذا يتباحثان معا فى معناها ، ثم انضم اليهما الغلامان ، وصاح أحدهما بالآخر قائلا فى دهشة وفزع : « انظر كيف يسيل الدم على جانبه ؟! »

فقال له أخوه : « حقا !.. لابد أنه رجل شرير ختى ، انه علق هكذا ! »

وبقى وانج لنج أياما وهو خائف من الصورة ، يسائل نفسه : « لماذا أعطانى الاجنبى اياها ؟.. أكان له يا ترى أخ عومل هذه المعاملة فهو وأسرته يريدون الانتقام له !؟ »

ولم يجد بدا من تفادى المرور بذلك الشارع الذى صادفه ذلك الاجنبى فيه .. وبعد بضعة أيام كان الجميع قد نسوا أمر تلك الورقة ، فأخذتها أولان وخاطتها مع غيرها من الورق الذى تستعمله فى مكافحة الحفاء !

على أنه ما كادت تمضى أيام قليلة أخرى حتى فوجىء وانج لنج بواحد من أهل المدينة أنفسهم يعطيه ورقة مماثلة . وكان هذا شابا حسن الهندام جعل يتكلم بصوت مرتفع وهو يوزع كثيرا مثلها على من اجتمعوا حوله كشأنهم حيال كل شىء جديد أو غريب فى الطريق . ثم لاحظ وانج لنج أن

الرجل الميت فى الورقة الجديدة ليس أبيض البشرة ملتحيا ، ولكنه مثله هو أصفر البشرة ، أسود الشعر والعينين يرتدى ثيابا خلقة زرقاء ، وقد جلس فوق جثته شخص سمين ضخم الجسم،فى يده سكين يطعن بها الجثة!٠ فحملق وانج لنج طويلا محاولا عبثا أن يفهم شيئا مما تعنيه الحروف المكتوبة تحتها ٠ ثم التفت الى رجل كان واقفا الى جواره وسأله : « ألا تعرف حرفا أو حرفين حتى يمكنك أن تنبئنى بمعنى هذا الشىء المخيف ؟! »

فقال له الرجل : « اسكت واستمع الى هذا المعلم الشاب فانه سيشرح لنا كل شىء ! »

وهكذا أصغى وانج لنج فسمع شيئا لم يسمعه قط من قبل ، فقد كان الشاب يقول : « ان الرجل الميت هو أنتم أنفسكم ٠ والقاتل المجرم الذى يطعنكم وأنتم موتى لا تشعرون هم الاغنياء وأصحاب رؤوس الاموال الذين يطعنونكم حتى بعد أن تموتوا ٠ انكم فقراء تدوسكم الاقدام ، وذلك لأن الاغنياء يستحوذون على كل شىء ! »

وكان وانج لنج يعرف من قبل أنه فقير ، ولكنه كان يلقى تبعة فقره على السماء التى لم ترض أن تنزل المطر فى موسمه ، أو التى لا تفتأ تمطر حتى تغرق الارض وتتلف البذور٠٠أما حين كان هناك تناسب بين المطر والشمس يسمح للبذور بأن تنبت وللسيقان بأن تحمل الحبوب ، فلم يكن يعد نفسه فقيرا ٠ ومن ثم تاق لأن يسمع أكثر مما سمع ، ليعلم ما شأن الاغنياء بعدم نزول المطر فى موسمه ٠٠ وقد تكلم الخطيب الشاب كثيرا ، لكنه لم يذكر شيئا عن هذا الأمر ، ولهذا تجرأ وانج لنج وسأله : « ما هو السبيل الى أن يجعل هؤلاء الأغنياء الظالمون السماء تمطر فأتمكن من العمل فى الارض؟»

فالتفت اليه الشاب بازدراء وأجابه قائلا : « ما أجهلك !٠ ولكنك معذور فانت لا تزال تحمل شعرك على رأسك وكأنه ذيل حيوان !٠ ان أى انسان لا يمكنه أن يجعل السماء تمطر حين لا تريد أن تمطر ، ولكن ما شأننا نحن بذلك ؟٠ لو أن الاغنياء اقتسموا منا ما عندهم ، لما بالينا أتمطر السماء أم لا تمطر ، لأننا فى هذه الحالة كنا نملك جميعا المال والطعام ! »

وعلى أثر ذلك ضج المستمعون استحسانا لكلام الخطيب الشاب ، ولكن وانج لنج تركهم وهو غير مقتنع !٠٠ وأخذ يقول لنفسه : « أجل !٠ هناك الارض ولا شىء غير الارض !٠٠ان المال والطعام سينفدان،واذا لم يتناسب المطر والجفاف ، فان المجاعة تعود من جديد ! »

ومع هذا أخذ وانج لنج جميع الاوراق التى أعطاه الشاب اياها ، فهو يعرف أن أولان فى حاجة الى ورق لنعل الاحذية !٠٠ وقد ناولها تلك الاوراق حين عاد للكوخ وهو يقول : « هاك ورقا لنعل الاحذية » ٠ ثم عاد منذ الصباح التالى لمواصلة عمله كما كان !

على أن كثيرين من ساكنى قرية الاكواخ ، لم ينسوا ما سمعوه من الخطيب الشاب ، وقد زادهم هذا تفكيرا فيما وراء الاسوار حيث يعيش ذلك الغنى الواسع الثراء ٠٠ وبدا لهم أن هذا الحاجز البسيط الذى يحول بينهم وبين ثروة الرجل ليس يحتاج هدمه الى أكثر من ضربات قلائل ، بالقوائم الخشبية التى عندهم وبها يحملون الأثقال فوق أكتافهم !٠ وكان هذا الشعور يقوى ويشتد فى نفوسهم نتيجة للدعايات الهدامة التى يقوم بها كثيرون من أمثال ذلك الشاب !

وهكذا صارت صدور أكثر ساكنى الاكواخ تغلى بالحقد والبغضاء والتفكير فى تحقيق تلك الرغبات الوحشية الجامحة ، ولكن وانج لنج بقى يرى ويسمع كل ذلك ، فيشعر بقلق شديد ، غير أنه مع هذا لم تكن له من أمنية الا أن يشعر بأرضه تحت قدميه ثانية !

ثم رأى وانج لنج شيئا جديدا لم يفهمه فى هذه المدينة التى لا تفتأ تباغته بغرائبها !٠ فقد كان يجر عربته يوما وهى خالية فى أحد الشوارع منتظرا أن يناديه أحد الناس ليركب معه ، وانه لكذلك اذا به يرى جماعة من الجنود يقبضون على رجل،فلما قاوم هذا هددوه بالخناجر فاستسلم لهم صاغرا ، وفيما كان وانج لنج يتأمل ذلك المنظر متعجبا رأى الجنود يمسكون رجلا آخر فثالثا فرابعا ، وكلهم أناس عاديون يعملون بأيديهم ويكسبون من عرق جبينهم !٠ثم لم يمض قليل حتى قبضوا على شخص آخر هو أقرب جيران وانج لنج اليه من ساكنى الأكواخ !

وبدا له فجأة أن جميع هؤلاء الذين يقبض عليهم هكذا لا يعرفون لماذا يأخذونهم هكذا طوعا أو كرها ، فسارع الى وضع عربته فى عطفة واندفع الى باب دكان للماء الساخن خشية أن يقبض عليه مثلهم ، وهناك اختبأ وراء القدور الضخمة حتى مر الجنود ٠ ثم سأل صاحب الدكان عن معنى ما رآه ، وكان هذا رجلا كبير السن متجعد الوجه من البخار المتصاعد حوله باستمرار من القدور النحاسية ، فأجاب فى غير اكتراث : « لابد أن حربا أخرى قد نشبت فى مكان ما !٠٠ وليس يدرى أحد علام يدور كل هذا القتال الذى لا تنطفىء جذوته ؟ ولكن هكذا كانت الحال منذ كنت فتى صغيرا، وهكذا ستبقى بعد أن أموت ! »

وقال وانج لنج : « حسنا !٠ ولكن لماذا يقبضون على جارى وهو رجل مثلى لم يسمع قط بهذه الحرب ؟ »

فقعقع الشيخ بأغطية القدور وقال : « ان الجنود ذاهبون الى الحرب فى مكان ما ، وهم يحتاجون الى أناس يحملون لهم فراشهم وبنادقهم وذخيرتهم ولذا يرغمون عمالا مثلك على أداء هذا العمل ٠ ولكن من أى بلد أنت ، لان هذا الأمر معتاد فى المدينة ؟ »

فقال وانج لنج فى دهشة : « ثم ماذا بعد ذلك ؟٠٠ أى أجر يعطى لهم؟!»

وكان الرجـــل بالغ الكبر وقد كف عن الاهتمام بشيء وانقطع أمله في كل شيء ما عدا قدوره ، فأجاب بدون اكتراث : « ليس هناك من أجر سوى كسرتين من الخبز اليابس كل يوم ، ورشفة ماء من بركة ! ويمكنك الآن أن تعود الى بيتك اذا استطاعت قدماك أن تحملاك ! »

فقال وانج لنج مذعورا : « ولكن لكل منهم أسرة ؟!

فأجاب الرجل بازدراء : « ماذا يعنيهم ذاك ؟! » . ثم نظر الى أقرب قدر ليرى هل غلى الماء ، وانبعث بخار غطى وجهه حتى صار لا يرى وهو ينظر الى داخل القدر !. ولكنه كان رقيق القلب فقد لمح الجنود قادمين في حين لم يرهم وانج لنج من مكانه فصاح به قائلا : « أحن رأسك أكثر من قبـل . لقد عاد الجنود ! »

فجثم وانج لنج خلف القدور ، ومضى الجنود نحو الجانب الغربي ، ولما بعد صوت أقدامهم خرج وانج لنج من مخبئه وأمسك عربتـــه وجرى بها خالية الى الكوخ !

وكانت أولان قد عادت توا من الطريق لتطهو قليلا من الخضر جمعتها ، فذكر لها وهو يلهث ما حدث وكيف نجا بصعوبة ، وكان يتكلم وقد تملكه فزع شديد ، فقد خاف أن يذهب به الى ميادين القتال فيموت أبوه وأسرته جوعا ، في الوقت الذي يموت هو فيه بالرصاص أو غيره خـلال الحرب . وبذلك لا يرى أرضه مرة أخرى . ونظر الى أولان بعينين زائغتين وقال لها : « اننى الآن ميال الى بيع الجارية الصغيرة لنعود الى أرضنا في الشمال ! »

ففكرت أولان قليلا ثم قالت له : « انتظر بضعة أيام فقد سمعت كلاما عجيبا ! »

ومنذ ذلك الحين صار وانج لنج لا يخرج في ضوء النهار ، وقد بعث بابنه الأكبر ليعيد العربة (الريكشا) الى المحل الذي استأجرها منه ، ثم انتظر حتى أرخى الليل سدوله فذهب الى البيوت التجارية وصار طول الليل يجر عربات محملة بالصناديق ، وكانت كل عربة منها يجرها اثنا عشر رجلا بجهد وعناء !. ومع هذا كان أجره لا يزيد على نصف ما كان يكتسبه في عمله الاول ، برغم أن تلك الصناديق كانت مملوءة بالحرير والقطن والطباق ذي الرائحة الزكية التي تفوح من خلال الخشب !.. وكانت هناك أيضـا براميل ضخمة مملوءة بالزيت أو النبيذ !

وبقي يواصل عمله الجديد ، فيسهر فيه طول الليل وهو عارى الجسـد يتصبب منه العرق ، وقدماه الحافيتان تطآن الاحجـــار التي رصفت بها الشوارع التي بللتها رطوبة الليل ، وكذلك كان كل زملائه الذين يعمـل معهم ، بل كذلك كان الغـــلام الذي يحمل مشـــعلا ليريهم الطريق فتلمع أجسادهم ووجوههم وأحجار الشوارع كلها في ضوء ذلك المشعل !

وكان يعود الى كوخه قبيل طلوع الفجر ، وهو يلهث من التعب والجوع ثم يأوى الى فراشه وينام . غير أنه كان طول النهـار ، وفي الوقت الذي يبحث فيه الجنود عن عمال في الطرق ، ينـام آمنا مطمئنا خلف كومة من القش جمعتها أولان واعدتها لتكون وقاء له !

ولم يدر وانج لنج أي شيء عما هناك من معارك يجمع لها الجنود . ولكن قلقه كان يشتد يوما بعد يوم ، بينما العربات التي تجرها الخيـــل تحمل طول النهار أناسا أغنياء وأمتعتهم من الثياب الغالية وأغطية السرر الحريرية وتقل معهم نساءهم الحسان وجواهرهن وحليهن ، قاصدين الى طرف النهر حيث تنقلهم السفن الى أماكن أخرى ، وكان آخرون يقصـدون الى حيث تأتي العربات النـــارية وتذهب !. ولم يكن وانج لنج يخرج الى الطرق نهارا ، ولكن ولديه كانا يعودان في المساء ويقولان في دهشة : « لقد رأينا رجلا وصفه كذا ، وآخر شكله كذا ... رأينا رجلا ضخم الجسم كأنه اله في معبد ، يرتدي ثيابا من الحرير الاصفر وفي احدى أصابعه خاتم كبير من الذهب يتوسـطه حجر أخضر كأنه قطعة من الزجاج وكان بدنه يلمع من الزيت والطعام ! »

أو يصيح الولد الأكبر قائلا : « كذلك رأينا صناديق هائلة ، ولما سألنا ماذا بها علمنا أنها تحتوي على ذهب وفضـــة ، وأن الاغنياء لا يمكنهم أن يحملوا معهم كل ما يملكون ، ولذا ستضير لنا يوما ما .. فما معنى هـــذا يا أبتاه ؟! »

وهنا يقول وانج لنج : « من أين لي أن أعرف ما يعنيه شخص متبطل من أهالي المدينة ؟ »

وعاد الولد الاكبر فقال : « وددت لو ذهبنا الآن لنســـتحوذ على تلك الاشياء ما دامت ستصبح لنا !.. اننى لم أذق أي كعكة عليها سمسم ! »

وكأنما أفاق الجد من ذهوله حين سمع ذلك فقال وكأنه يحدث نفسه : حين كنا نجني محصولا جيدا كنا نأكل مثل ذلك الكعك في عيد الخريف ، وكنا عند دراس السمسم نحتفظ بجانب منه قبل بيعه لنصنع به مثـــل ذلك الكعك ! »

وتذكر وانج لنج ذلك الكعك الذي صنعته أولان في عيد رأس السنة ، من دقيق الأرز وشحم الخنزير والسكر ، فسال لعابه واشتد اشتياقه الى أشياء الزمان الذي مضى . وغمغم قائلا : « لو اننا اسـتطعنا العودة الى الارض ! »

ثم بدا له فجأة أنه لن يستطيع أن يمكث يوما آخر في ذلك الكوخ الكريه الذي لم يكن من السعة بحيث يمد قامته خلف كومة القش ، وأنه لن يستطيع أن يكدح ليلة أخرى وجسده منحن بحبل يزق لحمه ، ليجر الاثقال فوق أحجار الشوارع المرصوفة . لقد صار يحس كل حجر منها عدوا لدودا يتربص

به ، وكان يعرف كل شق بينها ليتفادى الحجر . وفى الليالى المظلمة وبخاصة حين ينزل المطر فتبتل الشوارع أكثر من عادتها ، كان ينزل جام سخطه على تلك الاحجار التى تعترض طريقه ، ويخيل اليه أنها تتعلق وتتشبث بعجلات العربة الفظيعة التى يجرها مع رفاقه !

وصاح فجأة قائلا : « آه أين أرضنا الجميلة ؟ » . ثم خر على الارض باكيا فارتاع ولداه ، ونظر اليه أبوه الشيخ واجما ، ثم قالت أولان بهدوئها المعتاد : « لنصبر قليلا بعد أن صبرنا كثيرا .. ان شيئا ما لابد أن يحدث قريبا .. هكذا يقول الناس الآن فى كل مكان ! »

وكان وانج لنج حين يرقد مختبئا فى كوخه يسمع وقع أقدام الجنود وهم يسيرون قاصدين الى مناطق القتال . وينظر احيانا من ثقب بحصير الكوخ فيرى الوفا من الجنود يمشون صفوفا . وكان وهو يجر العربات ليلا يلمح وجوههم على ضوء المشعل وسط الظلام وهم يمرون به . ولكنه لم يجرؤ على أن يسأل عن أى شىء يتعلق بهم ، وانما ظل يجر أثقاله ويأكل أرزه على عجل ، ثم ينام نهاره مختبئا فى الكوخ وراء كومة من القش !

وفى تلك الايام لم يكن أحد يتحدث مع أحد ، بل كان الخوف يسود المدينة ، وكل انسان يسرع فى أداء ما ينبغى عمله ثم يأوى الى بيته ويغلق بابه وراءه !

وقد انتهت الاحاديث التى كانت تجرى بين الاكواخ فى ضوء الشفق . وخلت دكاكين الطعام فى الاسواق ، وطوت حوانيت الاقمشة أعلامها اللامعة ، وأغلقت واجهاتها حتى ان المار ظهرا بالمدينة كان يحسب أهلها نائمين !

وجرى الهمس هنا وهناك فى أنحاء المدينة بأن العدو يقترب ، ففزع كل من كان يملك شيئا . ولكن وانج لنج لم يكن خائفا ، كذلك لم يخف انداده من ساكنى الاكواخ ، فقد كانوا لا يعرفون من هو هذا العدو ، ولم يكن لديهم ما يخشون ضياعه ، حتى حياتهم نفسها لم يكونوا يخافون عليها !. واذن فليقترب ذلك العدو ما شاء فان حالهم لن تكون أسوأ مما هى عليه الآن !

وأخيرا ، قال مديرو المحال التجارية للعمال الذين يجرون العربات بأنهم لم يعودوا فى حاجة الى خدماتهم لانه لم يعد فى متاجرهم من يشترى أو يبيع ، فصار وانج لنج يمكث فى كوخه ليل نهار ، وتعطل عن العمل . وكان فى البداية مسرورا بذلك لان جسمه كان فى حاجة شديدة الى الراحة ، وصار ينام نوما عميقا ، غير أنه سرعان ما أنفق كل درهم فائض لديه ، وعاد يسأل فى يأس عما يفعل . وكأنما لم تكف المصائب التى حلت به ، فأغلقت المطاعم الشعبية أبوابها لأن الموسرين الذين كانوا يتبرعون للفقراء قد أووا الى بيوتهم وأوصدوا أبوابها عليهم ، فلم يبق ثمة طعام للفقراء ولا عمل ، ولم يكن يمر بالشوارع أحد يستجدونه صدقة !

وعندئذ حمل طفلته بين ذراعيه وجلس بها فى الكوخ ونظر اليها وقال بحنان : « أيتها البلهاء الصغيرة : أتحبين أن تذهبى الى بيت كبير يتوافر فيه الطعام والشراب وتجدين فيه ثوبا كاملا يكسو بدنك ! »

فابتسمت له الطفلة من غير أن تفقه شيئا مما قاله لها ، ورفعت يدها الصغيرة لتتحسس بها عينيه اللتين تنظران اليها ، فلم يقدر أن يحتمل ذلك وصاح بزوجته قائلا :

– خبرينى : هل كانوا يضربونك فى ذلك البيت الكبير ؟!

فأجابته بجمود وكآبة : « لقد كانوا يضربوننى كل يوم ! »

ثم صاح بها ثانية : « أكانوا يضربونك بحزام من قماش أم بالبوص أم بحبل ؟ »

فأجابت باللهجة نفسها : « كانوا يضربوننى بسوط من الجلد يعلقونه فوق حائط المطبخ ! »

وكان يعرف أنها أدركت ما يدور بخاطره ولكنه أدلى بآخر أمل لديه وقال : « ان طفلتنا هذه جميلة حتى الآن فى صغرها . خبرينى : هل كانت الجوارى الحسان يضربن أيضا ؟ » . فأجابت بغير اكتراث : « أجل .. كانوا يضربونهن أو ينقلونهن الى فراش أى رجل منهم كما يحلو لهم ، وكان الأسياد الشبان يتنازعون هذه الجارية أو تلك ، ويقول أحدهم للآخر : (خذها أنت الليلة وهى لى غدا) . حتى اذا ضجروا جميعا من احداهن تبادلها الخدم بعدهم ، كل ذلك قبل أن تترك الجارية دور الطفولة ما دامت حسناء ! »

فتأوه وانج لنج ألما ، وضم الطفلة الى صدره وأخذ يقول لها مرة بعد أخرى : « آه أيتها البلهاء الصغيرة ! » . ولكنه فى قرارة قلبه كان يبكى كما يبكى الرجل اذا كان وسط تيار جارف ولا يستطيع أن يقف ليفكر ، وصار يقول لنفسه : « ليس هناك أية طريقة أخرى ! »

وفجأة دوى خارج الكوخ صوت كصوت الرعد وخر كل من فى الاكواخ على الارض مخفين وجوههم فقد بدا كأن ذلك الصوت سيسحق الجميع . وغطى وانج لنج وجه طفلته بيده ، غير عالم بما قد يظهر وسط تلك الضجة بينما صاح الشيخ قائلا : « اننى لم أسمع مثل هذا الصوت طول حياتى قط ! »

ولكن أولان رفعت رأسها وقالت : « ان ما سمعت به قد بدأ يحدث !.. ان العدو قد اقتحم أبواب المدينة ! »

وقبل أن يعلق أحد على قولها سمع صياح فى الطريق كان فى البداية ضعيفا كصوت ريح عاصفة من بعيد ثم اقترب وازداد ارتفاعا حتى امتلأت

به الشوارع ! وعندئذ جلس وانج لنج معتدلا على أرض الكوخ ، وتولاه فزع شديد قب له شعر رأسه ، وجلس كل واحد معتدلا فى مكانه ، وصار ينظر الى غيره ، وكانوا جميعا ينتظرون شيئا لا يعرفون كنهه • ولكن لم يكن هناك سوى صوت أناس يجتمعون وكل واحد منهم يصيح !

ثم سمعوا من وراء السور ، صوت باب كبير قريب يفتح عنوة ، وفجأة ظهر بفتحة الكوخ وجه رجل تبين فيه وانج لنج جاره الذى حدثه يوما عند الغروب وهو يدخن غليونه ، وصاح قائلا : « كيف تمكثون هنا ؟• لقد دقت الساعة وانفتحت لنا أبواب بيت الرجل الغنى ! »

وكأنما حرك أولان سحر ساحر فقفزت من فورها الى فتحة الكوخ وانطلقت فى أثر ذلك الجار ، ثم نهض وانج لنج فى بطء وذهول وغادر الكوخ بعد أن أجلس الطفلة على الارض، وهناك عند الابواب الحديدية التى لبيت الرجل الغنى كانت تتدفق جموع من الفقراء متدافعين صائحين معا تلك الصيحات التى كانت قد طرقت أذنى وانج لنج فى كوخه ، وأدرك أن هذه الجموع من الرجال والنساء الجائعين المقيدين قد أصبحوا الآن أحرارا يفعلون ما يشاؤون

وسرعان ما فتحت تلك الابواب العظيمة واندفعت الجموع الى داخل البيت ، قدما فوق قدم ، وجسما لاصقا بجسم حتى كأنهم كتلة واحدة

واندفع وسط الزحام من غرفة الى أخرى حتى وصل الى الغرف الداخلية من غير أن يبصر أحدا من أهل الدار، وخيل اليه أنه فى قصر مات كل أهليه، ولكن الطعام كان لا يزال على المائدة فى بعض الغرف ، وكانت النار لا تزال مشتعلة فى المطابخ • ثم اندفعت الجموع الثائرة مخترقة الغرف الأمامية التى يسكنها الخدم والعبيد وتقع بينها المطابخ ، الى الغرف الداخلية حيث السرر الفاخرة التى للسادة والسيدات ، وحيث صناديقهم الملوءة التى تحوى ثيابهم الحريرية الغالية ، وحيث الموائد والكراسى المحفورة والصور التى زينت بها الجدران • وعلى هذه الكنوز انقضت الجموع هاجمين على كل صندوق وخاطفين كل شىء من بعضهم البعض ، ومن ثم كانت الثياب والفرش والستائر تنتقل من يد الى يد ، وكل منهم ينتزع من غيره ما معه ، من غير أن ينظر أحد ما فى يده نفسه !

غير أن وانج لنج وسط ذلك الاضطراب لم يأخذ شيئا، وكان طول حياته الماضية لم يستحل لنفسه ما يملكه غيره، فلم يكن من السهل عليه أن يفعل ذلك أول الأمر ، وترك نفسه لتيار الزحام يدفعه هنا وهناك ، حتى اذا افاق من ذهوله اخذ يشق طريقه فى اصرار حتى بلغ أقصى الغرف الداخلية حيث تسكن السيدات ، وكان الباب الخلفى مفتوحا على مصراعيه ، ذلك الباب الذى يعده الاغنياء منذ قرون فى كل قصر لكى يهربوا منه فى مثل هذه الظروف ، ولذا يسمى « باب الأمان » • ولا ريب أن أهل هذه الدار

قد فروا جميعا هذا اليوم وأنهم مختبئون هنا وهناك فى الطرق حيث يستمعون الى ذلك الصياح فى دارهم • غير أن رجلا واحدا منهم لم يستطع الفرار اما لبدانته أو لانه كان مستغرقا فى نوم عميق ، وقد باغت وانج لنج هذا الرجل فى غرفة داخلية خالية كانت الجماهير قد دخلتها وخرجت منها ثانية ، وكان الرجل مختبئا فى مكان خفى بها ثم زحف خارجا من مخبئه وهو يحسب أن أحدا لم يعد بالغرفة سواه وفى امكانه أن يهرب !

كان الرجل سمينا ضخم الجسم ، لا بالكبير السن ولا بالصغير ، ولابد أنه كان قد نام عارى الجسم فى سريره – مع امرأة حسناء بلا ريب – لأن جسمه العارى كان ملتحفا بثوب من الحرير القرمزى • وكانت طيات كبيرة من لحمه تنثنى تحت ثدييه وفوق بطنه، وكانت عيناه وسط خديه المكتنزين باللحم ، تبدوان صغيرتين غائرتين كعيني خنزير • ولما أبصر وانج لنج أمامه سرت فى جسمه رعدة وصاح كأنه طعن بسكين ، فتعجب وانج لنج وهو الأعزل من كل سلاح وكاد يضحك من منظره ، ولكن ذلك الرجل السمين خر راكعا بين يديه وصار يضرب رأسه بالارض ويصيح قائلا : « أبق على حياتى •• أبق على حياتى •• لا تقتلنى •• عندى مال لك •• مال كثير ! »

وكانت كلمة « مال » هذه هى التى أوضحت الموقف لوانج لنج • وانه لفى حاجة شديدة الى المال ، فالمال يعنى إنقاذ ابنته وعودتهم الى الأرض ! وعندئذ صاح بالرجل بصوت أجش لم يألفه هو نفسه : « أعطنى المال اذن ! »

فنهض الرجل وهو لا يزال ينشج وينتحب وتحسس جيبا فى الثوب الذى التحف به ، وأخرج يديه الصفراوين مملوءتين بالذهب ، فبسط وانج لنج طرف ردائه وتلقاه منه • ثم عاد يصيح بذلك الصوت الذى استغربه هو نفسه وكأنه صوت شخص آخر سواه : « أعطنى مزيدا منه ! »

ودس الرجل يديه مرة أخرى فى جيوبه وأخرجها مملوءتين بالذهب وهو يقول : « الآن لم يبق عندى شىء سوى حياتى التاعسة ! » • وأخذ يبكى فتنحدر الدموع كالزيت على خديه المكتنزين

فنظر اليه وانج لنج ، وشعر فجأة ببغض له كما لم يبغض أحدا فى حياته وصاح به قائلا : « اغرب عن وجهى والا قتلتك كما تقتل الدودة السمينة ! »

فجرى الرجل كما يجرى الكلب المذعور وخرج لا يلوى على شىء !

وعندئذ صار وانج لنج وحده مع الذهب !• ولم يقف ليعده بل دسه فى صدره وخرج من باب الأمان ، وسار فى الشوارع الخلفية حتى وصل الى كوخه • واحتضن الذهب الذى كان لا يزال دافئا من أثر جسم الرجل الآخر ، ثم قال لنفسه : « الآن يمكننا العودة الى الأرض • غدا نعود الى الأرض ! »

أرض الجواهر

لم تمض أيام على حصول وانج لنج على تلك الحفنة من الذهب حتى كان قد عاد واسرته الى بيته وارضه فى الشمال ، وكان قد اشترى بثلاث قطع ذهبية بذورا جيدة من الجنوب ، وحبوبا من القمح والأرز ، وكانت كلها بذورا لم يسبق له أن زرع مثلها ، كما اشترى بخمس قطع ذهبية اخرى ثورا رآه يحرث ارضا لصاحبه فى القرية المجاورة لقريته ، فوقف ومعه أبوه الشيخ وأطفاله وامرأته يساومون الرجل فى شرائه !

وقد استرعت التفات وانج لنج ضخامة عنق الثور والقوة التى يجر بها المحراث ، لكنه قال لصاحبه : « هذا ثور لا قيمة له !.. لكنى لا أملك ماشية وانا فى حاجة شديدة الى اى ثور ، فماذا تريد ثمنا له ؟ »

فأجاب الرجل : « انى أوثر أن أبيع زوجتى على أن ابيع هذا الثور الذى لا تزيد سنه على ثلاث سنوات ، فهو فى عنفوان قوته ! » . ثم واصل الحرث ولم يرد أن يقف ليتحدث مع وانج لنج . ولكن هذا رأى ألا بد له من أن يحصل على هذا الثور بالذات ، وقال لأولان ولأبيه : « ما رأيكما فى هذا الثور ؟ »

فنظر الشيخ اليه وقال : « يبدو انه ثور مخصى جيدا ! »

وقالت اولان : « انه أكبر بسنة مما زعمه الرجل ! »

ولم يقل وانج لنج اى شيء ، لأنه كان قد اعتزم شراء هذا الثور لقوته فى جر المحراث ولجلده الناعم ولعينيه الداكنتين . انه بهذا الثور يستطيع أن يحرث حقوله وأن يزرعها ، وبهذا الثور مربوطا الى الطاحونة يمكنه ان يطحن الحبوب . وعلى هذا صاح بالرجل قائلا له : « سأعطيك ثمنا لهذا الثور يكفى لشراء اكثر من ثور آخر ! »

واخيرا بعد طول مساومة وشجار وتظاهر بالعدول عن البيع والشراء ، رضى الرجل أن يبيع ثوره بما يوازى قيمة ثورين ، فنقده وانج لنج الثمن على الفور ، ثم فك رباط الثور وقاده مربوطا بحبل من انفه ، ومضى هو واسرته فى طريقهم الى بيتهم المهجور والدنيا لا تسعهم من السرور !

ولما وصلوا الى البيت وجدوا الباب قد نزع وأعلى السقف قد زال وذهب كذلك ما تركوه من فؤوس ومناجل وما اليها ، ولم يبق سوى عروق السقف والجدران ، ولكن وانج لنج لم يعبأ بذلك كثيرا بعد المفاجأة الاولى ،

وذهب الى البلدة فاشترى نحرانا جيدا من الخشب المتين وفاسين ومنجلين وحصرا يغطى بها السقف ريثما يأتى بغاب جديد فيتخذ منه سقفا للبيت

وفى المساء وقف بباب بيته ونظر الى الارض ، ارضه التى له ، وهى مفككة ناضرة بعد زمهرير الشتاء ، تنتظر أن تزرع . وكان ذلك فى ابان الربيع ، وقد اخذت الضفادع تنق فى البركة القريبة الغور . وكان (البوص) عند ركن البيت يتمايل تحت نسيم الليل ؛ وعلى ضوء الشفق تلوح مجموعات الأشجار عند طرف الحقل القريب . فشعر بانه لم يعد ينقصه اى شيء ورغب عن رؤية اى مخلوق فى القرية ما دام قد رأى ارضه ، فهى وحدها كل ما كان يريد ان يراه !

ولم يذهب الى اى بيت بالقرية ، ولما زاره اولئك الذين نجوا بحياتهم من المجاعة ، قابلهم مقابلة جافة ، وصاح بهم قائلا : « أيكم نزع باب بيتى ؟. وايكم سرق فاسى ومنجلى ، وايكم حرق السقف فى هذا الفرن ؟ »

وهزوا جميعا رؤوسهم نفيا واستنكارا وقال واحد منهم : « عمك هو الذى فعل ذلك ! »

وقال ثان : « من اين لنا أن نعرف وعصابات اللصوص ترتاد هذه الناحية ، والمجاعة والحرب تسودان البلاد ؟. ومن الذى يستطيع أن يقول ان هذا الشخص او ذاك قد سرق ؟ ان الجوع يحيل الانسان لصا ! »

ثم جاء تشنج جاره الادنى ، يدب من بيته ليراه وقال له : « فى خلال الشتاء كانت عصابات من اللصوص تسكن بيتك ، وتنقض منه على القرية والمدينة ، كلما استطاعت ، ويقال ان عمك يعرف عنها اكثر مما ينبغى لرجل شريف ان يعرف ... ولكن من الذى يعرف مدى الصدق فى ذلك ؟ انى لا اجرؤ على أن أتهم اى انسان ! »

وكان هذا الرجل قد صار اشبه بالظل اذ التصق جلده بعظامه ونحل بدنه وشاب شعره مع انه لم يبلغ الخامسة والاربعين بعد من عمره . ونظر اليه وانج لنج هنيهة ثم قال له : « لقد اصابك اشد مما اصابنا . وماذا كنت تأكل فى وقت المجاعة ؟ »

فتأوه الشيخ وقال : « فضلات الشوارع كما تأكل الكلاب ، اذ كنا نستجدى الناس فى المدينة ، بل أكلنا كذلك الكلاب الميتة . ومرة قبل أن تموت زوجتى طهت حساء بلحم لم اجرؤ ان اسألها عن كنهه ، ولكنى كنت موقنا انها لا تقدر ان تقتل ، فاذا أكلنا فانما كان من لحم وجدته . ثم ماتت اذ كانت قوة احتمالها اقل من قوتى ، وبعد موتها اعطيت ابنتنا الى جندى لانى لم استطع ان اراها تموت جوعا ! »

وسكت تشنج قليلا ثم قال : « لو كانت عندى بذور لامكننى ان اعود الى الزرع . ولكن ليس عندى شيء ! »

فصاح به وانج لنج بخشونة : « تعال هنا ! » . ثم سحبه من يده الى داخل البيت وطلب منه أن يبسط طرف ثوبه الخلق وصب فيه مقدارا من البذور التى جاء بها من الجنوب ، وكانت حبوب قمح وأرز ، وبذور كرنب ، ثم قال له :

ـ غدا آتى اليك لأحرث أرضك بثورى القوى !

فغلب تشنج البكاء ، وسارع اليه وانج لنج فمسح دموعه وصاح به متظاهرا بالغضب : « أتحسب أنى نسيت انك اعطيتنى تلك القبضة من الفول ؟ »

ولكن تشنج لم يستطع الاجابة وانصرف بما فى حجره من البذور وهو ما زال يبكى تأثرا بكرم جاره القديم !

وفرح وانج لنج اذ علم ان عمه قد غادر القرية : ولا يدرى احد اذهب الى المدينة ام هاجر الى جهات نائية مع زوجته وولده ، اذ كان قد باع كل بناته !

وهكذا عاد وانج لنج الى انهماكه فى خدمة الارض ، وصار يستكثر الساعات التى يضطر الى قضائها بالبيت لتناول الطعام والنوم ، بل كان يؤثر أن يأخذ رغيفه مع قطعة ثوم الى الحقل ويأكل وهو واقف يخطط الارض ويفكر . واذا غلبه التعب تمدد فى اخدود هناك ونام !

وكذلك عادت أولان سيرتها الاولى فى خدمة البيت ، فربطت بيديها الحصر الى عروق السقف ، واخذت طينا من الحقول ومزجته بالماء واصلحت به جدران المنزل ، واعادت بناء الفرن ، وملأت الثقوب التى احدثها المطر فى الارض ، ثم ذهبت الى المدينة يوما مع وانج لنج واشتريا سررا ومنضدة وستة كراس وقدرا كبيرة من الحديد ، واشتريا كذلك وعاء شاى من الخزف الاحمر رسمت عليه بالحبر الأسود صورة زهرة ، واشتريا معه ست سلطانيات . واخيرا ذهبا الى دكان بخور واشتريا صورة ذهبية لاله الثروة ليعلقاها فوق المائدة فى الغرفة الوسطى ، وابتاعا أيضا وعاء من الزنك للبخور وشمعتين حمراوين ليوقداهما أمام الاله وشموعا حمراء كثيفة من دهن البقر . وذهبا بهذه الأشياء الى الالهين الصغيرين بالمعبد ، فى عودتهما الى البيت ونظرا اليهما وكان منظرهما يدعو الى الشفقة فقد كانا عاريى الجسدين الا من بعض ورق ممزق لاصق بهما ، وكان المطر قد أزال ملامح وجهيهما ، ولم يعن بهما أحد فى تلك السنة الرهيبة . ونظر اليهما وانج لنج عابسا شامتا وقال لهما بصوت مرتفع وكأنه يخاطب طفلا يعاقبه : « هذا جزاء الآلهة التى تعمل شرا للبشر ! »

على أنه حين عاد البيت كما كان ، وصارت الشموع تضيء بلونها الاحمر ، وصف ابريق الشاى وآنيته على المائدة ، ووضعت السرر فى أماكنها ، وصار للبيت باب جديد ، شعر فجأة بالخوف من هذه السعادة . ثم حملت أولان

من جديد ، وعاد الاطفال يلعبون على عتبة الباب ، وعاد الشيخ يجلس الى الجار الجنوبى وينعس ويبتسم فى نعاسه . وفى الحقول بدا الأرز المزروع ينبت ، وبدأ الفول يرفع رأسه ، وكان لا تزال هناك بقية من الذهب تكفى لاطعامهم حتى يحين موعد الحصاد اذا اقتصدوا فى الأكل . ونظر وانج لنج الى السماء الزرقاء فوقه والى السحب البيضاء التى تمر تحتها ، وتبين التناسب بين الجفاف والمطر فوق حقوله كما لو كان فوق لحمه ، ثم غمغم قائلا : « يجب أن اضع بعض البخور أمام الالهين فى المعبد الصغير . انهما على اى حال لهما سلطان على الارض ! »

لحظ وانج لنج أن أولان زوجته تخفى كتلة يابسة بحجم اليد فى صدرها ، فسألها : « ما هذا الذى فى صدرك ؟ » . ثم تحسس تلك الكتلة بيده فادرك انها كيس من الأكياس التى تحفظ بها النقود ، وفزعت هى أول الأمر وارتدت الى الوراء فى عنف ، غير أنها عادت فاستسلمت أمام الأمر الواقع ثم اخرجت الكيس وقالت له :

ـ تستطيع أن تفتحه اذا كان لا بد لك من معرفة ما فيه !

وما فتح ذلك الكيس وافرغ ما فيه حتى روعه ما راى ، فقد تساقطت منه حلى وجواهر لم ير مثلها قط فى حياته ، ولم يدر لأحجارها الكريمة اسماء ، غير انه لما وضعها فى كفه ورأى بريقها الخاطف للابصار ، أدرك أنها كنز لا يقدر له ثمن . وسألها ذاهلا : « من أين حصلت على هذه الجواهر ؟ »

فأجابت همسا : « كانت فى بيت الرجل الغنى فى الجنوب !.. لا بد انها كانت جواهر محظية من محظياته ... وقد اهتديت الى مخبئها فى حائط هناك ، فوقفت بجانبه حتى انصرفت عنه الجموع ، ثم اخرجت الجواهر واخفيتها فى صدرى وغادرت البيت قبل أن يرانى أحد ! »

فسألها متعجبا : « لكن كيف فطنت الى المخبأ الذى كانت فيه ؟ »

فقالت : « لقد عشت قبل ذلك فى البيت الكبير كما تعلم ، وجميع الأغنياء فى خوف دائم على جواهرهم ، وقد رأيت لصوصا دهموا البيت الكبير يوما فى سنة جدباء ، فكان الجوارى والخليلات ومعهن السيدة الكبيرة نفسها يجرين هنا وهناك ومع كل منهن كنزها من الجواهر والمال لتخفيه فى المخبأ الذى أعدته لمثل ذلك الظرف ، ومن هنا عرفت موضع هذا الكنز ! »

وبقيا بعض الوقت ينظران الى الجواهر المنثورة امامهما صامتين ، ثم قال وانج لنج هامسا :

ـ ان كنزا مثل هذا لا يمكن الاحتفاظ به ، بل يجب ان يباع ويشترى بثمنه أرض زراعية لأنها الشىء الوحيد الذى لا يضيع !. ولو أن أحدا علم بأننا نملك هذا الكنز لمتنا غدا ولسرق أحد اللصوص هذه الجواهر . ولهذا يجب أن تشترى بها الارض فى هذا اليوم نفسه ولو لم يوافنى النوم ! »

تم أعاد الجواهر الى الكيس الذى كانت فيه وربطه بخيط ربطا محكما ، ووضعه فى جيبه الداخلى فوق صدره . وحانت منه نظرة الى وجه امراته وهى جالسة القرفصاء بجانب السرير ، فرأى وجهها الجامد الذى لا يعبر عن شىء قد امتد الى الأمام وبان الاشتياق على شفتيها ، فسألها متعجبا من امرها : « ماذا هنالك ؟ »

فقالت : « اتنوى ان تبيعها كلها ؟ »

فقال : « ولم لا ؟.. لماذا نحتفظ بجواهر كهذه فى بيت من طين ؟ »

فقالت باهتمام : « وددت لو أبقيت على قطعتين منها لنفسى ! »

فتعجب من ذلك وسألها : « ولم ذلك ؟ » . فأجابت : « بودى لو احتفظت بقطعتين صغيرتين وهما اللؤلؤتان البيضاوان الصغيرتان !.. ولست أريد الاحتفاظ بهما ، اعنى اننى لن استعملهما ولن يراهما احد ! »

وارخت عينيها واخذت تلوى بيدها قطعة من غطاء السرير ، وتنتظر صابرة ما يقول زوجها . فأخذ وانج لنج يستشف مكنون صدر هذه المخلوقة الغبية المخلصة التى ظلت طول حياتها تكد وتكدح لغيرها ومكثت سنين ترى النساء فى البيت الكبير يقتنين جواهر لا يتاح لها حتى ان تلمسها !. ثم قالت وكأنها تحدث نفسها : « بودى لو استطعت وضع اللؤلؤتين فى كفى احيانا ! »

وازاء ذلك شعر وانج لنج بالرثاء لزوجته ، فسحب الجواهر من صدره وفك كيسها وناولها اياها صامتا ، تبحث بينها حتى وجدت اللؤلؤتين الصغيرتين فأخذتهما وأعادت له الكيس وبه الجواهر الاخرى . ثم مزقت قطعة من طرف ثوبها ولفت اللؤلؤتين وخبأتهما بين ثدييها وتنهدت بعد ذلك دلالة على الارتياح والاطمئنان !

ولم يرها وانج لنج بعد ذلك تخرجهما من مخبئهما فى صدرها ، ولم يعودوا الى الكلام عنهما قط !. اما الجواهر الاخرى فأخذ يفكر فى طريقة التصرف فيها ، واخيرا قرر ان يذهب الى البيت الكبير ليرى هل هناك ارض اخرى للبيع !. وادهشه ان وجد الباب الخارجى للبيت مغلقا ، ولا اثر لذلك البواب ذى الشعرات الثلاث فى خده الذى كان يزدرى كل من لا يتاح لهم مثله دخول بيت آل هوانج !.. كما وجد الأبواب الكبيرة الاخرى للبيت كلها مغلقة ، فأخذ يقرعها بقبضة يده ولكن احدا لم يجبه ، فكاد يرجع يائسا لولا ان رآه بعض المارة فقالوا له : « يجب ان تقرع الباب طويلا ، واذا كان السيد الشيخ مستيقظا فانه يأتى اليك ، اما جاريته الباقية معه فهى لا تكلف نفسها عناء فتح الباب الا اذا كانت لها فى ذلك مصلحة خاصة ! »

وفيما هو يفكر متعجبا فى هذا الأمر ، سمع وقع قدمين تهبطان الدرج

فى بطء ، ثم سمع صوت المزلاجين الموضوعين وراء الباب ، وصوتا مرتعشا يقول : « من هناك ؟ »

فرفع صوته قائلا : « انا وانج لنج ! »

وعاد الصوت المرتعش يقول : « ومن يكون هذا الوانج لنج ؟ ! » . فأدرك هذا ان الذى وراء الباب هو السيد الشيخ نفسه لأنه كان يشتم ويسب بصورة تدل على انه اعتاد ذلك مع الخدم والحشم فأجاب وانج لنج بلهجة أكثر ادبا من قبل !

ـ سيدى .. لقد جئت من اجل عمل بسيط ولم ارد ان ازعج فخامتك ولكن اردت ان اقابل وكيلك !

فأجاب السيد الشيخ من غير ان يوسع الفتحة التى بالباب :

ـ ان ذلك الكلب قد تركنى منذ شهور فهو ليس هنا الآن !

ولم يدر وانج لنج ما يفعل بعد ذلك ، فقد كان محالا ان يكلم ذلك السيد فى شراء ارض يملكها من غير وسيط بينهما ، ولكن الجواهر كانت معلقة فى صدره تكاد تحرقه ، وقد رأم أن يخلص منها باقرب وقت مستطاع ، والاهم من ذلك : اشتياقه الى حيازة ارض جديدة ، فقد كانت لديه تلك البذور التى اشتراها من الجنوب وهى تكفى لزرع مساحة من الارض تبلغ ضعف مساحة أرضه ، ثم انه كان تواقا الى شراء أرض آل هوانج بالذات

ثم قال بتردد : « لقد جئت بشأن قليل من النقود ! »

وما ان سمع السيد الشيخ ذلك حتى فتح الباب وقال بصوت مرتفع : « لم يعد فى هذا البيت نقود فان وكيلى لعن الله أمه وام أمه ، قد اخذ كل ما كان عندى ، ولا يمكن سداد ديون الآن ! »

فقال وانج لنج : « اننى لم اجىء من اجل ذلك يا سيدى .. لقد جئت لادفع انا مالا ! »

وعندئذ سمع وانج لنج صيحة اخرى ، ثم ظهر وجه امراة فجاة وقالت : « هذا شىء لم أسمع به منذ عهد بعيد ! »

ونظر وانج لنج الى هذه المراة ، فوجدها حسناء بادية الدهاء ، ثم دعته الى الدخول ، وأغلقت الباب وراءه ، فوقف ينظر الى السيد الكبير فى شىء من الرهبة ، وان كان هذا يبدو فى حالة يرثى لها تغاير ما سمع عنه كل المغايرة ، فهو يرتدى ثوبا قذرا باليا من الحرير ، وقد انحل جسمه وتدلى جلده طيات على لحمه ، وبدا انه لم يغتسل ولم يحلق لحيته ، كما كانت بداه الصغراوان ترتعشان وهو يمر بهما على ذقنه . ولا شك انه بحالته الراهنة هذه اقل وجاهة ووقارا من أبيه الشيخ المسكين !

اما المراة فكانت نظيفة الى حد كبير . وكانت واضحة الملامح ، لها وجه

جميل يتوسطه انف صغير وتعلوه عينان سوداوان تلمعان ، وكان خداها وشفتاها فى حمرة الورد ، وشعرها الأسود يلمع كالمرآة ؛ ولكن لهجة كلامها تدل على انها ليست من سيدات الأسرة بل هى جارية من جواريها !

ولم يكن فى البيت كله أحد عدا السيد الكبير وهذه الجارية الحسناء ، ثم قالت هذه بصوت حاد : « ماذا عن النقود ؟ »

وتردد وانج لنج فى الاجابة ، كأنه يخشى أن يتكلم بحرية أمام السيد الكبير ، ولحظت المرأة ذلك وهى التى لا يفوتها شىء ، فقالت للسيد بحدة : « اغرب عنا ! » . وسرعان ما ابتعد الشيخ صامتا وهو يسعل !

على أن وانج لنج حين وجد نفسه مع هذه المرأة لم يدر ماذا يقول او يفعل ، فقد اذهله تصرفها مع السيد على هذا النحو ، ونظر الى الغرفة المجاورة فلم ير بها أحدا كذلك ، وانما رأى بها اكداسا من الفضلات والقذارة ، مما يدل على أن ارضها لم تكنس منذ وقت بعيد !

ثم افاق من ذهوله على صوتها وهى تقول له : « والآن أيها الغبى ما الذى جاء بك ؟.. اذا كانت لديك نقود فارنيها ؟ ! »

فقال وانج لنج فى حذر : « لم اقل انى جئت بنقود ، ولكنى جئت لعقد صفقة ! »

فقالت له الجارية : « ان الصفقة معناها نقود تقبض أو تصرف ، وليس فى هذا البيت نقود حتى تصرف ! »

فقال : « اجل ولكنى لا اقدر ان افاوض امراة ! »

فغضبت الجارية وقالت : « ولم لا ؟.. الم تعلم انه لا أحد هنا سواى وسوى السيد الشيخ ؟. ان السيدة العجوز قد ماتت . وعصابات اللصوص اخذت معها كل الجوارى والامتعة ! »

ثم سكتت المرأة قليلا وعادت تقول : « وكل ذلك لم يكن امرا مفاجئا . فقد أهمل السيد الكبير والسيدة الكبيرة واولادهما كل عناية بالارض وصاروا يقنعون بقبض المال من الوكيل ثم ينفقونه بغير حساب ، ومن حسن الحظ ان الابنتين تزوجتا قبل ان يحدث ذلك كله ، وقد ارسل الابن الأكبر رسولا ليأخذ اباه اليه حيث يقيم واخوته ، ولكنى رفضت ذلك لانى لا استطيع أن ابقى بالدار وحدى وانا امراة وليس لى بيت آخر اذهب اليه بعد أن قضيت ستين جارية مخلصة فى هذا البيت ! »

فحدجها وانج لنج بنظرة دلت على أنه بدأ يدرك حقيقتها ، وانها انما تتشبث بالسيد العجوز المحطم لكى تنال منه أقصى ما تستطيعه . ثم قال لها فى ازدراء : « ما دمت جارية فكيف اعقد صفقة معك ؟ »

وعندئذ صاحت قائلة : « انه يفعل كل ما اقوله له ! »

ففكر وانج لنج هنيهة ثم قال لنفسه : « ان الارض هناك ، فاذا لم اشترها بوساطة هذه المرأة فان غيرى يشتريها ! »

ثم سألها : « ماذا بقى من الارض ؟ ! »

فادركت مقصده وقالت له : « اذا كنت قد اتيت لشراء ارض فعندنا ارض للبيع . والسيد يملك مائة فدان الى الغرب ومائتين الى الجنوب وهى كلها للبيع الى آخر فدان فيها ! »

وادرك وانج لنج مما قالته الجارية انها تعرف كل ما يملكه السيد الشيخ وتتصرف فيه كما تشاء ، لكنه ظل مع ذلك غير راغب فى عقد الصفقة معها وقال لها : « ليس من المحتمل ان يبيع السيد ارض اسرته من غير موافقة ابنائه ! »

فقالت المرأة بغير ابطاء : « ان أولئك الابناء قد اوصوا اباهم بأن يبيع الارض فى اقرب وقت ممكن ، وليس منهم من يريد ان يعيش فى هذه المنطقة التى ترتادها عصابات اللصوص فى ايام المجاعة ، بل كلهم يريدون بيع الارض كلها واقتسام ثمنها ! »

فسألها وانج لنج وهو لا يكاد يصدق ما سمعه : « ولكن لمن ادفع الثمن ؟ » . فقالت : « الى السيد الشيخ ! »

ولم يرد وانج لنج ان يواصل الحديث معها وخرج وهو يقول : « سآتى يوما آخر ! »

فتبعته الجارية حتى الباب وهى تصيح وراءه : « عد غدا فى مثل هذا الوقت . أو بعد ظهر اليوم . ان كل الاوقات ملائمة ! »

ولم يجب بكلمة واحدة ، بل انصرف صامتا حائرا ، وتوجه من فوره الى مشرب الشاى الصغير الذى جلس فيه مرة من قبل ، ثم طلب كوب شاى . ولما وضعه الغلام على المائدة فى فحة وأخذ الدرهم ثمنه ، جلس هو يحتسيه على مهل ويفكر فى الأمر ، وقد هاله أن تلك الأسرة الغنية الكبيرة التى كان هو وابوه وأهل المنطقة كلهم يرهبون جانبها قد انهارت هكذا وتشتتت ، ثم قال لنفسه : « لقد كان سبب انهيارهم انهم اهملوا الارض ! » ثم فكر فى ولديه اللذين يكبران بسرعة ، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن يجعلهما يكفان عن اللعب وان يكلفهما اعمالا يقومان بها فى الحقل حتى يتعودا الشعور بالارض تحت اقدامهما !

وكان يتحسس الجواهر المخبأة فى صدره من حين لآخر ، ويخيل اليه أنها تسطع من خلال ثيابه الخلقة فيراها الناس ويتهامسون قائلين : « هذا فلاح فقير يحمل كنز ملك ! »

وما كان ليهدأ باله حتى يحيلها ارضا . وعلى هذا انتظر حتى وجد فرصة للكلام مع صاحب مشرب الشاى وقال له : « تعال واشرب معى كوب شاى

على حسابى وانبئنى باخبار البلدة فقد كنت غائبا طول الشتاء ! »

وكان صاحب مشرب الشاى مستعدا دائما لاجابة مثل هـذا الطلب ، فجلس الى مائدة وانج لنج وبدأ الحديث قائلا :

ـ فيما عدا جوع الاهالى ليس من نبأ هام سوى السرقة التى وقعت بدار آل هوانج !

وكانت هذه الدار كل ما يريد وانج لنج ان يعرف اخباره ، فاخذ يستحث الرجل ليروى له كل ما يعلمه عنها ، فاخذ هذا يروى كيف اقتحم اللصوص تلك الدار ونهبوا كل ما كان فيها من اثاث وغيره ، وكيف اختطفوا الجوارى والخليلات بعد ان اغتصبوهن ، ولم يتركوا فى الدار الا السيد العجوز وجثة السيدة العجوزة ، وجارية تدعى (كوكو) كانت خليلة للسيد الشيخ من قبل ذلك بسنوات ، استطاعت النجاة لبراعتها ودهائها . ثم ختم صاحب المشرب كلامه قائلا :

ـ وقد صارت هذه الجارية فى الوقت الحاضر تفعل بالسيد الشيخ ما تشاء. فقد وضعت يدها على كل شىء يمكن ان تناله . ولا ريب ان السادة الشبان حين يرتبون شؤونهم فى الجهات الاخرى التى يقيمون بها ، ويعودون الى البلدة لا بد ان يطردوها غير مصدقين ما تدعيه من الاخلاص . ولكنها قد اقتنت الآن ما يكفيها ولو عاشت مائة سنة ! »

وهنا سأله وانج لنج . « الم يبق للأسرة ارض تعرضها للبيع كما يقال ؟ »

فقال الرجل : « لقد سمعت ان الارض الباقية للأسرة كلها معروضة للبيع ما عدا القطعة التى يدفن فيها افراد الاسرة منذ ستة اجيال ! »

ثم قام الرجل على اثر ذلك لمقابلة عميل جديد ، فقام وانج لنج ايضا مكتفيا بما سمع منه وعاد الى البيت الكبير حيث طرق الباب ففتحت له الجارية (كوكو) ودعته الى الدخول فقال لها قبل ان يدخل : « خبرينى اولا . . هل يضع السيد الشيخ خاتمه على عقود البيع ؟ »

فاجابت قائلة : « اجل !. هذا شىء لا بد منه ، ولكن الثمن يدفع لى انا ! »

ثم سألها بعد الانتهاء من المساومة : « هل تحبين ان تقبضى ثمن الارض فضة ام ذهبا ام جواهر ؟ »

فلمعت عيناها وقالت : « اوثر الجواهر ! » . ولمعت عيناه هو الآخر فقد كان هذا اقصى ما يتمناه ، لكى يضرب بحجر واحد عصفورين ، فيحصل على الارض ، وفى الوقت نفسه يتخلص من ذلك الحمل الثقيل الذى يتمثل فيما يحمله من الجواهر التى جاءت به (أولان) . . !

صورة امرأة !

صار وانج لنج يملك من الارض اكثر مما يستطيع ثور واحد ان يحرثه ، واكثر مما يقدر رجل واحد ان يحصد حاصلاته ، ولذا بنى غرفا صغيرة الحقها ببيته واشترى حمارا ، وقال لجاره تشنج :

ـ بعنى قطعة الارض التى لك ودع بيتك الموحش وتعال عش معنا وساعدنى فى خدمة ارضى !

وقبل تشنج ذلك سعيدا به . ثم امطرت السماء فى الموسم التالى فتما الارز ، ولم يستطع حصده هو وتشنج وحدهما ، فاستاجر وانج لنج عاملين كانا يعيشان بالقرية ليعاوناهما على ذلك

وفيما هو يعمل بالارض التى اشتراها اخيرا من بيت (هوانج) تذكر شباب تلك الأسرة المتبطلين ، ولذا صار صباح كل يوم ياخذ ولديه معه الى الحقول ويكلفهما من العمل ما تستطيع ايديهما الصغيرة أداءه ، كان يقودا الثور والحمار ، ويؤديا غير ذلك من المهام الصغيرة ، وغرضه تعويدهما حرارة الشمس والمشى فى أخاديد الارض

غير انه لم يسمح لأولان بان تعمل فى الحقول كذى قبل ، لانه لم يعد رجلا فقيرا ، بل صار يستطيع استئجار عمال ، وقد بنى غرفة اخرى بالمنزل لتخزين الحاصلات الوفيرة ، ولولا ذلك لما بقى فى البيت متسع للمشى فيه. واشترى ثلاثة خنازير وعددا من الطيور والدواجن لتتغذى بفضلات الحبوب . وبذلك صار عمل (أولان) مقصورا على تدبير المنزل واعداد الثياب والأحذية الجديدة لكل فرد من افراد الاسرة ، وقد صنعت الخفة جديدة من قماش عليه رسوم ازهار ومحشو بالقطن الدافىء الجديد . ولما تم ذلك كان لهم من الثياب والفراش ما لم ينعموا بمثله قط من قبل . ثم رقدت على سريرها وولدت مرة اخرى ، وقد أبت كعادتها ان يساعدها أحد ، مع انها كانت تستطيع ان تستاجر اية قابلة تريد . وقد طال الوضع هذه المرة حتى اذا عاد وانج لنج الى البيت مساء وجد اباه واقفا بالباب وقال له ضاحكا : « هذه المرة للبيضة محان (صغاران) . . ! »

ولما دخل وانج لنج الغرفة وجد الى جوار زوجته طفلين توامين ولدا وبنتا ، متشابهين كحبتى الأرز فضحك مسرورا وقال : « الهذا كنت تحملين لؤلؤتين على صدرك ؟ » . فابتسمت (أولان) ابتسامتها البطيئة الكئيبة ولم تزد على ذلك !

وكان وانج لنج فى هذا الوقت لا يعانى أى هم ، اللهم الا كون طفلته الكبرى لا تستطيع النطق بعد ولا أن تعمل ما يعمل الاطفال فى سنها ، وانما كانت تبتسم ابتسامة الطفولة كلما نظر اليها أبوها . وسواء اكان السبب هو سنة المجاعة أم غيرها فانه كان ينتظر شهرا بعد شهر أن تنطق ابنته بكلمة واحدة ولكنها ظلت لا تنطق مطلقا ، فكان يحزن لذلك ويقول لها : « يا لك من بلهاء مسكينة ! »

وكان يقول لنفسه : « لو انى بعتها ووجدوها بكماء لقتلوها لا محالة ! ». وكأنما اراد ان يعوضها من تلك العاهة فزاد حنانا عليها واهتماما بها ، وصار يأخذها معه أحيانا الى الحقل فكانت تتبعه صامتة وتبتسم له كلما كلمها أو نظر اليها !

فى تلك المناطق التى عاش فيها وانج لنج وعاش ابوه وجده من قبل ، كانت المجاعات تحدث مرة كل حوالى خمس سنوات ، واذا كانت الآلهة رحيمة فمرة كل حوالى ثمان سنوات او عشر ! وكان هذا لأن السماء قد تمطر اكثر مما يجب ، أو لا تمطر أصلا ، او لأن النهر الذى فى الشمال امتلأ بأمطار او جليد هبطت فى جبال بعيدة ، فجاء متدفقا تفيض مياهه على الجسور التى بناها الناس منذ قرون !

وكان الناس يفرون من الارض مرة بعد أخرى ثم يعودون اليها ، ولكن وانج لنج آلى على نفسه أن يوطد مركزه المالى بحيث لا يحتاج الى الهجرة من ارضه مرة أخرى فى السنوات العجاف ، بل يعيش على ثمار السنوات السمان . وقد جد واجتهد سبع سنوات جنى خلالها حاصلات جيدة وفيرة . وصار يستاجر عددا اكبر من العمال لفلاحة ارضه وجنى حاصلاته، حتى صار له ستة عمال فبنى بيتا خلف بيته القديم ، سقفه من القرميد ، وجدرانه مطلية بالجير ، ثم انتقل هو واسرته الى هذا البيت الجديد ، وجعل العمال وعلى راسهم تشنج ، يسكنون البيت القديم !

ولما تبين خلال هذه السنوات اخلاص (تشنج) ونزاهته ، جعله وكيله على الرجال وعلى الارض ، ورتب له راتبا حسنا ، هو قطعتان فضيتان فى الشهر فضلا عن طعامه . وكان وانج لنج لا يفتأ يحثه على الأكل ، لكنه بقى جلدا على عظم ، وان استمر يعمل بنفسه فى نشاط وسرور منذ فجر يومه الى ما بعد الغروب ، ويشرف على العمال الآخرين فيعمل كل منهم ضعف ما كان يعمل قبل ذلك !

وهكذا آخت بين الجارين تلك القبضة من الفول التى انتقلت من يد احدهما الى يد الآخر فى وقت المجاعة ، الا ان وانج لنج وان كان اصغر سنا صار فى مقام الأخ الأكبر ، لأن تشنج لم ينس انه أجير عنده !

وفى نهاية السنة الخامسة كان وانج لنج قد صار لا يعمل بنفسه فى الحقول الا قليلا ، وصار لاتساع املاكه ينفق وقته فى الاعمال المالية وبيع حاصلاته

وتوجيه عماله . وكان يضايقه عدم درايته بالقراءة والكتابة ، يتولاه الخجل حين يكون فى سوق الحبوب ولا يستطيع قراءة عقد او التوقيع عليه !

وفى أحد الايام سمع الكتبة فى متجر حبوب اثناء استراحتهم وقت الظهيرة يسخرون من اعترافه بجهله وسؤاله عن معنى الحروف ، فذهب الى بيته غاضبا وهو يقول لنفسه : « حقا ان من العار الا أعرف القراءة والكتابة . وساعفى ابنى الأكبر من العمل فى الحقل وادخله مدرسة فى المدينة ليتعلم ، حتى اذا ذهبت الى اسواق الحبوب امكنه أن يقرأ ويكتب لى ، فلا يعود احد يسخر منى ! »

وفى اليوم نفسه نادى ابنه الأكبر وكان قد صار فتى طويل القامة فى الثانية عشرة من عمره يشبه امه بوجهه العريض البارز العظام وبيديه الكبيرتين ، ثم قال له : « لا تذهب الى الحقول منذ اليوم ، لأنى اريد فى الأسرة واحدا متعلما يقرأ العقود ويكتب اسمى عليها »

فاحمر وجه الغلام ولمعت عيناه سرورا وقال : « هذا ما كنت أتمناه طول السنتين الأخيرتين ولكنى لم اجرؤ على أن اطلبه اليك »

ولما سمع الابن الأصغر بذلك جاء الى ابيه يبكى ويشكو ، وهو أمر من شيمته لأنه كان كثير الكلام والضجة منذ استطاع النطق ، ثم قال لأبيه : « لن اعمل فى الحقول فليس من العدل أن يجلس اخى على كرسى ويصبح متعلما فى حين ابقى انا اعمل كالكلب مع انى ابنك مثله ! »

ولم يسع وانج لنج الا ان يلبى طلب ابنه الأصغر فاسكته قائلا : « حسنا !.. اذهبا اذن سويا الى المدرسة . واذا شاء الله أن يأخذ احدكما يبقى الآخر ليؤدى المهمة المطلوبة ! »

ثم بعث زوجته الى المدينة لتشترى ثوبا طويلا لكل ولد منهما ، وذهب هو نفسه فاشترى لهما ورقا وفرشاتين ومحبرتين ، مع انه لا يعرف شيئا عن ذلك . ولجهله صار يوافق على كل ما يقوله البائع ... واخيرا كان كل شىء معدا لارسال الغلامين الى مدرسة صغيرة بالقرب من باب المدينة ، كان يديرها رجل شيخ رسب فى شبابه فى امتحانات الحكومة ، وليست هذه المدرسة الا الغرفة الوسطى ببيته ، حيث اعد مقاعد للتلاميذ الذين يعلمهم فى مقابل مبلغ زهيد يدفعه كل منهم عند كل عيد ، واذا رأيته من أحدهم كسل أو لم يحفظ درسه عن ظهر قلب ، ضربه بمروحة كبيرة مطوية ، وكانت الدراسة تمتد عادة من الصباح الى وقت الغروب . على أن التلاميذ كانوا يجدون وقتا للراحة فى أيام الحر والربيع لأن الاستاذ وقتئذ ينام بعد تناول الغداء ، ويسمع لنومه غطيط وهو فى الغرفة الصغيرة المظلمة ، وحينئذ يأخذ التلاميذ فى اللعب ، فيرسمون الصور والاشكال ، ويسخرون من استاذهم النائم . فاذا فتح عينيه فجاة وفطن الى عبثهم سارع الى تأديبهم بمروحته ، وكان جيرانه حين يسمعون طقطقة المروحة على رؤوس

التلاميذ يقول بعضهم لبعض : « حقا انه معلم قدير » . ولهذا السبب آثر وانج لنج مدرسته على غيرها من المدارس ليدخل فيها ولديه !

وفى اليوم الاول الذى اخذهما فيه اليها ، مشى امامهما ، لانه لا يليق بالاب والابن أن يسيرا جنبا الى جنب ، وكان يحمل منديلا ازرق ملىء بالبيض الطازج ، ولما وصل الى المدرسة اعطى هذا البيض الى المدرس الشيخ ، وقد اثر فى وانج لنج منظره اذ كان يضع على عينيه منظارا كبيرا له اطار من النحاس الاصفر . وكان يلبس رداء طويلا اسود ، ويمسك بيديه مروحة كبيرة حتى فى فصل الشتاء ، فانحنى له وانج لنج وقال له : « سيدى .. اليك ولدى العديمى القيمة . واذا اردت ادخال شىء فى راسيهما السميكين اللذين قدا من نحاس ، فانما يكون ذلك بضربهما حتى يتعلما ! »

ووقف الولدان يطيلان النظر الى التلاميذ الآخرين فوق التخت ، والتلاميذ ينظرون اليهما . ولما عاد الى بيته وحده بعد ان تركهما بالمدرسة ، كان يتملكه الفخر ، وخيل اليه ان أحدا من التلاميذ لا يشبه ولديه طولا وقوة بدن ووسامة وجه ... ولما صادف جارا له قادما من القرية وهما يمران بباب المدينة ؛ رد على سؤال له بقوله : « انني عائد من المدينة بعد ان ادخلت ولدى المدرسة ! »

ولما بدت على الرجل الدهشة قال متظاهرا بقلة الاكتراث : « انى الآن لا احتاج اليهما فى الحقول فيمكنهما اذن ان يتعلما ! »

ولكنه قال فى نفسه : « لن ادهش اذا صار ولدى الاكبر حاكما على اقليم ! »

▭

وافت السنة السابعة وقد فاض النهر العظيم فى الشمال من جراء وفرة الامطار والثلوج ، فحطم الماء الجسور وتدفق على المنطقة كلها . ولكن ذلك لم يزعج وانج لنج وان يكن خمسا اراضيه قد غمرتها المياه واصبحت بحيرة يبلغ عمقها مثل قامة الانسان ، فكان الناس يغدون ويروحون فى زوارق او على الواح من الخشب !

لكن وانج لنج مع كل ذلك لم يكن خائفا ، فان اسواق الحبوب كانت مدينة له بمبالغ من المال ، ومخازنه مملوءة بالحاصلات التى حصدت فى السنتين الماضيتين ، وبيتاه كانا مرتفعين فلا يرقى اليهما الماء !

ولما كانت الحقول فى تلك الحال لا يمكن زرعها ، فقد صار وانج لنج لا يعرف كيف يقضى وقته وهو الذى لا يطيق البقاء متعطلا ، وصار ياكل من اطايب الطعام حتى يشبع ويأخذ اكثر من قسطه من النوم ، ولكنه لم

يكن يجد ما يعمله فجعله ذلك ملولا ضيق الصدر ، ثم كان هناك عماله الذين يستأجرهم لمدة سنة كاملة ، وقد صاروا الآن ياكلون من طعامه وهم يكادون لا يعملون شيئا منتظرين أن تنحسر المياه عن الارض ، وقد كلفهم أن يصلحوا البيت ويطعموا الماشية ويشتروا بطا يربونه على ماء الغيضان وان يصنعوا من الكتان حبالا ، تلك الاشياء التى كان يقوم بها وحده حين كان يفلح اراضيه من غير معين !

وكان البيت يشمله السكون ، فقد اصبح ابوه الشيخ أصم تماما ، وضعف بصره حتى لا يكاد يرى ، وساء وانج لنج أن اباه لا يقدر ان يعرف مبلغ الثروة التى وافت ولده حتى انه ظل يحتج على وضع الشاى فى الماء المغلى ويقول كما كان يقول فى ايام الفقر : « يكفى الماء وحده فان الشاى كالفضة ! » . ولم تكن ثمة فائدة من شرح الحالة له لانه كان ينسى كل شىء ويعيش فى عالم خاص به !

ان ذلك الشيخ وتلك الطفلة البكماء التى تجلس الى جانبه وهى تلوى قطعة قماش وتبتسم ، هذين الاثنين ليس لديهما ما يقولانه لوانج لنج فكان يكتفى بأن يصب لهما الشاى ، ويربت بيده خد الطفلة البلهاء ، وينظر الى الطفل والطفلة التوامين اللذين ولدتهما (أولان) وهما يجريان ويمرحان عند عتبة الباب !

وكان لهذا يتملكه الضجر . ثم ينظر الى زوجته (أولان) كما ينظر الرجل الى امراة يعرف جسدها حق المعرفة وقد عاش معها هذه السنين عن كثب فليس من جديد ينتظره منها !

غير انه نظر اليها مرة فخيل اليه انه يراها لاول مرة فى حياته !.. فقد وجدها امراة لا يمكن أن يحسبها اى رجل غيره الا امراة غبية عادية ، تكدح فى صمت ، ولم تفكر فى مظهرها قط

وقد راى لاول مرة ان شعرها أسمر اشعث غير مطلى بالزيت ، وان وجهها مسطح ضخم خشن الملمس ، وان ليس فيها شىء من الجمال او الخفة . وكان شعر حاجبيها مبعثرا متباعدا ، وشفتاها واسعتين ، ويداها وقدماها كبيرة مفرطحة !

ثم صاح بها قائلا : « ان اى انسان يراك يحسبك زوجة فلاح بسيط ولا يتصور انك قرينة رجل يملك أرضا ويستأجر عمالا ! »

وهكذا لاول مرة صارحها برايه فى مظهرها ، فردت عليه بنظرة الم بطيئة ، وكانت جالسة على مقعد تحيك نعل حذاء بابرة طويلة فوقفت عن العمل فجاة وفغرت فاها دهشة فبدت نواجذها المسودة . وكانما ادركت اخيرا انه نظر اليها نظرة رجل الى امراة فاحمر وجهها الناتىء العظام وغمغمت قائلة : « منذ ولدت الطفلين الاخيرين وصحتى ليست على ما يرام . انى احس الما كالنار فى جسمى ! »

وأدرك انها حسبت فى سذاجتها انه يلومها لانها لم تحمل طوال السنوات السبع الاخيرة ، فرد عليها بشدة اكثر مما اراد : « اننى اعنى انك لا تريدين ان تشترى قليلا من الزيت لشعرك ، او ثوبا جديدا من الحرير الأسود لك ، كغيرك من النساء . ثم ان الا ..ية التى ترتدينها لا تليق بامراة مثلك زوجة رجل من ذوى الاملاك ! »

ولكنها لم تجب ، وانما نظرت اليه بانكسار ثم اخفت احدى قدميها وراء الاخرى تحت المقعد الذى تجلس عليه فى حركة غير اختيارية !. وكانما انبه ضميره اذ اساء الى هذه المراة التى تبعته طول السنين كالكلب الأمين ، وتذكر انها فى ايام الفقر كانت تترك فراشها عقب الوضع وتأتى اليه فى الحقل لتعاونه على الحصاد ، ولكنه لم يستطع ان يكظم الغيظ الذى فى صدره فاستطرد بالرغم منه قائلا : « لقد اجتهدت وكدحت حتى صرت غنيا ، ولست أحب أن تبدو زوجتى كخادمة مزرعة . ثم ان قدميك . . . »

وهنا وقف عن الكلام فقد بدا له أن قدميها اقبح ما فيها بحجمهما الكبير فى حذائهما القطنى ، ونظر اليهما غاضبا حتى اضطرت الى اخفائهما تحت مقعدها اكثر من قبل . واخيرا قالت بصوت كالهمس : « ان امى لم تربط قدمى لان أهلى باعونى وانا طفلة صغيرة . ولكنى سأربط قدمى طفلتنا اعنى الطفلة الصغيرة ! »

غير انه خرج دون ان يجيب فقد خجل لانه أبدى لها الغضب ، وزاد سخطه عليها لأنها لم تغضب من ذلك وانما خافت . وارتدى ثوبه الأسود الجديد ثم قال متبرما : « سأذهب الى مشرب الشاى لعلى اسمع به شيئا جديدا ، فليس فى بيتى سوى حمقى ورجل مخرف وطفلين ! »

وازداد كدره وهو ماض الى المدينة ، لانه تذكر بغتة انه ما كان ليشترى كل هذه الارض لولا ان (أولان) اعطته تلك الجواهر التى استولت عليها من بيت الرجل الغنى ، غير انه زاد بذلك غضبا وقال لنفسه : « حسنا !. ولكنها لم تكن تدرى ماذا فعلت . وانما استولت على تلك الجواهر ، كما يستحوذ الطفل على قبضة من الحلوى ، وكانت ستخبئها فى صدرها الى الأبد لولا ان اكتشفت وجودها ! »

وساءل نفسه : « اتراها لا تزال تخبىء اللؤلؤتين بين ثدييها ؟ » . ثم تذكر ان ثدييها ترهلا بعد الاطفال الذين وضعتهم وارضعتهم ، فكان وضع لؤلؤتين بينهما حمقا واسرافا !. ولكن ذلك كله كان لا يعد شيئا مذكورا لو ان وانج لنج بقى فقيرا ، أو لو ان ماء الفيضان لم يغمر حقوله فيعطله عن العمل . غير انه كان غنيا . وقد خبأ فضة كثيرة فى جدران بيته ، وكان هناك كيس مملوء فضة مخبأ فى أرض بيته الجديد ، وكانت هناك فضة غيرها ملفوفة فى قطعة قماش بالصندوق الذى فى الغرفة التى ينام فيها وزوجته ، وفضة اخرى حيكت بالحصيرة التى تحت سريرهما . وكان حزامه تملؤه الفضة

كذلك . واذن . . لم يعد انفاق الفضة كقطع جزء من لحمه ، بل هو يتوق الى انفاقها فى هذا الوجه او ذاك ، لانه لا يكترث للانفاق بل يفكر فى الاستمتاع بالحياة قبل ان يبلغ الكبر !

لقد بدا يعيب كل شىء يراه ، منذ اخذ ينظر اليه بغير العين التى كان ينظر اليه بها من قبل . ومشرب الشاى الذى كان يدخله متهيبا فى الايام الخالية لشعوره بانه فلاح بسيط ، اصبح الآن فى نظره مشربا وضيعا . وفى الايام الخالية لم يكن احد هناك يعرفه ، وكان الصبيان الذين يقدمون الشاى وقحين سيئى الأدب نحوه ، اما الآن فانه حين يدخل يكز الناس بعضهم بعضا بالكوع ويتهامسون قائلين : « ها هو ذا وانج لنج الذى اشترى اراضى آل هوانج فى الشتاء الذى مات فيه السيد الشيخ وقت المجاعة . انه مزارع وافر الثروة ! »

وكان وانج لنج يسمع ذلك ثم يجلس بغير اكتراث ، ولكن قلبه كان يمتلىء فخرا مما سمع . غير أنه فى هذا اليوم الذى اتب فيه زوجته لم يسره ذلك الاحترام الذى قوبل به بل جلس عابسا وشرب الشاى وهو يحسب ان لا شىء فى الحياة يبعث على السرور كما كان يظن . ثم خطر له فجاة ان يسائل نفسه : « لماذا اشرب الشاى فى هذا المشرب الوضيع الذى يكسب صاحبه فى اليوم اقل من أجر عامل عندى ؟ !.. نعم ، انى املك مالا ولى ولدان متعلمان ! »

وقام مسرعا ووضع النقود على المائدة قبل ان يتاح لاحد ان يكلمه . واخذ يجوب خلال المدينة لغير قصد معين ، ومر بكشك قصاص فجلس على دكة مزدحمة واخذ يستمع الى الرجل وهو يقص قصة الأزمان القديمة فى الممالك الثلاث حين كان المتقاتلون شجعانا ذوى مكر ودهاء . ولكنه ظل غير مرتاح البال وقد ضايقه صوت اللوح النحاسى الذى يقرعه الرجل ، وما لبث قليلا حتى نهض وانصرف لا يلوى على شىء !

وكان فى المدينة مشرب شاى كبير فتحه حديثا رجل من الجنوب يحذق هذا النوع من الاعمال ، وكان وانج لنج قد مر بذلك المكان من قبل فارتاع من فكرة المال الوفير الذى يضيع فيه على اللعب والقمار والنساء الساقطات ولكنه دخل الآن مدفوعا بقلق الفراغ ورغبة الفرار من تانيب ضميره على مسلكه نحو زوجته ، فقد أراد ان يشغل نفسه برؤية شىء جديد او سماعه . وهكذا ولج باب ذلك المشرب الى قاعة فسيحة يسطع فيها الضوء وقد صفت فيها مناضد كثيرة ، ودخل بجراة رافع الراس لكنه فى قرارة نفسه كان متهيبا ، وتذكر انه منذ سنوات قليلة كان فقيرا لم يملك قط أكثر من قطعة فضية او قطعتين ثم صار يجر عربة يركبها احد السادة فى مدينة بالجنوب !

ومكث ساكتا فى ذلك المشرب الكبير ، فشرب الشاى أول الامر فى هدوء ، ثم اخذ ينظر حوله مستغربا قاعة المشرب العظيمة التى طلى سقفها بماء

الذهب ورسمت على جدرانها صور نساء حسان فمضى يختلس النظر الى هذه الصور وقد خيل اليه انهن نساء احلام لانه لا يوجد على وجه الارض نساء مثلهن !

وخرج مسرعا على اثر ذلك !.. غير انه صار يذهب الى مشرب الشاى هذا يوما بعد يوم ، فى حين كان ماء الفيضان لا يزال يغمر اراضيه ، وكان يجلس وحده ويطلب الشاى ويحتسيه وهو يمعن النظر الى صور النساء الحسان ، وكان كل يوم يطيل المكث اكثر من قبل ، ما دام ليس وراءه شىء يعمله فى الحقول ولا فى البيت . ولعله كان يظل على هذه الحال اياما لاتنتهى ، لانه برغم كثرة الفضة التى يكنزها كان لا يزال يبدو فلاحا بسيطا ، ولم يكن هناك غيره فى مشرب الشاى احد يرتدى ثيابا من القطن ، فكلهم هناك يرتدون ثيابا من حرير ، وكان وحده فى المدينة كلها ما يزال محافظا على ضفيرة من الشعر تتدلى على ظهره !

وفى مساء احد الايام وهو جالس يحتسى الشاى ويحملق فى الصور من مائدة فى مؤخرة القاعة ، راى احدا يهبط سلما ضيقا عند الحائط الخلفى ، يؤدى الى الطابق الاعلى !

وكان مشرب الشاى هذا هو البناء الوحيد فى المدينة الذى له طابق اعلى — ما عدا المعبد الغربى المكون من خمس طبقات فى خارج الباب الغربى للمدينة . ولكن ذلك المعبد كان ضيقا ، ويزداد ضيقا عند قمته ، فى حين ان الطابق الثانى لمشرب الشاى كان مربعا كالطابق الاسفل . وفى الليل كان غناء النساء وصوت الضحك ينبعثان من ذلك الطابق الاعلى ، ممزوجين بأنغام العود يوقع عليه فتيات بارعات فى العزف . وكان المار بالشارع يسمع صوت الموسيقى عاليا وبخاصة بعد نصف الليل ، وان يكن وانج لنج لا يسمع من مكانه سوى ضجة الرجال وهم يشربون الشاى وصوت طقطقة النرد ، يعلوان على كل صوت آخر !

وهكذا لم يسمع وقع قدمى امرأته خلفه ، وقد ارتاع حين لمست كتفه بغتة ، اذ كان لا يتوقع أن يعرفه أحد فى هذا المكان . ولما نظر اليها رأى أمامه (كوكو) بوجهها الحلو النحيل ، وهى المرأة التى وضع فى يدها الجواهر يوم اشترى الارض من (هوانج) فامسكت بيد السيد الشيخ المرتعشة لتساعده على ختم عقد البيع !.. وقالت (كوكو) وهى تضحك : « وانج لنج المزارع ؟!.. من كان يتوقع ان يراك هنا ؟! »

ورأى ان عليه ان يثبت لها انه اكثر من رجل ريفى بسيط ، فرد ضاحكا بصوت مرتفع : « اليست نقودى كنقود اى شخص آخر ؟ والنقود لاتعوزنى فى هذه الايام ، فقد كان حظى حسنا ! »

فقالت بصوت رقيق كأنه زيت يصب من آنية : « ومن الذى لم يسمع بذلك ؟ وهل تنفق النقود الفائضة عن حاجة الانسان الا فى مكان كهذا ينعم

الاغنياء فيه بالمتعة والسرور ؟.. لا توجد خمر مثل خمرنا !.. هل ذقتها يا وانج لنج ؟ »

فشعر بالخجل وقال : « انى حتى الآن لم اشرب هنا الا الشاى ! »

فضحكت وقالت : « شاى ؟ ! ان عندنا انواعا متعددة من الأنبذة والخمور ، فكيف تشرب شايا ؟ »

ثم قالت بصوت ناعم مغر : « احسبك لم تنظر الى شىء آخر ؟.. لم تنظر الى الايدى الجميلة ولا الى الخدود الزكية الرائحة ؟ »

فاحمر وجهه وشعر كان كل انسان ينظر اليه ويسخر منه . ولكنه لما نظر حوله لم يجد احدا ملتفتا اليه فقال باضطراب : « كلا !.. انى كنت اشرب الشاى فقط ! »

فضحكت المرأة من جديد واشارت الى صور الحسان والاشرطة الحريرية المكتوبة وقالت له : « انظر الى هذه الصور واختر الصورة التى تحب أن ترى صاحبتها ، وضع الفضة فى يدى وانا احضرها لك ! »

فقال وانج لنج مستغربا : « هؤلاء ؟!.. لقد حسبت انها صور نساء فى الاحلام ، أو صور الهات فى جبل (كوين لوين) كاللاتى يتحدث عنهن القصاص ! »

فردت كوكو ساخرة : « اجل انهن نساء احلام غير انهن لا يلبثن حتى يتجسدن بقليل من الفضة ! »

ثم ذهبت فى طريقها وهى تغمز للخدم وتشير من بعيد الى وانج لنج وتقول : « هناك فلاح ساذج ! »

وكان وانج لنج يحملق فى الصور بشعور جديد . ان فى غرف الطابق الاعلى توجد نساء حسان ! والرجال يصعدون اليهن — رجال آخرون غيره ولكنهم رجال ! فلو انه لم يكن كما هو ، رجلا جادا وله زوجة واولاد ، فاية صورة كان يختارها ؟. وجعل ينظر مليا الى كل صورة وكأنها امرأة متجسدة امامه . وقد كانت الصور قبل ذلك جميلة كلها فى عينيه ، اما الآن فانه اخذ يقارن بينها ليرى اى النساء اجمل من غيرها ، وقد اختار من العشرين صورة أو اكثر ثلاثا كن اجملهن جميعا ، ثم عاد فاختار واحدة من بين هؤلاء الثلاث رآها اكثرهن جمالا ، اذ كانت صغيرة القد رفيعة الجسم لها وجه صغير كوجه هرة واحدى يديها مطبقة على عود زهرة لوتس ، وكانت يدا رقيقة كسلك نبات السرخس !

وامعن فيها النظر فاحس حرارة تسرى فى جسمه وكان خمرا صبت فى عروقه حتى قال بصوت مرتفع : « انها كالزهرة التى فوق شجرة سفرجل ! » . ولما سمع صوت نفسه انزعج وخجل ووضع النقود على المنضدة وخرج فى ظل الليل عائدا الى بيته !

www.liilas.com

وكان القمر يبعث بشعاعه فوق الحقول والماء ، وكان الدم يجرى فى عروق وانج لنج حارا سريعا !

ولو أن الماء انحسر عن حقوله واحتاجت الارض الى جهده من جديد ، فاكبر الظن انه ما كان يذهب الى مشرب الشاى الكبير مرة اخرى . ولو ان طفلا من اطفاله مرض ، أو ان اباه الشيخ وافاه اجله فجأة ، لشغله ذلك ونسى صورة الوجه الجميل وجسم المرأة الذى يشبه القصبة فى نحوله . ولكن الماء ظل يغمر الحقول ، والشيخ مكث ينعس كعادته ، والولدان صارا يذهبان الى المدرسة فجر كل يوم ولا يعودان الا مساء فكان وانج لنج قلقا ضجرا ، وصار يتفادى نظرات (اولان) وهى تنظر اليه بمسكنة وهو لا يستقر على الكرسى حتى يقوم قبل ان يشرب الشاى الذى صبته له ، أو يدخن الغليون الذى يكون قد اشعله !

وفى نهاية يوم طال عليه اكثر من غيره كان واقفا فى ضوء الشفق على عتبة داره ، ثم دخل بغتة وارتدى ثوبا جديدا من قماش اسود يلمع كالحرير ، وكانت (اولان) قد حاكته ليرتديه فى أيام الأعياد ، ثم مضى فوق الدروب وحدود المياه حتى وصل ليلا الى باب المدينة فولجه وسار فى الشوارع حتى وصل الى مشرب الشاى الجديد !

وتردد وانج لنج قليلا عند باب المشرب ، وكان فى قرارة قلبه خائفا خجولا ، وان يكن دمه يجرى ساخنا متدفقا فى عروقه حتى لتكاد تتفجر به ، وانه لكذلك اذا بالمرأة (كوكو) قد جاءت مهرولة اذ كانت مهمتها ان تستقدم العملاء الى تلك الدار ، ولما رأت انه هو ، هزت كتفيها وقالت : « انه ليس الا مزارعا ! »

فساءه ذلك منها ، وبعث فى نفسه جراة لم تكن له ، وقال بحدة : « أليس لى الحق فى دخول هذا البيت كأى شخص آخر وان افعل كما يفعل غيرى ؟ ! »

فضحكت وقالت : « اذا كان معك مثل الفضة التى معهم فانك تستطيع ان تفعل كما يفعلون ! »

فاراد ان يثبت لها انه سيد ، وانه وافر الغنى ، فدس يده فى حزامه واخرجها مملوءة

فنظرت الى الفضة وقالت مسرعة : « تعال واخبرنى أى واحدة منهن تريد ؟ ! »

واخيرا قرعت (كوكو) احد الأبواب بشدة ودخلت ، وكانت هناك فتاة نحيلة تجلس على سرير مغطى بلحاف احمر عليه رسوم ازهار !.. وكانت هى (لوتس) التى اعجبته صورتها

ونظر اليها كما كان ينظر الى الصورة ، ورأى وجهها وعينيها وشفتيها كما كانت مرسومة ، وخيل اليه انها ليست امرأة من لحم ودم ولكن صورة امرأة !

ثم رفعت احدى يديها الصغيرتين ووضعتها على كتفه ثم مرت بها ببطء على ذراعه ، فاحس نارا تحترق تحت كمه ، ثم مسحت بيدها على معصمه حتى وضعتها فى راحة يده ، فبدا يرتعش ولا يدرى كيف يمسك بها .

وعندئذ ضحكت ضحكة كأنها دقة ناقوس فضى فوق معبد قد هزه الريح ، وقالت له بصوت رقيق : « آه ما اجهلك أنت أيها الانسان الكبير ! هل ستجلس هنا طول الليلة لتتفرس فى هكذا ؟ ! »

وعندئذ أمسك بيدها بين راحتيه فى حذر وكأنه يمسك بورقة شجر جافة يخشى أن تتكسر ، وقال لها بتوسل وهو لا يدرى ماذا يقول : « لا أعرف شيئا ، علمينى ! »

وقد علمته !

وصار يذهب كل يوم الى مشرب الشاى ، وصار ينتظر مساء حتى تستقبله ويذهب اليها كل ليلة . غير انه لم يستطع قط أن يستحوذ عليها تماما ، وهذا الذى جعله دائم الحمى والظما ، ان اولان حين جاءت الى بيته كانت كالصحة لجسده ، وكان يتوق اليها كالحيوان يطلب رفيقته فكان ياخذها ويشبع نفسه منها ويقنع ، ثم ينساها ويؤدى عمله راضيا ، ولكن حبه لهذه الفتاة كان خاليا من ذلك الرضا ، خاليا من الصحة كذلك !

وصارت الفتاة (لوتس) تصنع به ما تشاء . فلما ضحكت من الضفيرة المتدلية على قفاه ــ وان يكن قد مضى وقتا طويلا فى عقصها وتمشيطها ــ ذهب الى حلاق وامره بقصها مع انه قبل ذلك عجز الساخرون منه عن ان يغروه بذلك . ولما رأته (اولان) من غير تلك الضفيرة صاحت به مرتاعة وقالت : « لقد قطعت حياتك ! »

فصاح بها قائلا : « أتريدين ان ابقى الى الابد كأحمق عتيق ؟ !.. ان جميع شباب المدينة يقصون شعرهم كله ! »

كان فى قرارة نفسه خائفا مما فعله !.. ولكن لو ان الفتاة (لوتس) امرته أن يقطع حياته نفسها لفعل ، لأنها كان لها كل مقومات الجمال التى يتمناها فى امرأة !

وكان من قبل لا يغتسل الا قليلا ، حاسبا ان العرق الذى يتصبب من جسمه عند التعب يغنيه عن كثرة الاغتسال !.. أما الآن فصار يعنى بجسده وكأنه جسد شخص آخر ، وصار يغتسل كل يوم حتى قالت له زوجته يوما : « ستموت من كثرة الاغتسال ! »

وصار يشترى صابونا معطرا وروائح عطرية لاغتساله ، وامتنع عن أكل الثوم بتاتا برغم حبه له ، واشترى لنفسه كذلك اقمشة حريرية غالية الثمن ولم يرض ان تحيكها له (اولان) بل ذهب بها الى حائك فى المدينة .. فحاكها له على الطراز الذى يؤثره ابناؤها . ولبس فى اصبعه خاتما فضيا

مطليا بالذهب ، وصار يدهن شعره بزيت وارد من الخارج ذى رائحة زكية !

ونظرت أولان اليه مندهشة ولم تدر معنى لهذا التغير الذى طرأ عليه وقالت له :

ـ ان مظهرك يجعلنى أحسبك واحدا من السادة الذين كانوا بالبيت الكبير !

فضحك وانج لنج اذ سمع ذلك وقال : « وهل حكم على ان أبدو كعبد من عبيد الارض مع اننا وافرو الثروة ؟ »

ولكنه سر كثيرا من تلك المقارنة وعاملها فى ذلك اليوم بلطف لم تعهده منه منذ أيام عديدة

وكانت النقود ، تلك الفضة العزيزة ، تتساقط من يده كالمطر . وكان عليه الى جانب اجر الفتاة على الساعات التى يقضيها معها ان يلبى طلباتها !. فقد كانت تتأوه وتنتحب فاذا سألها ما بها افصحت عن رغبتها فى حيازة قطعة حلى ذات حجر كريم . فاذا جاءها بها فى غداته عادت تطلب مزيدا من الذهب ، وهكذا لا ينقطع لها طلب ! وفى مقابل ذلك صارت تناديه بأسماء محببة لم يسمعها قط من قبل ، وتعلمه أن يناديها بكلمات غرامية

وهكذا صارت الفضة تخرج من مخابئها فى الحائط أو فى الكيس ، ولم تعد أولان تسأل عن ذلك كما كانت تفعل فى الايام الخالية كلما طلب الفضة لشراء ارض ، بل لاذت بالصمت وقنعت أن ترقبه بكثير من الحزن والكمد ، اذ ايقنت انه يعيش حياة اخرى بعيدا عنها وعن الارض ، ولكنها لم تكن تدرى على وجه التحقيق ما هنالك . غير انها كانت قد امتلأت رعبا منه منذ ذلك اليوم الذى رآها فيه عاطلة من الجمال ورأى شعرها خشنا وقدميها كبيرتين ، وصارت تخشى ان تسأله عن شىء اذ أصبح سريع الغضب يثور لأوهى الأسباب !

وفى احد الايام جاء اليها واقترب منها وهى تغسل الثياب عند البركة ، ووقف برهة صامتا ثم قال لها بجفاء يغطى به خجله : « اين اللؤلؤتان ؟ »

فاجابت بخوف : « اللؤلؤتان ؟. انهما معى ! »

فغمغم وهو ينظر الى يديها المبتلتين من غير ان ينظر اليها : لا فائدة من ان تحتفظى بهما لغير غرض ! »

فقالت ببطء : « لقد كنت اعتزم ان اجعل منهما قرطين يوما من الايام ، وعندئذ كانتا تصلحان لابنتنا حين تتزوج ! »

وسكت لحظة ثم صاح : « اعطينى اللؤلؤتين فانى فى حاجة اليهما ! »

فوضعت يدها المجعدة المبتلة فى صدرها واخرجت منه لفة صغيرة ناولته اياها واخذت ترقبه وهو يحل رباطها . ولما رأى وميضها فى شعاع الشمس ضحك ضحكة قصيرة . أما أولان فعادت تضرب الثياب بعصا من الخشب وقد بسطتها على حجر ، غير انها صارت تضربها ضربا متواصلا شديدا !

وانج لنج وقد اخذ من زوجته اللؤلؤتين ، ليهديهما الى خليلته

حلم يذوب !

عاد عم وانج لنج فجاة الى القرية ، ولم يوضح اين كان وماذا فعل ، وانما وقف فجاة بالباب وكانه سقط من السماء !

وكانت ثيابه الخلقة غير مشدودة بالأزرار ، وحزامه مفككا ، ووجهه كما كان لولا انه بانت به تجاعيد ويبس من فعل الريح والشمس .. وكشر لهم عن اسنانه وهم جالسون الى المائدة يتناولون طعام الفطور ، ففغر وانج لنج فاه من الدهشة لانه كان قد نسى عمه فكان الآن كالميت يعود بغتة . وحملق أبوه الشيخ ولم يعرف القادم لولا أن هتف صاح به قائلا : « اخى الاكبر وابنه واحفاده وزوجة ابن اخى ؟ ! ما ابدع ذلك ! »

وعندئذ وقف وانج لنج متكدرا فى نفسه ولكن مرحبا بعمه فى الظاهر وقال له : « هل تناولت طعام الفطور ؟ »

فأجاب الرجل ببساطة : « كلا ولكنى ساكل معكم ! »

وجلس معهم وسحب آنية وعودين ، واخذ يأكل بنهم من الأرز والسمك المملح والفول المجفف التى كانت على المائدة ، ولم يتكلم الا بعد ان افرغ ثلاث اوان من عصيدة الأرز ، وبعد ان أكل هنيئا قال : « الآن اريد ان انام لانى لم انم طول الليالى الثلاث الاخيرة ! »

فذهل وانج لنج ولم يدر ما يقوله ، ولكنه لم يجد بدا من ان يقود عمه الى سرير والده ، فرفع عمه الالحفة واخذ يفحص فماشها الجديد وقطنها الجيد ثم نظر الى السرير الخشبى والى المنضدة والكرسى اللذين كان وانج لنج قد اشتراهما لغرفة ابيه وقال : « لقد سمعت انك اصبحت غنيا ، ولكنى لم اكن اعرف انك غنى الى هذا الحد ! » .. ثم ارتمى على السرير وسحب اللحاف الى كتفيه وكان البيت بيته وكل ما فيه ملكه !

وعاد وانج لنج الى الغرفة الوسطى وهو فى كدر شديد ، فقد ايقن الآن ان عمه لن يجلو عن البيت بعد أن عرف ان ابن اخيه عنده طعام له . وفكر وانج لنج فى ذلك وفى زوجة عمه بكثير من القلق ، لانه ادرك ان القوم سينزلون بيته ولن يحول احد بينهم وبين الاقامة فيه !

وقد وقع ما خشيه فان عمه مكث نائما فى السرير الى ما بعد الظهر ثم تثاءب ثلاث مرات بصوت مرتفع وخرج من الغرفة وهو يلف الثياب حول جسمه

ثم قال لوانج لنج : « الآن ساحضر زوجتى وولدى . ونحن ثلاثة لن يعوزنا فى هذا البيت الكبير ما ناكله وما نلبسه من ثياب بسيطة ! »

ولم يجب وانج لنج الا بنظرة عابسة ، لان من العار على رجل موسر ان يطرد عمه وابن عمه من بيته ، ولو انه فعل ذلك لازدراه اهل القرية الذين يحترمونه الآن لغناه . ولذا لم يجرؤ على ان يقول شيئا وانما امر العمال بان ينتقلوا جميعا الى الدار القديمة حتى يخلى الغرف التى بجانب الباب ، وقد احتل عمه وزوجته وابنه هذه الغرف فى مساء اليوم نفسه . وزاد من كدر وانج لنج انه مضطر الى اخفاء ما بنفسه والتظاهر بالترحيب والابتسام ، مع انه كاد ينفجر من الغيظ حين راى وجه زوجة عمه المكتظ باللحم ، وود لو يلطم وجه ابن عمه الذى تنطق ملامحه بالقحة والاستهتار . ومكث ثلاثة ايام لا يستطيع الذهاب الى المدينة لما يغمره من كدر !

ولما الف الجميع ما حدث ، وقالت له أولان : « دع عنك الكدر فلا بد من احتمال الامر » ، ورأى وانج لنج ان عمه وزوجته وابنهما سيلتزمون جانب المجاملة من اجل طعامهم ومثواهم ، عندئذ اتجهت افكاره الى الفتاة لوتس واشتد شوقه اليها وقال لنفسه : « اذا كان بيت الانسان مملوءا بالكلاب فيجب ان يبحث عن السرور فى مكان آخر » . وعادت اليه الحمى القديمة تحرق بدنه ، وكان لا يزال جائع العاطفة !

واذا كانت أولان فى سذاجتها ، وتشنج فى صداقته ، لم يريا ما به ، فان زوجة عمه قد ادركت توا ما هنالك ، فقالت بعينين ضاحكتين : « ان وانج لنج يسعى الى اقتطاف زهرة فى جهة ما ! » فنظرت أولان اليها بانكسار ولم تفهم ما تعنيه ، فاستطردت المرأة تقول : « هل لا بد للبطيخة ان تشطر شطرين حتى يمكنك ان ترى ما بها من لب ؟ حسنا ! اذن فاعلمى ان زوجك قد شغف حبا بامراة اخرى ! »

وسمع وانج لنج زوجة عمه تقول ذلك صباح يوم وهى بالفناء الذى تطل عليه نافذته ، وكان راقدا فى غرفته متعبا يفكر فى حبيبته . فاخذ ينصت وقد عجب من نفاذ نظر تلك المرأة التى كشفت ما بنفسه ، ثم سمعها تقول : « حين يشرع الرجل فى تلميع شعره ويشترى لنفسه ثيابا جديدة ويلبس فجاة حذاء من المخمل ، فثقى بان هناك امراة اخرى ! »

ثم سمع صوت أولان تقول شيئا لم يصل الى اذنه ، وردت عليها زوجة عمه قائلة : « لا تظنى ايتها الحمقاء ان الرجل يقنع بامراة واحدة ولا سيما اذا كانت ترهق نفسها بالعمل وقد استنفدت جسمها فى الكد من اجله ! ان هواه لا بد ان ينصرف الى غيرها . وانت ايتها الحمقاء لم تكونى قط اهلا لهوى رجل ولا اكثر من دابة تكدح له . وليس لك ان تتذمرى اذا كان غنيا واشترى لنفسه امراة اخرى واحضرها الى البيت ، لان جميع الرجال دابهم كذلك ، وهكذا كان زوجى المتعطل يفعل لولا انه عاش طول حياته

فقيرا ولا يملك من الفضة ما يطعم به نفسه ! »

وقالت غير ذلك كلاما كثيرا لم يسمعه وانج لنج من سريره ، ولكن ثبتت في ذهنه كلمة واحدة مما قالت ، دلته على الطريقة المثلى لارواء ظمئه الى فتاته . اجل انه سيشتريها وسيحضرها الى بيته ، ويجعلها وقفا عليه ، فلا يأتي اليها رجل آخر ، وهكذا يمكنه أن يشبع منها ظماه ونهمه . وقام توا من فراشه واشار خفية الى زوجة عمه ، فتبعته الى خارج البيت ، وجلسا معا تحت نخلة حيث لا يسمعهما احد ثم قال لها : « لقد سمعت ما قلته منذ لحظة وقد كنت على صواب . اني في حاجة الى اكثر من امراة واحدة ، ولم لا وعندي ارض تطعمنا جميعا ؟ ! »

فقالت باهتمام : « ولم لا حقا ؟ ان كل الرجال الموسرين كذلك . وانما الرجل الفقير وحده هو الذي لا يفتأ يشرب من كوب واحدة ! »

وكانت قد أدركت ما يرمي اليه ، فحقق ظنها وقال . « ولكن من الذي يقوم بالوساطة لي ؟ ان الرجل لا يقدر ان يذهب الى امراة ويقول لها : تعالي الى بيتي . . ! »

فقالت له : « دع هذا الامر لي وما عليك الا ان تخبرني من هي المراة وانا ادبر الامر ! »

وعندئذ قال وانج لنج في خجل ، لانه لم يكن قد افشى سره لاي مخلوق من قبل : « انها المراة المسماة (لوتس) . . . »

ولم يذهب الى مشرب الشاي الكبير حتى رتب الأمر ، وكان يقول لنفسه: « اذا لم ترض أن تاتي الى بيتي وتكون لي وحدي فاني أقطع رقبتي ولا أذهب اليها ثانية » . غير انه لما فكر في امكان هجرها شعر بقلبه تتمزق نياطه ، فعاد الى زوجة عمه يقول لها : « لا تغلقي الباب لقلة النقود . . ان عندي من الفضة والذهب قدر ما أريد . ولن تؤدي (لوتس) أي عمل في بيتي ، بل لن تلبس عندي الا الحرير ولن تاكل الا اطايب الطعام ! »

فضجرت زوجة عمه وقالت : « كفى ! . أتحسب أن هذه أول مسالة أدبرها بين رجل وامراة ؟ دعني اذن اتصرف ! »

ولم يبق عليه بعد ذلك الا أن يعد البيت لاستقبال (لوتس) ، فامر العمال أن يبنوا قاعة اخرى بالمنزل وحولها ثلاث غرف جديدة ، واشرف على عملهم بنفسه حتى لا يخبر تشنج بالغرض من ذلك . واخذ العمال يمزجون الطين لتشييد الجدران واشترى هو القرميد من المدينة لعمل السقف منه !

ولما تم البناء اشترى طوبا ورصف به أرض الغرف الثلاث . ثم اشترى قماشا أحمر وجعل منه ستائر تعلق فوق الابواب ، وابتاع أيضا أثاثا جديدا وصورا تعلق على الجدران ، وأعد كعكا فاخرا وحلوى ووضعها على المائدة الجديدة . ولكنه في خلال ذلك خجل من أن يكلف أولان أي شيء ،

وانما كانت زوجة عمه تعلق الستائر وتؤدي من الاعمال المنزلية ما لا يستطيع هو أن يؤديه !

ولما تم ذلك كله أمر بحفر بركة صغيرة وفرش أرضها بالآجر واشترى خمس سمكات ذهبية ووضعها في مائها . ولم يجد بعد ذلك شيئا يعده فمكث ينتظر على أحر من الجمر !

واستمرت الحال كذلك حتى جاءت اليه زوجة عمه يوما وقالت له : « ان المراة التي تدير مشرب الشاي لصاحبه قد قبلت أن تترك لوتس في مقابل مائة قطعة فضية تقبضها ، وستاتي الفتاة اليك اذا اشتريت لها قرطين من حجر اليشم ، وخاتما من الذهب وطقمين من الثياب الحريرية واثني عشر حذاء ولحافين من الحرير لسريرها ! »

ولم يسمع وانج لنج من ذلك كله سوى كلمة « لقد تم الأمر » . فجرى الى الغرفة الداخلية واستخرج فضة من مخبئها وملأ بها راحتيها ، ولكن في خفاء لانه لم يرد بعد أن يعلم أحد بوفرة الحاصلات في السنوات الاخيرة المتوالية ، وقال لزوجة عمه : « خذي لنفسك عشر قطع فضية ! »

وتظاهرت بالرفض والاباء في حين مدت يدها فسلمها ذلك المبلغ وهو يحسب أنه ينفقه في وجه الصحيح . ثم اشترى لحم خنزير ولحم بقر وصنوفا من السمك والخضر ومقدارا من أعشاش الطيور لعمل حساء بها ، وغير ذلك من أطايب الطعام ، ثم قعد ينتظر بصبر نافد !

وقد جاءت لوتس في يوم حار من أيام الشهر الثامن الذي هو ختام الصيف ، ورآها وانج لنج قادمة من بعيد وكانت راكبة محفة مغلقة يحملها رجال على أكتافهم وتتبعها المراة كوكو . عندئذ تولاه الفزع بغتة وساءل نفسه : « ماذا أحضرت أنا الى بيتي ؟ » . ودخل الى الغرفة التي كان يتام فيها سنوات طويلة متوالية مع زوجته وأغلق الباب وراءه ، ومكث في الظلام ينتظر في اضطراب شديد حتى سمع زوجة عمه تناديه بصوت مرتفع ليخرج لان لوتس قد وصلت الى باب الدار ! . وهنا خرج على مهل مضطربا زائغ البصر فلما رأته كوكو صاحت به في مرح : « ما كنت أحسب أننا سنعقد صفقة من هذا القبيل ! » . ثم ذهبت الى المحفة التي وضعها الحمالون على الارض وأزاحت ستارا وقالت : « اخرجي يا زهرة اللوتس فها هنا بيتك وهذا سيدك ! »

ثم تقدمت منها زوجة عمه فسارت بينها وبين كوكو الى الغرف الجديدة التي بناها لها وانج لنج . ولم يكن أحد من البيت قد رآها وهي تدخل لان وانج لنج ابعد العمال وعلى رأسهم تشنج ليعملوا في حقل بعيد ، وكانت أولان قد ذهبت الى حيث لا يدري ومعها طفلاها الصغيران ، والغلامان كانا بالمدرسة . أما أبوه الشيخ فكان نائما الى جوار الجدار ولا يسمع أو يرى شيئا ، وأما البلهاء الصغيرة فكانت لا تعرف أحدا غير أبيها وأمها . ولما

دخلت لوتس الى غرفتها سحبت كوكو الستائر وراءها .. وبعد فترة من الوقت خرجت زوجة عمه من لدنها ، ضاحكة بخبث ، وأخذت تضرب كفيها كانما تزيح عنهما شيئا وهي تقول : « انهـــا تفوح منها رائحة العطـــر والطلاء ! » . ثم قالت ولا تزال تضحك : « انها ليست صغيرة السن كما يبدو عليها . بل أحسبها ماكانت لترضى الانتقال الى بيت مزارع مهما قدم لها من حلي وحرير لولا أنها في ختام سن الشباب فهي موقنة أنها عما قريب لن ينظر اليها رجل ! »

ولما رأت دلائل الألم على وجه وانج لنج من هذا الكلام الصريح اضافت قائلة : « ولكنها في الحق جميلة ولم أر قط أجمل منها ، وستكون حلوة المذاق بعد كل تلك السنوات التي قضيتها مع تلك الجارية الغليظة العظام التي أخذتها من بيت هوانج ! »

ولكن وانج لنج لم يجب بكلمة وانما كان ينتقل في نواحي البيت وهو يستمع ولم يقدر أن يقف ساكنا . وأخيرا تجرأ ورفع الستار الاحمر ودخل عند لوتس ومكث الى جوارها طول يومه حتى أرخى الليل سدوله

وفي خلال ذلك كله لم تعد أولان، وكانت في فجر ذلك اليوم قد تناولت فأسا ونادت الطفلين التوأمين وأخذت معها طعاما ملفوفا في ورقة كرتب ثم لم تعد الا في الليل حيث دخلت المطبخ وأعدت طعاما ووضعته على المائدة كما تفعل دائما ثم نادت الرجل الشيخ ووضعت عودين في يده وأطعمت البلهاء ثم أكلت قليلا من الطعام مع أطفالها . ولما أووا الى فراشهم اغتسلت تأهبا للنوم ثم دخلت غرفتها ونامت وحدها على السرير !

وبعد ذلك صار وانج لنج يذهب الى الغرفة التي ترقد بها لوتس كسلى على سريرها فيجلس بجانبها ويرقب كل حركاتها وسكناتها . وكانت لا تخرج قط وانما كانت ترقد ، في حين تغسل كوكو بدنها النحيل بماء دافيء ثم تدهنه بالزيت ثم تعطر شعرها . ذلك لان لوتس كانت قد أصرت على أن تمكث معها كوكو كخادمة لها !. وكانت تدفع لها أجرا سخيا ، فآثرت المرأة أن تخدم واحدة بدل عدد من النساء ، وصارت تعيش مع سيدتها لوتس بمعزل عن الآخرين في الجناح الذي شيده وانج لنج

وكانت الفتاة تمكث طول النهار في غرفتها المعتمة وهي تأكل حلوى وفاكهة ولا تلبس الا ثيابا خفيفة من الحرير ، وكان وانج لنج يجدها كذلك فيشبع ويرتوي من غرامه ... فاذا ضجرت أخيرا من الرقاد ، خرجت الى البركة الصغيرة ذات السمك الذهبي فاذا مدت احدى قدميها الصغيرتين حسب وانج لنج أن لا شيء في العالم يقارن بجمال قدميها الدقيقتين ويديها النحيلتين !

كان لابد لمجيء لوتس وخادمتها كوكو أن يحدث أثرا في البيت ، لأن وجود امرأتين في بيت واحد لا يكفل الهدوء والطمأنينة ، ولكن وانج لنج لم

يكن يقدر ذلك ، ثم صار يتجاهل نظرات أولان العابسة وملاحظات كوكو الحادة . وما لبث مع الايام أن شعر بوجود عداء بين أولان وكوكو .. وأدهشه ذلك لانه كان يتوقع خصومة بين أولان وبين لوتس اذ كان قد سمع بأشياء تحدث من هذا الطراز بين الزوجين ، فبعض النساء يؤثرن أن يشنقن أنفسهن اذا جاء زوج احداهن بامرأة أخرى الى المنزل ، وبعضهن يجعلن حياة الزوج جحيما لا يطاق . ولكنه كان مرتاح البال لان أولان امرأة تحب الصمت بطبيعتها ، غير أنه لم يقدر أنها اذا لزمت الصمت حيال لوتس فان غضبها سينفجر ضد كوكو !

ولم يكن يفكر الا في لوتس حين قالت له : « دعني أتخذ من هذه المرأة خادمة لي فانى وحيدة في العالم اذ مات أبي وأمي وأنا طفلة صغيرة فباعني عمي حين أصبحت فتاة حسناء لأعيش تلك العيشة ، والآن ليس لي أحد في العالم ! » . وكانت تبكي وهي تقول له ذلك فلم يقدر أن يرفض لها طلبا . وقد رأى أنها ستكون وحيدة في بيته ولن يخدمها أحد ، ولا ينتظر من أولان أن تخدمها بأي حال ، بل انها لن تكلمها ولن تعترف بوجودها في البيت .. وعلى ذلك رضي أن يستخدم كوكو لتقوم على خدمتها !

ودخلت كوكو المطبخ يوما لتحضر ماء ساخنا لسيدتها ، فوجدت القدر خالية ، وكانت أسئلتها لا تلقى أي جواب من أولان . فاضطرت الى أن تغلي ماء بنفسها . كما اضطرت للسبب نفسه الى أن تعمل بنفسها عصيدة أرز للوتس ، ولما شكت كوكو الى وانج لنج جاء الى أولان غاضبا وقال لها :

ـ ألا يمكنك أن تضيفي قليلا الى ما تطهين ؟

فأجابت قائلة : «اني على الأقل لست جارية للجواري في هذا البيت !»

وعندئذ تملكه الغضب وهزها من كتفيها وقال لها : « لا تكوني حمقاء!. انه ليس للجارية ولكن لسيدتها ! »

فصبرت على هذا العنف منه ونظرت اليه وقالت : « تلك التي أعطيتها اللؤلؤتين اللتين كانتا لي ؟ »

واذ سمع ذلك تدلت يداه ولم يحر جوابا وولى غضبه وذهب مستحييا ثم قال لكوكو : « سنبني فرنا آخر ومطبخا ثانيا . ان زوجتي الأولى لا تعرف شيئا من لذائذ الطعام اللازمة للأخرى لأجل جسدها الذي يشبه الزهرة وستشاركينها أنت فيها . وعندئذ تطهين ما يحلو لكما ! »

وفي أحد الايام استيقظ أبوه بغتة من نومه ، ودب على عصاه حتى وصل الى باب علقت عليه الستائر بين الغرفة الكبرى والفناء الذي تتريض فيه لوتس . ولم يكن ذلك الشيخ قد لحظ ذلك الباب من قبل ، ولا أبدى ما يدل على علمه ببناء الجناح الجديد ، أو بمجيء أحد الى البيت ، ولم يخبره وانج لنج قط بأنه اتخذ لنفسه امرأة ثانية ، لانه كان أصم لا يسمع أي حديث ولا يفقه أي نبأ !

ومد الشيخ يده فأزاح الستار ، واتفق أن كان ذلك في وقت المساء حين كان وانج لنج يتريض مع لوتس في الفناء وقد وقفا بجانب البركة وأخذا يتطلعان الى السمك ، فلما رأى الشيخ ولده واقفا بجانب فتاة نحيلة مطلية الوجه ، صاح بصوته المرتعش : « أتوجد عاهرة في البيت ؟! »

وجعل يكرر هـذه الجملة ، وخاف وانج لنج أن تغضب لوتس فتصرخ وتضرب كفيها احداهما بالاخرى كما تفعل كلما غضبت ، فذهب الى أبيه وقاده بعيدا وهو يهدئه بقوله :

ـ اطمئن يا أبي ٠ انها ليست عاهرة ولكنها زوجتي الثانية !

ولكن الشيخ لم يسكت ٠! وسواء أسمع ما قاله ابنه أم لم يسمعه ، فقد صار يصيح مرة بعد اخرى : « أتوجد عاهرة هنا ؟! » ٠ ثم قال لوانج لنج : « لقد كانت لي امرأة واحدة ٠ وكان لأبي امرأة واحدة ٠ وكنا نفلح الارض ! » ٠ وما لبث أن صاح من جديد : « انى أقول انها عاهرة ! »

وقد خلق ذلك اضطرابا في بيت وانج‌لنج اذ كان يستحي أن يلوم أباه، وفي الوقت نفسه يخشى أن تغضب لوتس وهي سريعة الغضب ٠! وقد أحدث ذلك هما جديدا له وجعل من غرامه عبءا فوق كاهله !

وذات يوم سمع صرخة صادرة من الغرف الداخلية ، وتبين صوت‌لوتس فجرى اليها ، واذا به يرى أن طفليه التوأمين كانا قد ذهبا باختهما البلهاء الى غرفة لوتس مدفوعين ببواعث الفضول ، وكان أطفال وانج لنج الأربعة لا يفتأون يتساءلون عن تلك السيدة التي جاءت وسكنت تلك الغرف ، غير أن الولدين الكبيرين قد تهيبا الذهاب الى هناك ، أما الطفلان التوأمان فقد جرؤا في ذلك اليوم على الذهاب ومعهما أختهما البلهاء المسكينة

وشكت لوتس الى وانج لنج من قدوم الطفلين اليها وودت لو وجد طريقة لمنعهما ٠ غير أنه لم يجد وسيلة لذلك سوى أن ينهاهما عن المجيء اليها !

وانتهى الصيف ونظر وانج لنج صباح يوم الى حقوله فكان كمن يصحو من النوم ، فقد رأى أن الماء انحسر عن الارض ، وبدت هـذه لامعة تحت أشعة الشمس ، وصاح في نفسه صوت أعمق من صوت الحب ، يناديه بالعودة الى الارض ، فمزق الثوب الجديد الذي يرتديه ، وخلع حذاء المخمل من قدميه وجواربه الحريرية من تحته ، وشمر سراويله الى ركبتيه ،ووقف منتصب القامة قويا مشتاقا وصاح قائلا :

ـ أين الفأس ؟٠ أين المحراث ؟٠٠ أين البذور لزراعة القمح ؟٠٠ تعال يا تشنج يا صديقي ٠٠٠ ناد الرجال !٠ سأخرج معكم الى الارض !

وهكذا شفي وانج لنج من حمى الحب حين شعر بالارض الرطبة تحت قدميه ، وشم رائحتها تنبعث من الأخاديد ، وصار يأمر عماله بأن يعملوا هنا وهناك ، وأن يحرثوا هـذه البقعة ثم تلك ، وهو واقف وراء الثيران

يفرقع وراءها سوطه ، ثم نادى تشنج وسلمه المقود ، وتناول بنفسه فأسا وأخذ يعمل في الارض شاعرا بلذة عظيمة !

ولما حل المساء عاد الى بيته منهك‌القوى يشعر بالظفر في نفسه ، وجذب الستار الذي‌بباب الغرفة الداخلية فوجد لوتس‌تسير لابسة‌ثيابها الحريرية، ولما رأته صاحت جزعا من الطين والتراب على ثيابه ، وارتاعت حين اقترب منها ، ولكنه ضحك وأمسك بيديها الصغيرتين في يديه الملوثتين بالطين ، ثم ضحك مرة أخرى وقال لها : « ها أنت ذي ترين أن سـيدك ليس الا مزارعا ، وانك لست الا زوجة مزارع ! »

ولكنها صاحت احتجاجا : « لن أكون زوجة مزارع ، مهما تكن أنت ! »

فضحك ثانية وخرج من لدنها ٠ ثم تناول عشاء الأرز ولم يغتسل الا كارها قبل أن يأوي الى فراشه ٠ وضحك وهو يغتسل لأنه لا يغتسل من أجل أية امرأة ، فقد أصبح حرا طليقا !

ثم خيل اليه أنه غاب عن أرضه طويلا ، فان الارض كانت تتطلب الحرث والزرع ، فصار يكدح فيها كل يوم ، وانقلب الشحوب الذي أحدثه فيه الحب في الصيف ، سمرة داكنة من أشعة الشمس ، وكانت يداه قد علتهما طراوة في خمول الحب ، فعادتا جامدتين من الكد بالفأس ، وترك مقبضا المحراث أثرهما فيهما !

وصار اذا عاد الى بيته ظهرا أو مساء يأكل بشهية من الطعام الذي أعدته أولان من الأرز والكرنب والفول وعيدان الثوم محشوة في الخبز ٠ واذا وضعت لوتس يدها على أنفها فرارا من رائحة الثوم التي تفوح منه ، كان يضحك ولا يبالي !٠

وعادت اليه صحته ، وصـار يذهب الى لوتس أحيانا ، لكنه سرعان ما يلتفت الى شؤونه الاخرى !

وهطلت الأمطار في موسمها وجادت المحاصـيل وباعها وانج لنج في أسواق المدينة بأسعار عالية ، لأنه أرجأ البيع حتى ارتفع السعر ، وفي هذه المرة أخذ ابنه الأكبر معه الى المدينة ، وشعر بالفخر اذا أخذ هذا الابن يقرأ له ويكتب له ما يتطلب القراءة أو الكتابة ٠ وقد وقع على العقود باسم أبيه !

ولما تم ذلك وعادا الى القرية معا ، خطر لوانج لنج أن ابنه قد بلغ مبلغ الشباب فيجب أن يختار له زوجة ، حتى لا يفعل كما فعل هو في شبابه ، ولا يذهب الى بيت كبير ليأخذ جارية فاضت عن الحاجة !

وهكذا آلى وانج لنج على نفسه أن يبحث لولده الأكبر عن زوجة ، ولم يكن ذلك بالمهمة اليسيرة لأنه أراد ألا يصـاهر أسرة فقيرة عادية ٠ وقد

تحدث بذلك ذات ليلة الى تشنج بعد أن صارا وحدهما بالقاعة الوسطى من البيت ، وبحثا معا ما يجب شراؤه لزراعة الربيع . ولم يتوقع كبير عون من تشنج فى هذه المسألة لانه رجل بسيط ، ولكنه كان يعلم أن له أمانة الكلب ووفاءه ، وقد سره أن يصارح أحـــدا بما يجول فى خاطره . وكان تشنج واقفا بانكسار أمام المائدة فى حين جلس وانج لنج على مقعد ، وقد دعاه وانج لنج الى الجلوس معه ولكنه اعتذر تأدبا،ولما سمع منه تلك الرغبة تنهد وقال : « لو كانت ابنتى هنا لقدمتها زوجة لولدك بغير مقابل لأبرهن على عرفانى بصنيعك . ولكنى لا أدرى أين هى ولعلها قد ماتت ! »

فشكره وانج لنج ولم يرض أن يصارحه بأن ولده يجب أن يتزوج فتاة أعلى مقاما بمراحل من ابنته !.. لكنه منذ ذلك الحين كتم رغبته ، وجعل يبحث خفية عن فتاة من أسرة غنية من المدينة تصلح زوجة لابنـــه . وقد حرص على ألا يخبر زوجة عمه بذلك ، فانها قد تفيـد اذا طلب الانســان لنفسه امرأة من مشرب شاى،أما البحث عن زوجة من أسرة طيبة فان غيرها أولى بهذه المهمة !.

ولما جاء فصل الربيع تطور الولد الأكبر لوانج لنج تطورا مفاجئا ولم يعد طفلا وصار تغلبه الكآبة ، ويصـدف عن الأكل ، ويكره الدراســة والكتب ، ففزع وانج لنج لهذا التحول وجعل يحثه على الأكل بغير جدوى، ثم علم من ولده الأصغر أن أخاه الأكبر يغيب عن المدرسة أحيانا ، وهنا تناول قصبة وانهال بها عليه وهو يقول : « أأنفق الفضة على دراستك بغير جدوى ؟ »

ولما سمعت أولان صوت الضرب جرت من المطبخ ووقفت بين زوجهـــا وولدها حتى سقطت عليها ضربات عديدة مع حرص وانج لنج على تفاديها. والعجيب أن الفتى تحمل الضرب بغير شكوى أو صياح أو بكاء . وقد فكر وانج لنج فى هذا ليلا واذا بأولان تجىء اليـــه وتقول : « لا فائدة من أن تضرب الولد كما فعلت اليوم . لقد رأيت مثل هذه الحالة تعترى الأسياد الصغار فى البيت الكبير فكانوا تتولاهم الكآبة ويكرهون الأكل ، وعندئذ كان السيد الكبير يجد لهم جوارى اذا لم يجدوهن لأنفسهم »

فجادلها وانج لنج قائلا : « لا حاجة بنا الى تقليد القوم فى ذلك البيت الكبير !.. اننى حين كنت فى مثل سن ولدنا ما كنت مكتئبا »

فقالت له أولان : « انى لم أشهد تلك الحالة الا على الأسياد الصغار. أما أنت فاذكر أنك كنت مشغولا بالكد فى الارض ، فى حين أن ولدنا لا يكاد يشغله شىء ! »

ففكر وانج لنج هنيهة ورجع به الفكر الى ذكريات شبابه ثم قال : « انى لن أشترى له جارية كما كانوا يفعلون فى البيت الكبير ولكنى سأخطب له فتاة وسأزوجه فى أقرب وقت ! »

حملة الجراد

عاد الولد الأكبر لوانج لنج الى البيت ذات صباح ، محمر الوجـه من كثرة الخمر التى احتساها ، وكان يترنح فى مشيته . وسـمعه وانج لنج يتعثر فى فناء الدار فجرى ليرى ما هنالك ، فلما وجد ابنه على تلك الحال لانه لم يكن معتادا الا على الخمر الخفيفة التى تصنع من أرز يتخمر ، ثم رآه يسقط عـلى الارض ، ارتاع ونادى أولان فرفعاه معا ، وغسلت أمه وجهه وثيابه ، ثم أرقدته على السرير فى غرفتها ، وبعدئذ استغرق فى نوم عميق!

وذهب وانج لنج الى الغرفة التى ينام فيها ولداه فوجد ابنه الاصـــغر يتثاءب ويضع كتبه فى قطعة مربعة من القماش ليذهب بها الى المدرسة ، فسأله : « ألم ينم أخوك الأكبر بجانبك فى السرير ليلة أمس ؟ »

فأجاب الغلام بتردد : «كلا » . وبان عليه الخوف فصاح به أبوه قائلا : « أين كان اذن ؟ » . وأخذ يهزه بعنف ! ولما لم يرد أن يجيب أمسكه من عنقه وهم بضربه فخاف الغلام وقال : « لقد أوصانى أخى الاكبر بألا أخبرك والا وخـــزنى بابرة محماة ، ووعدنى بأن يعطينى دراهم اذا كتمت عنك السر ! »

فاشتد بأبيه الغضب وقال : « تكتم اى سر ؟ »

فنظر الغلام حوله خائفا ثم قال : « لقد ذهب ثلاث ليال متوالية ولكنى لا أدرى ماذا كان يفعل سوى أنه ذهب مع ابن عمك ! »

فتركه وانج لنج وذهب توا الى الغرف التى يسكنها عمه وأسرته،وهناك وجد ابن عمه أحمر الوجه من أثر الخمر ولكن أثبت قدما من ولده لانه كان أكبر منه وقد اعتاد مباذل الشباب . فصاح به وانج لنج : « الى أين قدت ولدى ؟ »

فقال الشاب ساخرا : « ان ابنك لا يحتاج الى أحد يقوده فهو يستطيع أن يسير وحده ! »

ولكن وانج لنج كرر السؤال وبوده لو يقتل ابن عمه هذا الذى أفسـد ولده !. وارتاع الشاب من منظره فقال أخيرا : « لقد كان عند البغى التى تسكن ساحة البيت الكبير ! »

ولم يرتح بال وانج لنج الا بعد أن ذهب بنفسه الى تلك البغى وأمرها

أن تطرد ابنه الأكبر ان هو عاد اليها . ونقدها مبلغا من المال

ثم رجع الى البيت ونادى كوكو توا وكلفها أن تذهب الى تاجر القمح بالمدينة لتخطب ابنته لولده . ثم دخل عند ولده وكان لا يزال نائما ورآه جميلا طاهرا وعندئذ فكر في تلك البغي العجوز المطلية الوجه فاشمأزت نفسه وشعر بغثيان ، ثم جاءت أولان فجلست الى جانب السرير وأخذت تمسح العرق الذي يتصبب من جبين ولدها

ثم قام وانج لنج وذهب غاضبا الى غرفة عمه وقد نسي قرابته منه وانما تذكر انه أبو الشاب الذي دل ولده على طريق الفساد فصاح به : « لقد آويت في بيتي ثعابين ما لبثت حتى لدغتني ! »

وكان عمه جالسا الى مائدة يتناول طعام الفطور فقال له ببلادة : « كيف ذلك ؟ »

فقص عليه وانج لنج ما كان من ولده،ولم يزد عمه على أن قال : «وكيف تستطيع أن تمنع فتى من أن يصبح رجلا ؟ » وضحك ضحكة مثيرة أخرجت وانج لنج عن طوره فصاح به قائلا : «اخرج من بيتي أنت وولدك وزوجتك !»

ولكن عمه لم يحرك ساكنا وقال له في برود : « أخرجنا من بيتك اذا استطعت ! »

وفتح رداءه فرأى وانج لنج في بطانته لحية زائفة حمراء وقطعة من قماش أحمر ، فتولاه خوف وذهول ، وذهب عنه غضبه واعترته رعشة ، فان تلك اللحية الحمراء وتلك القطعة من القماش الاحمر ، هما الشارة التي اتخذتها عصابة من اللصوص كانت تعيث فسادا في المناطق الغربية الشمالية ، وكثيرا ما حرقت بيوتا وخطفت نساء واعملت السلب والنهب وقيدت المزارعين بالحبال على أبواب منازلهم ، فاذا أصبح الصباح وجدوا وقد فقدوا عقولهم من الرعب ان لم يموتوا بنار الحريق !

ومنذ ذلك لم يطلب الى عمه مغادرة المنزل ... بل ذهب الى ابن عمه واعطاه بعض نقود فضية لينفقها في لهوه !

غير أنه صار يرقب ولده عن كثب وصار لا يسمح له أن يغادر البيت بعد غروب الشمس ، وهذا الذي أغضب الفتى فصار يضرب اخوته الصغار لغير سبب !

ثم صار يذهب الى حقوله كل يوم ، فاحس البرء من سقمه والنجاة من همومه ، فقد فعلت الارض الطيبة فعلها وشفته أشعة الشمس وأحاطته رياح الصيف الدافئة بالأمن والسلام

وكأنما أراد القدر أن يشغله عن التفكير في همومه ، فبعث من الجنوب سحابة صارت تقترب رويدا رويدا ، وراقبها مشله أهالي القرية فتولاهم

الفزع ، حتى هبت ريح فطوحت بشيء تحت أقدامهم ، ولما التقطوه وجدوه جرادة ميتة سقطت لخفتها من بين أسراب الجراد الطائر . وعندئذ نسي وانج لنج كل ما كان يشغل باله ، نسي زوجتيه وابنه وعمه وأسرته ، وهرع مع بعض أهالي القرية يكافحون هذا العدو المغير . ولكن بعضهم الآخر قنعوا بهز رؤوسهم مستسلمين قائلين : « لا جدوى من مكافحة الجراد فان الله يريد لنا أن نجوع ! »

على أن وانج لنج لقي جزاء كده ، فان أحسن حقوله بقيت بمنجاة من فتك الجراد ، حتى اذا حلق من جديد وارتفع في الجو كان لدى وانج لنج ما يحصده من زرعه ، وقد أنقذت زراعة الأرز ، ومن ثم كان راضيا . وبعدئذ أخذ كثير من الاهالي يشوون الجراد ويأكلونه ولكن وانج لنج لم يشاركهم في ذلك ، ومع هذا لم يعترض على أولان اذ أخذت تقلي الجراد في الزيت وصار العمال يأكلونه ، والاطفال يتذوقونه وهم خائفون من عيونه الكبيرة ...

على أن حملة الجراد هذه افادت وانج لنج فقد مكث سبعة أيام وهو لا يفكر الا في أرضه وزراعته !

▭

وفي ذات يوم ، بعد أن اطمأن وانج لنج الى استقرار الأمن والسلام في بيته ، جاءه ولده الأكبر على أثر عودته من الحقول ظهرا ، وقال له : « اذا أردت مني أن أصير عالما فان ذلك المعلم الشيخ لم يبق عنده ما يعلمنيه ! »

وكان وانج لنج في تلك اللحظة قد غمس قوطة في ماء ساخن بالقدر وامسك بها وهي تبعث بخارا أمام وجهه فقال له : « وماذا تريد اذن ؟ »

فتردد الفتى لحظة ثم قال : « أريد أن أسافر الى مدينة بالجنوب وأدخل مدرسة كبيرة أدرس فيها لأكون عالما »

فمسح وانج لنج وجهه بالفوطة الساخنة وقال بحدة من أثر التعب الذي يحسه من العمل بالحقول : « اني أقول لك انك لن تذهب فان العلم متوافر في هذه الجهات »

فرد الفتى غاضبا : « اذن فاعلم أني سأذهب الى الجنوب لاني لا أرضى أن أمكث في هذا البيت الاحمق الذي أراقب فيه كأني طفل ، وفي تلك البلدة الصغيرة التي لا تمتاز على قريتنا : سأذهب وأتعلم وأرى جهات أخرى ! »

فنظر وانج لنج الى ولده فرآه شاحب الوجه قد ارتدى جلبابا فضي اللون من الكتان ، رفيعا رطبا لأجل الصيف ، وقد علت شفتيه شعرات سوداء هي مقدمة شارب صغير ، وكانت بشرته ناعمة ويداه رقيقتين كيدي امرأة .

ثم نظر وانج لنج الى نفسه فرأى ثيابه ملطخة بالطين من أثر الكد بالحقول وكان يرتدى سراويل قطنية زرقاء ونصف جسمه الأعلى مجرد من الثياب، فلو رآهما أحد على هذا الشكل لحسبه خادما وحسب ابنه سيدا ، وأغرته هذه الفكرة بازدراء مظهر ولده فقال له : « الآن اذهب الى الحقول وضع قليلا من الطين على جسمك حتى لا يحسبك الناس امرأة ، واشتغل قليلا فى مقابل الأرز الذى تأكله ! »

ونسى وانج لنج أنه كان فخورا بان ابنه كان متعلما يعرف القراءة والكتابة، واندفع الى الخارج يضرب الارض بقدميه الحافيتين ويبصق باشمئزاز . وظل الفتى واقفا ينظر الى أبيه فى بغض ولكن وانج لنج لم يلتفت وراءه !

ولما ذهب وانج لنج فى تلك الليلة الى الغرف الداخلية وجلس الى جانب لوتس وهى راقدة على السرير وكوكو حانية عليها تروح عنها بمروحة ، قالت له لوتس فى غير اكتراث : « ان ابنك الأكبر يشكو ويريد الذهاب الى الجنوب ! »

فسألها : « ما شانك بذلك ؟ . انى لا أحب أن يأتى الى هذه الغرف بعد ان كبر ! »

فأسرعت لوتس تقول : « كلا ! . كلا ! . ان كوكو هى التى قالت لى ذلك ! »

وقالت كوكو : « انه فتى وسيم وقد كبر على التبطل هنا ! »

فتذكر وانج لنج ما كان من كدره نحوه وقال : « كلا ! . انه لن يذهب الى الجنوب ! »

ورأت لوتس أنه غاضب فصرفت كوكو .. وفى الايام التالية لم يذكر أحد كلمة عن هذه المسألة !

ثم بدا على الفتى أنه راض عن بقائه وكف عن الذهاب الى المدرسة بالبلدة وسكت وانج لنج على ذلك لأن ابنه كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وصار اذا عاد أبوه الى البيت يأوى الى غرفته ويقرأ فى الكتب ، وكان وانج لنج راضيا عن ذلك يقول لنفسه : « لقد كانت نزعة من نزعات الشباب ، وهو لا يعرف ماذا يريد ، ولم يبق الا ثلاث سنوات ويتزوج ، ولعلى بمزيد من الفضة أستطيع أن أجعلها سنتين أو سنة واحدة ! »

ثم نسى وانج لنج ولده لأن المحاصيل كانت جيدة برغم ما التهمه الجراد، فعوضت ما كان قد أنفقه على لوتس . وعاد يقدر قيمة الذهب والفضة ، وعجب كيف كان ينفق بلا حساب على امرأة ؟! ومع هذا كانت أحيانا تستهوى قلبه وان لم يجن بحبها كذى قبل ، وان يكن قد أدرك صدق ما قالته له زوجة عمه فى البداية ، من أنها أكبر سنا من مظهرها . ولم تكن تفكر قط فى أن تحمل وتلد ، غير أنه لم يبال ذلك لأن له أبناء وبنات،

وكان لا يريد منها الا متعته . وكانت قد سمنت وامتلأ بدنها النحيل وزادت بذلك جمالا على جمال !

وكان جديرا بوانج لنج ان يهنأ بحياته التى لا ينغصها هم ، لولا انه ذات ليلة كان جالسا وحده وهو يحسب على أصابعه ما يبيعه من حاصلات الحنطة والأرز ، واذا بأولان تأتى اليه فى هدوء ، وكانت بمضى السنين قد غارت عيناها وبرزت عظام وجهها ، وقالت له بايجاز : « أحس المآ كالنار فى أحشائى ! »

وكان بطنها قد كبر دون حمل ، ولكنها كانت لا تزال تستيقظ عند الفجر وتؤدى ما ألفته من عمل ، وكان وانج لنج لا ينظر اليها الا كما ينظر الى مائدة أو كرسى فى البيت أو شجرة فى فنائه ، دون أن يمعن النظر كما يفعل اذا أبصر ثورا يخفض رأسه أو خنزيرا يعزف عن الأكل !

وظلت مع هذا تؤدى عملها صامتة ولا تكلم سوى زوجة عم قرينها عند الضرورة ، ولا تكلم كوكو بأى حال ، ولم تذهب قط الى الغرف الداخلية ، واذا خرجت لوتس من جناحها لتتريض قليلا ، أوت أولان توا الى غرفتها ولم تخرج منها الا اذا انبأها أحد بأنها ذهبت !

ولم يخطر لوانج لنج أبدا أن يعرض عليها استئجار خادمة لتعاونها او تحمل عنها عبء العمل مع أنه استأجر لنفسه عمالا فى الحقول !

عرس ومأتم !

ولم يجد وانج لنج بدا من الموافقة على سفر ابنه الاكبر الى الجنوب ، وشعر بعد ذلك بأن البيت خلا من الهم ، وحسب أن من الخير للفتى نفسه انه سافر . ثم اخذ يعنى بأولاده الآخرين اذ كان دائما مشغولا عنهم بأعمال الزرع والحصاد .. وقد عزم ان يخرج ولده الثانى من المدرسة ليتدرب على اعمال التجارة حتى لا يتملكه طيش الشباب كاخيه !

وكان هذا الابن الثانى يختلف عن أخيه الاكبر فى امور كثيرة ، فقد كان قصير القامة صغير القد أصفر البشرة ، وقد ورث عن جده الميل الى السخرية اللاذعة ، وقد امل وانج لنج منه ان يصبح تاجرا بارعا . ورأى انه من الخير له ان يكون له ابن فى المتاجر التى يبيع فيها حاصلاته فيجعل الموازنة ترجح كفتها قليلا لصالحه ... ومن ثم قال يوما لكوكو : « اذهبى الى والد خطيبة ابنى الاكبر وقولى له ان عندى ما اقوله له . وانى اود ان اتناول معه كاس نبيذ ! »

فذهبت كوكو الى التاجر وجاءت تقول : « انه يسره ان يراك ظهر اليوم نفسه فى بيت احدكما ! »

غير ان وانج لنج لم يرد ان يأتى التاجر الى بيته حتى لا يضطر الى الاستعداد لمجيئه . ولذا اغتسل وارتدى رداءه الحريرى وذهب الى شارع الكبارى حيث يقع بيت ليو التاجر . وفتحت له الباب امراة خادمة وكانت تعرف انه والد خطيب السيدة الصغيرة . ولما صار وحده فى غرفة الجلوس اخذ ينظر حوله ويفحص الستائر المعلقة بالباب والخشب الذى صنعت منه المنضدة ، وقد سره انها كلها تدل على يسر ورخاء وان لم تنبىء عن غنى فادح . وهو فى الحق لم يكن يريد لابنه الاكبر زوجة من اسرة كبيرة الثروة فتتكبر عليه وتتمرد وتطلب لنفسها غالى الثياب !

ثم سمع وقع خطى ثقيلة تقترب فقام واستقبل التاجر ليو وقد انحنى كل منهما للآخر وهو يسترق النظر اليه وقد سرى بينهما ميل متبادل . ثم جلسا وشربا نبيذا ساخنا اتت به الخادمة واخذا يتكلمان ببطء عن امور شتى ، وعن اثمان الحاصلات وما يكون عليه سعر الأرز هذا العام . واخيرا قال وانج لنج : « لقد جئت لامر ، واذا لم يصادف منك قبولا فلندعه ولنتكلم فى شئون اخرى . ولكن اذا كنت فى حاجة الى خادم لك فى متجرك الكبير

فان عندى ولدى الثانى وهو ذكى ذرب اللسان ، أما اذا كنت فى غير حاجة اليه فلنتكلم فى شئون أخرى »

فقال ليو : « انى فى حاجة شديدة الى مثل هذا الشاب اذا كان يعرف القراءة والكتابة »

فقال وانج لنج بفخر : « ان ولدى الاثنين متعلمان ! »

فقال ليو : « حسنا !. اذن دعه يأت الى حين يشاء ، وسيكون راتبه فى البداية طعامه فقط حتى يتعلم العمل ، وبعد سنة اذا اثبت كفاءة فسأعطيه قطعة فضية فى نهاية كل شهر قمرى ، وبعد ثلاث سنوات يرتفع راتبه الى ثلاث قطع ذهبية وعندئذ لا يكون صبيا بل يرتفع فى سلم التجارة كما تؤهله له كفايته . والى جانب هذا الراتب يمكنه أن يكسب ما يستطيع من هذا المشترى او ذاك البائع ، ولن اعترض على ذلك . ولما كانت أسرتانا مرتبطتين برابطة المصاهرة فانى لا أطلب منه ضمانة ! » . وعندئذ قام وانج لنج شاكرا

غير أنه فى تلك الليلة نام قلقا بجانب لوتس واستيقظ فاخذ يفكر فى مجرى حياته وكيف كانت أولان أول امراة عرفها وكيف كانت له الخادمة الأمينة

وفى الأيام التالية بعث ولده الثانى الى متجر ليو بالبلدة ، ووقع على وثائق خطبة ابنه الثانية لابن ليو ، واتفق معه على الصداق وهدايا الثياب والحلى وحدد يوم الزفاف . وعندئذ ارتاح باله وقال لنفسه : « الآن قد دبرت مستقبل أبنائى ، أما ابنتى البلهاء المسكينة فلا تستطيع الا أن تجلس فى الشمس . واما ابنى الأصغر فساحتفظ به للعمل فى الزراعة ولن يذهب الى المدرسة ما دام لى ولدان يعرفان القراءة والكتابة »

وشعر بالفخر لأن احد أولاده سيكون عالما والثانى تاجرا والثالث مزارعا !

وهكذا اطمأن باله من ناحية اولاده ولكن فكره كان يتجه بالرغم منه الى زوجته التى ولدتهم له .. ولأول مرة منذ زواجه بها شغل فكره بها ، وصار لا ينظر اليها الآن نظرة الرجل الى امراة ولكن نظرة الدى يؤنبه ضميره بسببها ، وكانت قد نحل جسمها وزادت بشرتها صفرة . وكان يسمعها فى الصباح احيانا وهى تناوه حين تقوم من فراشها وحين تشعل الفرن . فاذا سألها ما بها سكتت ولم تفصح . وصار من تأنيب ضميره ينظر اليها كلما جاءته بالطعام او كلما ابصرها تروح وتجىء بالمنزل . وفى أحد الايام انحنت لتكنس الارض بعد أن تناولوا الطعام فرأى وجهها ينقلب شاحبا من أثر الم تحسه وفتحت فاها واخذت تلهث صامتة ، ووضعت يدها على بطنها فسألها بحدة : « ماذا بك ؟ » . فأجابت : « انه الألم القديم الذى فى احشائى ! »

فقال وانج لنج لابنته الصغرى : « خذى المكنسة من امك فانها مريضة ! »

ثم قال لأولان بعطف لم تعهده منه منذ سنين : « ارقدى فى سريرك وستأتيك البنت بماء ساخن ! »

فأطاعت وذهبت الى سريرها صامتة . ثم جلس يستمع الى أنينها حتى لم يعد يحتمل سماعه فقام وقصد الى المدينة ليحضر لها طبيبا داه عليه كاتب فى سوق الحبوب التى يشتغل بها ولده الثانى !

وكان الطبيب جالسا متبطلا يحتسى كوب شاى ، وهو شيخ ذو لحية طويلة وله منظار كبير فوق أنفه ، ويرتدى جلبابا قذرا أسمر يغطى كماه يديه ، ولما ذكر له وانج لنج أعراض المرض الذى تعانيه زوجته فتح درجا وأخرج منه قدرا من الأعشاب ولفها فى قطعة قماش وقال له : « الآن اذهب معك ! »

ولما وصلا الى البيت كانت أولان قد غلبها النعاس ، وكان العرق يسيل على جبينها وعلى شفتها العليا . ومد الطبيب يده اليابسة الصفراء التى تشبه يد قرد ، وجس نبضها ثم هز رأسه وبان عليه الجد وقال : « تمدد فى الطحال وتعب فى الكبد ، وورم فى الرحم وتحلل فى المعدة . والقلب قليل الحركة ولا شك أن به ديدانا ! »

فكاد قلب وانج لنج يقف عن الحركة حين سمع ذلك وصاح به غاضبا : « اذن عالجها ! »

وهنا فتحت أولان عينيها ونظرت اليهما وهى لا تكاد تدرى شيئا من شدة الألم . ثم استطرد الطبيب الشيخ قائلا : « انها حالة صعبة . واذا أردت منى أن أعالجها من غير أن أضمن الشفاء فان أجر العلاج يكون عشر قطع فضية ، وسأصف لها فى هذه الحالة أعشابا وقلب نمر مجففا وسن كلب ، تغلى كلها معا وتشرب المنقوع . ولكن اذا أردت لها شفاء تاما مضمونا فانى اتناول منك خمسمائة قطعة فضية ! »

ولما سمعت أولان هذا الرقم الضخم تنبهت حواسها وقالت : « كلا . ان حياتى لا تساوى هذا القدر ! اننا يمكننا أن نشترى بهذا المبلغ قطعة أرض جيدة ! »

فاشتد بوانج لنج تأنيب الضمير وقال بحدة : « انى لا أريد وفيات فى هذا البيت ! » وقال للطبيب : « سأدفع لك خمسمائة قطعة فضية ! »

وعندئذ لمعت عينا الطبيب الشيخ بالطمع ، ولكنه خاف عقوبة القانون اذا لم يف بعهده ومات المرأة ولذا قال آسفا : « انى اذ نظرت الى بياض عينيها أرانى قد أخطأت . لا بد لى من خمسة آلاف قطعة فضية لأضمن لك شفاءها التام ! »

فنظر وانج لنج الى الطبيب فى صمت وأدرك ما يقصده . انه لا يملك مثل هذا القدر من الفضة الا اذا باع أراضيه ، ولكنه أيقن انه حتى فى هذه

الحالة لا جدوى من العلاج ، فكأن الطبيب انما قال : « ان هذه المرأة ستموت ! »

وخرج مع الطبيب ودفع له عشر قطع فضية . ولما ذهب دخل وانج لنج المطبخ المظلم الذى قضت أولان معظم أوقاتها فيه ، وكان الآن خاليا فلا يراه أحد هناك ، ثم أدار وجهه نحو الحائط المسود من الدخان ، وأخذ يبكى !

وكانت أولان تموت موتا بطيئا !. وقد ظلت شهور الشتاء على سريرها وهى تجود بروحها وأدرك وانج لنج وأولاده أنها كانت عماد البيت وأصل راحتهم جميعا . وبدا كأن أحدا لا يعرف الآن كيف يشعل وقود الفرن وكيف يطهو الطعام وأى نوع من الزيت يليق لهذا الصنف أو ذاك . وصار الفتيات يمكث تحت المائدة من غير أن يزيحه أحد . وبذل الغلام الصغير جهده ليملأ فراغ أمه فى خدمة جده ، وكان هذا لا يفهم لماذا صارت أولان لا تحضر له الماء الساخن ولا تساعده على الرقاد كذى قبل ، وساءه ذلك ، حتى أخذه وانج لنج يوما الى غرفة أولان وأراه اياها وهى راقدة على السرير فأدرك أنها مريضة . أما الفتاة البلهاء فانها وحدها لم تفهم شيئا ، وكانت أمها هى التى تطعمها وتجلسها فى الشمس نهارا وتقودها ليلا الى فراشها . فصار وانج لنج يحاول جهده أن يقوم بهذه المهام . وقد نسيها ليلة فباتت طول الليل فى البرد خارج الدار وأصبح وانج لنج يسب أولاده ولكنه ذكر انهم لا يزالون أطفالا صغارا

وفى خلال الأشهر التى مرضت فيها أولان كان وانج لنج لا يكترث لأرضه وزراعته ، وقد عهد الى تشنج بكل ما كان يعمله ، وصار فى الليل وفى الصباح يذهب الى باب غرفة أولان ويسأل همسا عن حالها . وكثيرا ما كان يجلس الى سريرها فاذا وجد الجو باردا أشعل الفحم فى مدفأة من الخزف ، وكانت تحتج على ذلك خشية التبذير

وفى أحد الأيام نفد صبره وقال : « لست أحتمل ذلك ! سأبيع كل أرضى اذا كان فى ذلك شفاؤك ! »

فابتسمت له وقالت بصوت كالهمس : « كلا !. لن أدعك تفعل ذلك ، لأنى لا بد لى أن أموت على أى حال . ولكن الأرض ستبقى لك بعدى ! »

ولكنه لم يقدر أن يسمعها تذكر موتها ، فكان يقوم توا كلما ذكرته . ومع هذا كان موقنا أنها ستموت ، فاقتضاه الواجب أن يذهب الى صانع توابيت ونظر الى ما عنده منها واختار تابوتا أسود من الخشب الثقيل الجامد . وقال له النجار : « اذا اشتريت اثنين معا فان ذلك يكون أرخص بنسبة الثلث مما لو اشتريت اثنين مفردين . ولماذا لا تشترى تابوتا لنفسك أيضا فتطمئن ؟ ! »

فقال له : « كلا ! . . سيقوم أولادى لى بهذه المهمة حين أموت ! »

ولكنه تذكر أن أباه الشيخ قد أصبح على حافة القبر فرضى أن يشترى تابوتين معا ! ولما عاد الى البيت أنبأ أولان بما فعله فسرت ، وبعد ذلك صار يمكث عندها عدة ساعات كل يوم من غير أن يتبادلا سوى كلمات قلائل ، وأحيانا كانت تهذى وتتحدث عن أيام طفولتها ، وسمعها تقول فى هذياتها : « سأحضر اللحم الى الباب ولن أدخل عند السيد الكبير لأنى قبيحة الوجه »

وكثيرا ما كانت تصيح : « لا تضربنى .. لن آكل من الطبق ثانية » . وأحيانا كانت تقول : « أبى ... أمى ... أبى ... أمى » . وقالت مرة : « انى اعرف انى قبيحة الوجه ولا يمكن أن يحبنى أحد ! »

ولما قالت هذه الجملة الأخيرة فى هذياتها تناول وانج لنج يدها فى يده ، وقد آلمه أن ما تقوله حق ، وخجل من نفسه اذ لم يشعر نحوها حتى فى هذه اللحظة بالحنان الذى تثيره لوتس فى نفسه . وهذا الذى جعله يزيد شفقة عليها فصار يشترى لها طعاما خاصا وحساء غاليا وقلوب الكرنب .

وفى تلك الأيام لم يكن يجد متعته عند لوتس لأنه كلما ذهب اليها بغية التسلية كان يفكر فى أولان حتى اذا ضمها الى صدره كان لا يلبث قليلا حتى يتركها لتفكيره فى زوجته الأخرى المريضة !

وأحيانا كانت أولان تفيق من ذهولها وتتنبه لما حولها ، وقد طلبت كوكو مرة فدهش وانج لنج وناداها اليها ، ولما جاءت استندت أولان الى ذراعها بجهد وهى ترتعش وقالت لكوكو : « لقد عشت أنت فى جناح السيد الكبير وكانوا يعدونك حسناء . ولكنى أنا كنت زوجة لرجل وقد ولدت له أولادا ، وأنت لا تزالين جارية رقيقة ! »

ولما ارادت كوكو أن ترد عليها اخرجها وانج لنج قائلا لها همسا : « انها لا تدرى ما تقوله ! » حتى اذا عاد الى أولان وجدها لا تزال معتمدة على ذراعيها وقالت له : « حين أموت لا أريد أن تأتى هذه المرأة أو سيدتها الى غرفتى وتلمسا متاعى . واذا فعلتا فانى سأبعث روحى بلعنة الى هنا ! » . ثم عادت الى النوم !

وفى ذات يوم قبل عيد رأس السنة ، تحسنت حالتها فجأة كما تشتعل الشمعة ساطعة قبل انتهائها ، وجلست فى سريرها وطلبت شايا تشربه ، ولما جاء وانج لنج قالت له « ان عيد رأس السنة قد اقترب ولم يعد كعك ولا لحم ، وأنا لا أرضى أن تدخل تلك الجارية مطبخى ، ولذا أريد منك أن تبعث فى طلب خطيبة ابنى الأكبر . اننى لم أرها بعد ، وحين تأتى سأنبئها بما ينبغى لها عمله ! »

وقد سر وانج لنج لتحسن صحتها ، وبعث كوكو الى التاجر ليو ، ولما علم هذا بمرض أولان وأنها قد لا تعيش طويلا رضى أن تذهب بنته اليها ، وكانت فى السادسة عشرة من عمرها فهى أكبر من كثيرات تزوجن وذهبن الى بيوت أزواجهن !

وجاءت الفتاة محمولة على كرسى ومعها أمها وخادمة ، ثم عادت أمها بعد أن سلمت ابنتها الى أولان ، أما الخادمة فبقيت . وانتقل الأطفال من الغرفة التى كانوا ينامون بها وأفردت هذه الغرفة للعروس . ولم يكلمها وانج لنج لأن ذلك لا يجوز ولكنه كان يومىء برأسه كلما اتحنت له ، وقد سر منها لأنها كانت تعرف واجبها وكانت تتنقل فى البيت فى هدوء مسبلة أجفانها . وكانت فتاة طيبة ، ولها نصيب من الجمال ، ولكنها لم تكن بارعة الحسن حتى يركبها الغرور

وكان مسلكها سليما ، وقد أخذت تعنى بأولان وتخدمها ، وخفف ذلك من الم وانج لنج اذ صار فى البيت الآن امرأة تعنى بزوجته المريضة . ومكثت أولان بادية الرضا ثلاثة أيام ، ثم خطر لها خاطر ، فقالت لوانج لنج حين جا اليها صباحا ليسأل كيف قضت الليلة :

ـ هناك شىء أريده قبل أن أموت !

فقال لها : « لا تتحدثى عن الموت فان ذلك يكدرنى ! »

فابتسمت ثم قالت : « لا بد لى أن أموت لأنى احس دنو منيتى . ولكنى لن أموت حتى يعود ابنى الأكبر الى البيت وتحتفل بزواجه بهذه الفتاة الطيبة التى تخدمنى . وعندئذ أموت راضية مطمئنة ! »

ولم يتوان وانج لنج عن بعث رسول الى ولده فى الجنوب ليخبره بأن امه مريضة فى خطر الموت وأنه يجب أن يعود فورا . وكلف ذلك الرسول أيضا أن ينبىء ولده بأنه سيزف الى عروسه فى اليوم الثالث لعودته وان أباه قد أعد وليمة العرس ودعا الضيوف لذلك الموعد !

وبعدئذ ذهب وانج لنج الى القرية ودعا رجالا ونساء ، ثم ذهب الى المدينة ودعا كل من يعرفهم وطلب الى عمه أن يدعو كذلك أصدقاءه وأصدقاء ولده . وما فعل ذلك الا لأنه لم ينس قط علاقة عمه بعصابة اللصوص ذوى اللحى الحمراء ، وكان يجامله منذ علم ذلك !

وجاء الابن الأكبر فى الليلة السابقة ليوم زفافه بعد أن غاب أكثر من سنتين ، وما أن رآه وانج لنج حتى نسى ما سبب له من كدر ، وكان قد أصبح شابا طويل القامة ربعة الجسم وسيم الوجه ، له شعر أسود لامع ، وكان يرتدى جلبابا طويلا من الحرير الأحمر الداكن وسترة سوداء من المخمل بغير أكمام ، وبعد أن حيى والده قاده هذا الى سرير أمه فجرى الدمع على خديه حين رآها مريضة ولكنه قال لها كلاما لطيفا ليبعث فى نفسها الأمل والعزاء !

وبديهى أنه ما كان يجوز له أن يرى عروسه قبل الزفاف ، ولذا أخذتها لوتس عندها ، وتعاونت مع كوكو وزوجة العم على تزيينها استعدادا للزواج ، فجعلتها تغتسل صباحا وربطن قدميها بقماش أبيض جديد تحت جواربها

الجديدة ، ودهنت لوتس جسمها بزيت لوز معطر ، ثم البسنها الثياب التى جاءت بها من بيتها ، وكانت ثوبا ابيض من الحرير عليه ازهار يلبس على اللحم ، ثم رداء من صوف الخراف الفاخر ، ثم ثوب الزفاف من (الساتان) الاحمر ، ومسحن جبينها بالدهن ونزعن فائض شعرها وحاجبيها ببراعة ، ثم وضعن مسحوقا ابيض وطلاء احمر على وجهها ووضعن على راسها تاج العروس وعلى وجهها قناعا ذا خرز والبسنها حذاء مزركشا فى قدميها الصغيرتين وصبغن اطراف اصابعها ، وعطرن كفيها ، وهكذا اعددنها للزفاف . وقد استسلمت الفتاة لكل ذلك فى خفر وحياء !

وبعد ذلك جاء ابن وانج لنج مرتديا تلك الثياب الجديدة التى جاء بها وقد حلق ذقنه من جديد ، ووراءه اخواه . ولما رآهم وانج لنج امتلا قلبه فخرا بهم . وكان جدهم لم يدر ما يدور حوله ولم يسمع الا قليلا مما قيل له ، والآن ادرك ما هنالك فاخذ يضحك بصوت كصوت الدجاج ويقول : « ها هنا زواج .. والزواج معناه اولاد واحفاد ! »

وكان وانج لنج يختلس النظر الى ولده ليرى هل نظر الى عروسه ، والواقع انه استرق اليها النظر من طرف عينيه ، وكان ذلك كافيا فقد بان عليه الرضا والسرور ، فقال وانج لنج لنفسه : « حسنا !. اذن قد اخترت له واحدة تسره ! »

ثم انحنى الشاب والفتاة معا للجد ثم للأب ، وبعدئذ ذهبا الى اولان حيث كانت راقدة فى سريرها ، وكانت قد طلبت أن تلبس ثوبها الأسود الممتاز فجلست فى سريرها حين جاءا اليها ، وانحنيا امامها فاشارت اليهما ليجلسا على السرير بجانبها ودعتهما لأن يشربا النبيذ ويأكلا ارز الزفاف امامها قائلة : « وسيكون هذا السرير لكما حين انتهى ! »

ولكنهما لم يجيبا بشىء على قولها هذا ، وجلس الاثنان بجانبها ساكتين وكل منهما فى خجل من صاحبه ، وجاءت زوجة العم بجسمها البادن ، وقدمت لهما كاسين من النبيذ الساخن ، فمزجا ما فى الكاسين معا ورمزا الى انهما اصبحا شخصا واحدا . ثم اكلا الأرز ومزجاه كذلك ، دلالة على ان حياتهما قد اصبحت واحدة وبهذا تمت مراسم الزواج . ثم انحنيا ثانية لاولان ولوانج لنج وخرجا سويا وانحنيا للمدعوين !

وبعد ذلك بدات الوليمة وكانت الغرف والفناءان مملوءة بالموائد ، وقد فاحت روائح الاطعمة وعلت اصوات الضحك ، لأن الضيوف كانوا كثيرين جاءوا من كل فج ، سواء من دعاهم وانج لنج او من جاءوا معهم من غير أن يراهم من قبل ، لأنه كان معروفا بغناه والطعام سيكون وافرا فى هذا الظرف . وكانت كوكو قد جاءت بطهاة من المدينة ليعدوا الطعام للوليمة ، وكانت الألوان مما لم يعتده احد فى مطبخ مزارع . ومن ثم اكل الجميع وشربوا وكانوا كلهم فى مرح وسرور

وقد طلبت أولان فتح الأبواب والستائر حتى تسمع الضجة والضحك وتشم رائحة الطعام . وكلما جاء اليها وانج لنج سالته : « هل لدى كل مدعو الكفاية من النبيذ ؟.. وهل الأرز الحلو وسط المائدة ساخن ؟. وهل وضعوا فيه المقادير الصحيحة من الدهن والسكر والفواكه ؟ »

ثم انتهت الوليمة وذهب المدعوون وارخى الليل سدوله وشمل البيت سكون . فعادت أولان الى ضعفها واعيائها ونادت اليها ولدها وعروسه وقالت : « الآن انا راضية قريرة العين فلا ابالى أن يوافينى اجلى . يا بنى اعتن بأبيك وجدك ، ويا بنيتى اعتنى بزوجك وحميك وجد زوجك والمسكينة البلهاء . وليس عليكما اى واجب نحو احد غير هؤلاء ! »

وكانت تعنى بهذه الجملة الأخيرة لوتس التى لم تكلمها قط . ثم بدا كانها غلبها التعاس ، وان كانا قد مكثا ينتظران لعلها تتكلم . وقد رفعت جسدها فعلا بعد برهة وتكلمت وكانها لا تحس وجود احد فقالت : « اذا كنت قبيحة الوجه فان لى مع هذا ولدا . واذا كنت جارية فان لى ولدا فى البيت »

ثم قالت : « كيف تستطيع تلك المراة أن تطعم زوجى كما كنت أطعمه ؟. ان الجمال وحده لا يلد اطفالا للرجل ! »

وعندئذ اشار اليهما وانج لنج ليخرجا وجلس الى جانبها وهى تستغرق فى النوم حينا وتصحو حينا آخر ، ثم حملقت فيه بعينيها وكان عليهما غشاوة لانها لم تعرفه وكانها تسائل نفسها من يكون . وبعدئذ سقط راسها بغتة على الوسادة ولفظت نفسها الاخير

ونادى وانج لنج زوجة عمه لتغسل جسد اولان استعدادا لدفنها ، ولما تم ذلك لم يقدر أن يدخل عندها ولكنه كلف زوجة عمه وولده وعروسه ان يرفعوا جثتها ويضعوها فى التابوت الكبير الذى كان قد اشتراه لها . وذهب الى المدينة ونادى رجالا ليختموا التابوت كما جرى العرف ، ثم ذهب الى عراف ليساله عن يوم ملائم لدفنها ، وقد دله العراف على يوم معين بعد ثلاثة اشهر وقال انه اول يوم ملائم ، فدفع وانج لنج اجره وذهب الى المعبد الذى بالمدينة وساوم رئيس الكهنة على اجر مكان يوضع فيه التابوت حتى يحين يوم الدفن ، لأنه لم يطق أن يبقى التابوت فى البيت !

وراعى وانج لنج مراسم الحداد بدقة ، فجعل كل من بالبيت يلبسون ثيابا بيضاء ، ويربط كل منهم حول رسغه قطعة قماش بيضاء ، وجعل النساء يربطن شعرهن بشريط ابيض !

وبعد ذلك انتقل وانج لنج بكل متاعه الى جناح لوتس وامر ابنه وعروسه أن يتخذا غرفة المتوفاة سكنا لهما !

وكانما لم يقنع الموت بضحية واحدة فمات الشيخ وهو نائم .. وقد وجدته ابنة وانج لنج الصغرى صباحا ولا حراك به ففزعت وجرت الى ابيها

ولما استوثق وانج لنج من موته غسله بنفسه ووضعه برفق فى التابوت الذى اشتراه له من قبل وختمه ليدفنه مع أولان فى يوم واحد ، فى قبر بعده بقطعة أرض يملكها فوق التل ، على أن يكون قبره هناك أيضا حين يوافيه اجله ! ووضع تابوت أبيه فوق دكتين بالغرفة الوسطى حتى يأتى اليوم المحدد للدفن !

ولما أهيل التراب فوق التابوتين وسوى سطح القبرين ، مكث وانج لنج وحده وأرسل الكرسى الذى جاء به الى المدينة خاليا . وعادت به الذكريات الى يوم أخذ اللؤلؤتين من أولان ، وهى تغسل الثياب على حافة البركة ، وود الآن لو لم يكن فعل ذلك . على أنه عزم الا يدع لوتس تضع هاتين اللؤلؤتين فى أذنيها بأى حال !

وفى أثناء عودته وحده ماشيا الى البيت قال لنفسه : « لقد دفن فى ذلك القبر الشطر الأفضل من جسمى . والآن ستختلف الحياة فى البيت أمام ناظرى »

ثم بكى قليلا وجفف دمعه بظهر يده كما يفعل الأطفال

أولان فى فراش المرض .. ووانج لنج يحنو عليها بعد أن استيقظ ضميره

[صور مترو جولدوين ماير]

الرجل الكبير !

فى خلال تلك المدة كلها كان وانج لنج لا يكاد يفكر فى زراعته اذ كان مشغولا بزواج ابنه وجنازة زوجته وابيه ، ولكن جاءه تشنج يوما ينذره بارتفاع الماء فى النهر ويتوقع فيضانا يغمر الحقول فخرج معه ورأى منسوب الماء مرتفعا فعلا فى الخندق الذى تقع عليه قطعة الارض الاولى التى اشتراها من آل هوانج ، وقد أصبح ذلك الخندق اشبه ببحيرة وامتلأت القنوات بالماء . ولما حل فصل الصيف تدفقت مياه الفيضان فجرفت فى طريقها كل السدود !

وكأنما لم يكف ماء الفيضان ، فصارت السماء تمطر مدرارا ، أياما متوالية !

وجلس وانج لنج بباب داره وكان الماء لم يقترب منها لارتفاعها فوق سفح تل ، ولكنه كان قد غمر ارضه ، وقد خاف وانج لنج ان يصل الماء الى القبور كذلك !

وفى تلك السنة لم يكن ثمة حصاد ، وعانى الناس الجوع من جديد ، وهاجر بعضهم الى الجنوب ولكن بعضهم مكثوا فى قراهم وانضموا الى عصابات اللصوص التى تعيث فى الارض فسادا ، حتى لقد صارت تعمل النهب والسلب فى المدن ، وآخرون عمدوا الى الاستجداء كما استجدى وانج لنج وذووه من قبل !

وقد أدرك وانج لنج ان المجاعة ستستمر لأنه لن يكون حصاد فى السنة المقبلة كذلك ، ففرض على نفسه الاقتصاد الشديد ، وتشاجر مع كوكو اذ أرادت ان تطهو كل يوم كذى قبل ، وقد سر اذ فصل الماء بينه وبين المدينة فلا يستطيع الذهاب اليها ، وبعد ذلك صار لا يسمح بشراء شيء او ببيع شيء الا ما يأذن هو فى شرائه او بيعه ، وصار تشنج يأتمر بأمره ولا يستمع الى كوكو برغم حدة لسانها !

وقد خزن وانج لنج كل ما بالبيت من مؤونة وصار يعطى زوجة ابنه بقدر ويعطى تشنج ما يلزمه وعماله ، وان كان آلمه ان يطعمهم دون ان يؤدوا عملا ، واخيرا لما هل الشتاء ببرده القارس وتجمد الماء فى كل مكان ، اضطر اسفا ان يبعث أولئك العمال الى الجنوب ليستجدوا الناس رزقهم او يعملوا قدر امكانهم حتى يأتى الربيع فيعودوا . على انه كان مع هذا كله يعطى لوتس سكرا وزيتا فى الخفاء لأنها لم تكن معتادة شظف العيش ... حتى فى

راس السنة لم يأكلوا الا سمكة صادوها من البحيرة وخنزيرا من المزرعة ذبحوه !

على أن وانج لنج لم يكن فقيرا وان تظاهر بالفقر ، فانه كان قد خبأ فضة كثيرة فى جدران الغرفة التى ينام فيها ولده الأكبر مع عروسه ، دون أن يعلما بذلك ، وخبأ مقادير اخرى فى زلعة دفنها تحت أرض اقرب حقوله ، واخرى تحت جذور البوص ، وكان قد خزن حبوبا لم يبعها فى السوق من حاصلات السنة السالفة ، فلم يكن ثمة خطر من موت أسرته جوعا !

ولكن كان على مقربة منه اناس يعانون الجوع ، فكان يعلم أن الكثيرين يكرهونه لأن عنده ما يطعم به نفسه وذويه ولذا صار يوصد ابواب بيته جيدا ولا يدع احدا لا يعرفه يدخل . وكان موقنا انه لولا سطوة عمه على اللصوص لنهبوا ماله وغذاءه واعتدوا على نساء بيته كذلك ، ولذا كان يحسن معاملة عمه وزوجته وولدهما كما لو كانوا ضيوفا عنده وصاروا يشربون الشاى قبل غيرهم ويغمسون عيدانهم فى الطعام قبله واسرته

وقد أدرك هؤلاء الثلاثة ان وانج لنج يخشاهم فتعالوا عليه وصاروا يشكون من الطعام والشراب ، وبخاصة المرأة التى اعتادت الالوان الغالية التى كانت تتناولها فى الغرف الداخلية ، فقد شكت الى زوجها فجاء هذا الى وانج لنج يقول : « أترانا سنعانى الجوع مرة اخرى ؟ » ثم ضحك واستطرد قائلا : « انك سعيد الطالع فانى أعلم ان اناسا اقل منك غنى ومالا قد علقوا بعروق السقف فى بيوتهم ! »

ولما سمع وانج لنج ذلك من عمه تصبب العرق البارد من جبينه ، وأعطى عمه فضة ، وهكذا صار اولئك الثلاثة يشترون لحما ويأكلونه وحدهم من دون جميع من بالمنزل ... وصار العم يدخن الطباق فى اسراف ، حين كان وانج لنج لا يدخن الا نادرا !

وقد شغل الابن الأكبر لوانج لنج بزوجته وصار لا يكاد يرى ما يجرى حوله ، وهمه الأكبر أن يقى عروسه نظرات ابن عم ابيه حتى انقلب الاثنان عدوين بعد ان كانا صديقين ، ومن ثم صار لا يكاد يدع زوجته تخرج من الغرفة الا مساء حيث يخرج الشاب الآخر مع أبيه . غير أنه لما رأى مسلك اولئك الثلاثة نحو ابيه تولاه الغضب ، وصارح اباه برايه ، ولكن وانج لنج قال له : « انى ابغض اولئك الثلاثة من قلبى ، غير أن عمى زعيم عصابة لصوص ، وما دمت اطعمه واداريه فنحن فى امان . فليس من الحكمة ان نبدى لهم جانب الكهر ! »

وعندئذ سكت الاثنان اذ لم يجدا وسيلة للخلاص منهم . غير أن الابن ما لبث قليلا حتى صفق بيديه فرحا وقال لأبيه : « لقد هديتنى انت الى الوسيلة المثلى ! هيا بنا نشترى لهم افيونا وندعهم يستمتعون به كما يفعل الاغنياء ، وساتظاهر بالتودد الى ابن عمك من جديد واغريه بالذهاب الى

مشرب الشاى الذى يستطيع فيه أن يدخن الأفيون بقدر ما يحب ، فى حين تأتى به هنا لعمك وزوجته ! »

ففكر وانج لنج هنيهة ثم قال : « ولكن الأفيون غالى الثمن كالأحجار الكريمة ! »

فقال ابنه الاكبر : « مهما يكن ثمنه غاليا فهو خير لنا من احتمال تبجحهم والصبر على نظرات ابنهم الوقح الى زوجتى ! »

وقد عمل وانج لنج بهذه النصيحة ، وفى ذلك اليوم اشترى من المدينة ست اوقيات من الأفيون لعمه وزوجته !. كما عجل بزفاف ابنته الصغرى الى ابن التاجر ليو خوفا عليها من ابن عمه !

اطمأن وانج لنج بعد أن ذهبت الابنة الثانية الى بيت خطيبها ، وقال لعمه يوما : « ما دمت اخا ابى فاليك بعض الطباق من نوع ممتاز ! »

ثم فتح وعاء الأفيون وكان لزجا زكى الرائحة ، فتناوله عم وانج لنج وشمه وضحك قائلا : « لقد سبق أن دخنت منه قليلا ، ولكنه غالى الثمن ، انى احبه ! »

فتظاهر وانج لنج بعدم الاكتراث وقال : « كنت قد اشتريت منه قليلا لابى اذ انتابه الأرق ، واليوم وجدته كما هو لم يستعمله ولذا فكرت فيك . فخذه ودخن منه حين تحب أو حين تشعر ببعض الالم ! »

واخذ العم الافيون بشغف ، ثم وضع وانج لنج غليونا هنا وآخر هناك ، وتظاهر بانه يدخن الأفيون هو نفسه ، ولكنه كان يأخذ الغليون الى غرفته ويدعه هناك دون ان يقربه ، ولم يسمح لولديه ولا للوتس بان يلمسوا الأفيون بزعم انه غالى الثمن !

ولما انتهى الشتاء وبدا الماء ينحسر عن الحقول حتى صار وانج لنج يمشى فيها ، تبعه ابنه الاكبر ذات يوم وقال له بفخر : « سيكون لدينا قريبا فم جديد يتطلب الطعام ، وهو فم حفيدك »

فضحك وانج لنج اذ سمع ذلك ومسح يديه احداهما بالاخرى جذلا وقال : « هذا نبأ سار حقا ! » . ثم أوفد تشنج الى المدينة ليشترى سمكا وحلوى لتاكل زوجة ابنه وتطعم الجنين الذى فى بطنها !

ولما اقبل الربيع بدا الناس الذين هاجروا يعودون الى بيوتهم وارضهم وان كان الفيضان لم يبق على شىء من مساكنهم ، ولكن كان من اليسير عليهم اعادة تشييدها من الطوب النيىء وتستيفها بالحصر ، وجاء كثير منهم الى وانج لنج ليقترضوا منه مالا فصار يقرضهم بفوائد باهظة

لشدة حاجتهم الى المال ، وكان لا يقبل سوى الارض ضمانا للقروض !. وبعضهم كانوا يبيعونه أجزاء من أرضهم حتى يستطيعوا أن يشتروا بذورا للجزء الباقى ، فكان يشترى تلك الارض بثمن بخس ، وآخرون كانوا لا يرضون ان يبيعوا ارضا ، فاذا لم يجدوا مالا ليشتروا به محراثا وبذورا باعوا بناتهم ، وقد جاء بعضهم الى وانج لنج لهذا الغرض لانهم يعلمون انه رجل غنى ، وقد فكر فى حفيده المنتظر وفى الاطفال الآخرين الذين سوف يملأون البيت بعد زواج ولديه الآخرين ، فاشترى خمس جوار اثنتين منهن فى الثانية عشرة من عمرهما واثنتين اصغر قليلا ، وواحدة لخدمة لوتس لان كوكو كبرت سنها ولم تعد تستطيع العمل كما ينبغى !.. هذا الى انه منذ ذهبت ابنته الثانية الى بيت زوجها والبيت ليس فيه امراة تقوم بخدمته !

وفى احد الايام جاء اليه رجل يحمل فتاة فى السابعة من عمرها ليبيعها وكانت جميلة ولكن وانج لنج رفض شراءها لصغرها وضعفها ، غير ان لوتس تشبثت بها فلم تسعه الا أن يشتريها لها ، وقد اشتراها بعشرين قطعة فضية !

وحسب وانج لنج انه قد استتب له الأمن والسلام فى البيت .. فتوجه الى الحقول واخذ معه ولده الثالث الذى يعده ليكون مزارعا ، وكان هذا الفتى يمشى وراء ابيه ، مطاطىء الراس بادى الحزن ، ولا يدرى أحد ماذا به ولا ماذا يكربه

حتى اذا عاد وانج لنج الى بيته لم يجد الهدوء الذى توقعه ، فان ابنه الاكبر لم تشف نفسه من البغض الذى يكنه لابن عم أبيه . وقد رأى بنفسه كيف ان قريبه هذا جبلت نفسه على الشر والفساد . ثم حدثت امور جعلته لا يخرج من البيت ليذهب الى مشرب الشاى الا اذا خرج ابن عم ابيه كذلك . وقد خاف منه على الجوارى ، وكذلك على لوتس فى الغرف الداخلية !

ولما عاد وانج لنج من الحقول مع ولده الاصغر ، شكا اليه ولده الاكبر من ابن عمه ذاكرا أنه لا يحتمل البقاء فى المنزل مع وجود ذلك الشاب فيه ، وصارح اباه بأن ابن عمه لا يفتا ينظر نظرات شريرة الى زوجته والى الجوارى بل الى لوتس نفسها . وكان وانج لنج قد عاد من الحقول مسرورا لانحسار الماء ولذهاب ابنه الأصغر معه ، فساءه أن يزعجه ابنه الاكبر بهذا الحديث وقال له : « انك طفل احمق لا يشغل فكرك سوى هذا الأمر . ولقد جننت بزوجتك جنونا ، ولا يليق بالرجل ان يجعل زوجته فوق كل شىء فى الوجود ! وماذا تريد منى ان افعل ؟ »

وسكت الشاب صابرا حتى هدأ غضب ابيه ثم قالت له : « وددت لو تركنا هذا البيت وانتقلنا الى بيت فى المدينة . اننا لا يخلق بنا ان نظل

نعيش فى الريف مثل عبيد الارض . ونحن اذا تركنا هذا المنزل امكننا ان نخلف فيه عمك وزوجته وولدهما ، ونعيش بعيدا عنهم فى امان بالمدينة ! »

فضحك وانج لنج بمرارة ثم قال بحزم : « هذا بيتى !. ويمكنك ان تعيش فيه او تغادره . اننا لولا الارض لمتنا كلنا جوعا !. ان الارض الطيبة هى التى جعلت منك شيئا آخر خيرا من ابن فلاح ! »

غير ان الشاب لم يسلم بسهولة فقال : « هناك بيت هوانج الكبير . ان الجزء الامامى منه قد امتلأ بأناس من حثالة الشعب . ولكن الردهات والغرف الداخلية موصدة خالية ، ويمكننا ان نستاجرها ونعيش فيها بامان وانت واخى الاصغر يمكنكما ان تذهبا كل يوم الى الحقول وتعودا ، وهنـاك لن يكدرنى ذلك الكلب ابن عمك كل حين ! »

ثم ترك لدمعه العنان حتى يؤثر فى ابيه وقال : « اننى دائما ارعى حسن السير ولا اقامر ولا ادخن الافيون ، وقانع بالمرأة التى اخترتها لى ، وانما اسالك هذا الامر اليسير عليك وليس لى رجاء سواه ! »

ولا شك ان دموع ولده كانت كافية للتاثير فيه ، ولـكن كلمة بيت ، آل هوانج كانت اشد تاثيرا فى نفسه ، فهو لم ينس قط كيف دخل ذلك البيت متهيبا ، وكيف وقف وجلا أمام البواب . وكان طول حيـاته يشعر بان الناس يحسبونه ادنى مرتبة من اولئك الذين يعيشون فى المدينة !

وهكذا جعل يفكر تفكيرا جديا فيما قاله ولده الاكبر ، وراقت له الفكرة ، وود لو يقيم فعلا حيث اقام آل هوانج !. ولكنه لم يرد ان يعجل بالقبول قبل ان يبرر ما اعتزمه ، فراقب ابن عمه عن كثب حتى رآه مرة ينظـر نظرات مريبة الى الفتيات فغمغم قائلا : « حقا !. لست أستطيع ان اعيش مع هذا الكلب الهائج فى بيت واحد ! »

ونظر الى عمه فرآه قد نحل جسمه وضعف بنيانه من أثر الافيون ، وقد اصفر لون بشرته وانحنى ظهره وبان عليه الكبر وصار يبصق دما حين يسعل . ثم نظر الى زوجة عمه فرآها قد ادمنت الافيون كذلك وكانت راضية بغليونها لا تطلب به بديلا ، وقد اصابها دوار وذهول . وهكذا ادى الافيون المهمة التى ارادها منه !

ولكن كان هناك ابن عمه وهو لم يتزوج بعد ، وقد اصبح كالوحش الهائج ، ولم يتعلق بالافيون مثل ابويه . ولم يرد وانج لنج ان يزوجـه فى البيت فينسل أطفالا على شاكلته . وكان لا يرضى أن يعمل اذ لا حاجة به الى الكد وحاجاته كلها مقضية ، لكنه كان يقضى ساعات من الليل خارج البيت ، ثم قل خروجه هذا بعد أن عاد الناس الى القرية والمدينة واوى اللصوص الى التلال فى الشمال الغربى ولم يرد هو أن يذهب معهم ، وهكذا بقى شوكة فى البيت ، يتثاءب ويكلم من يشاء ويروح ويجىء بقليل من الثياب حتى عند الظهر !

وفى احد الايام ذهب وانج لنج الى المدينة ليرى ابنه الذى يعمل فى سوق الحبوب ، فسأله رأيه فيما اقترحه أخوه الاكبر من سكنى دار آل هوانج . وكان هذا الابن الثانى قد كبر واصبح شابا انيقا مثل الـكتبة الآخرين بالسوق ، فقال لأبيه : « انها فكرة صائبة ، وهى تناسبنى تماما لانى فى هذه الحالة استطيع أن أتزوج واعيش مع زوجتى ايضا فى تلك الدار ، ونكون جميعا تحت سقف واحد كشأن الأسر الكبيرة ! »

ولم يكن وانج لنج قد دبر اى شىء لزواج ابنه هذا فقال له : « لقد قلت لنفسى منذ مدة طويلة انك ينبغى لك أن تتزوج ولـكنى شغلت بشواغل كثيرة ثم انك لم تبد رغبة فى الزواج ! »

فقال الابن : « اريد لنفسى فتاة من القرية من اسرة ريفية مستقرة لا يكون لها اقارب فقراء ، ويشترط أن تجلب لى صداقا طيبا ، على الا تكون قبيحة الوجه ولا بارعة الحسن ، وأن تجيد الطهو حتى اذا كان هناك خدم فى البيت امكنها ان تشرف على عملهم ! »

وزاد وانج لنج دهشـة من ولده واعجـابا به ، فانه لم يكن قد عرفه عن كثب مع أنه ولده . ثم قال له : « حسنا !. سأبحث لك عن فتاة من هذا القبيل . وسأكلف تشنج البحث عنها فى القرية ! »

ثم مضى وهو لا يزال يضحك حتى اذا وصل الى البيت الـكبير وقف مترددا امام الأسدين الحجريين

ولعل وانج لنج فى الايام الخالية حين كان آل هوانج يسـكنون هذه الدار كان يحسب نفسه من العـامة ، ولـكنه الآن وقد صـارت له أراض شاسعة وثروة وفيرة صار يزدرى هؤلاء النـاس ويستقذرهم فسار فى طريقه شامخ الأنف مشمئزا كما لو كان هو نفسه من الأسرة الرفيعة التى كانت تسكن تلك الدار !

ومضى خلال الفناء بدافع الفضول حتى وجد فى المؤخرة بابا اغلق على فناء وراءه وجلست عنده امرأة تغفو حينا وتصحو حينا ، وقد عرف فيها زوجة البواب القديم ، وان كانت قد نحل جسمها وتغضن وجهها وشاب شعر راسها !. ولما نظر اليها عجب من كثرة السنين التى انقضت ومن سرعة فواتها كذلك ثم قال لها بصوت لا يخلو من الحزن : « استيقظى وافتحى لى الباب ! »

فصحت المرأة من غفوتهـا وقالت : « لا افتح لك البـاب الا اذا كنت ستستاجر الغرف الداخلية كلها معا ! »

فقال وانج لنج وقد اعتزم أمرا : « ساستاجرها كلها اذا راقتنى ! »

ودخل وراءها وكان يعرف طريقه حق المعرفة . وقد كانت الغرفة صامتة موحشة ، واخذ يقول لنفسه : « هذه هى الغرفة الصغيرة التى تركت

فيها سلتى يوم جئت لأتزوج أولان . وتلك هى الشرفة الطويلة ذات العمد الحمراء » . ثم تبع المرأة الى القاعة الكبيرة ، وكانت ما زال بها المقعد المرتفع الذى كانت السيدة العجوز تجلس عليه ! وحفزه حافز عجيب لان يجلس على ذلك المقعد وان يضع يده على المنضدة التى أمامه ، واذ ذاك شعر باهميته ... وكانت المرأة واقفة تنتظر ، فقام من مقعده وقال لها وهو يضرب المنضدة بقبضة يده : « سيكون لى هذا البيت ! »

▭

كان وانج لنج قد أصبح مع الكبر ميالا الى سرعة ما يعتزمه ، فكان قليل الصبر يحب الانتهاء من أى أمر يحزبه ثم يستريح ويطمئن . وقد أنبأ ابنه الأكبر انه قرر سكنى البيت الكبير وعهد اليه فى اتمام ذلك ، ثم أرسل فى طلب ابنه الثانى وكلفه المجىء للاشراف على نقل الاثاث والمتاع فى يوم عينه . ثم انتقلوا الى البيت الكبير ، تتقدمهم لوتس وكوكو مع الجوارى والامتعة ، ثم الابن الأكبر وزوجته مع الخدم . ولكن وانج لنج تخلف فى بيته القديم مع ابنه الأصغر . فانه لما حان الرحيل من الارض التى ولد فيها ، وجد ذلك عسيرا عليه وابطأ فى انفاذه . ولما استحثه ولداه قال لهما : « اعدا غرفة لى وحدى ، وسآتى فى اليوم الذى أحب ، وذلك قبل مولد حفيدى ، فاذا شئت بعد ذلك العودة الى هنا عدت ! »

ولما حثاه مرة اخرى قال لهما : « هنا ابنتى البلهاء المسكينة ولا ادرى آتخذها معى ام اتركها هنا . على انى لا بد لى من اخذها معى فليس سواى من يتعهد طعامها ويرعاها ! »

وكان يقصد بذلك تأنيب زوجة ابنه التى لا تصبر على اقتراب الفتاة البلهاء منها وكانت تقول : « ان مثل هذه البنت كان أجدر بها أن تموت ! . ويكفى ان يحكم على برؤيتها فان ذلك يفسد الجنين الذى فى بطنى ! »

وكان ابنه الأكبر يعلم كراهية زوجته لأخته المسكينة فسكت ولم يجب . ثم اراد وانج لنج أن يخفف من وقع ذلك اللوم فقال : « سآتى الى البيت الكبير حين نعثر على فتاة تصلح زوجة لأخيك . والأيسر لى ان ابقى هنا مع تشنج حتى تتم تلك المسألة ! »

وهكذا لم يبق بالبيت القديم ، مع وانج لنج وولده الأصغر وابنته البلهاء ، سوى عمه وزوجته وابنتهما ، وتشنج ورجاله ، وانتقل العم وزوجته وابنهما الى الغرف الداخلية التى كانت للوتس من قبل ، وحسبوها كأنها ملك لهم ، غير أن ذلك لم يغضب وانج لنج فقد ايقن ان عمه لن يعيش طويلا ، ومتى مات خلص من واجبه نحوه ، واذا لم يرضخ ابنه بعد ذلك لارادته فلن يلومه احد اذا طرده من البيت . وعندئذ أنتقل تشنج ورجاله الى الغرف

الخارجية ، وسكن وانج لنج وولده الأصغر وابنته البلهاء الغرف الوسطى ، واستأجر امرأة قوية للقيام على خدمتهم !

وصار وانج لنج ينام قدر كفايته ، وينشد الراحة ولا يبالى شيئا ، لانه اصبح بغتة متعبا ! . وسره الهدوء الذى يشمل البيت ، وكان ابنه الاصغر فتى هادئا لا يضايق اباه حتى ان هذا كان لا يعرف شيئا عنه . واخيرا عهد وانج لنج الى تشنج فى أن يبحث عن فتاة لابنه الثانى ، وكان تشنج قد كبرت سنه ونحل بدنه ، وصار وانج لنج لا يسمح له بان يكد بالفأس او يسير وراء الثور والمحراث ، وانما كان يشرف على عمل الآخرين ويراقب وزن الحبوب وكيلها !

وبعد ايام عاد تشنج فقال لوانج لنج : « توجد على بعد ثلاث قرى فتاة من اسرة طيبة ضاحكة الثغر ، جميلة القد ، صحيحة البدن ، وابوها يسره أن يرتبط معك برابطة المصاهرة ، وهو يملك ارضا ، وسيعطى ابنته صداقا طيبا . غير انى لم اعده بشىء حتى تبت انت فى الأمر ! »

وبدا لوانج لنج ان هذه الفتاة تصلح لولده ، وكان تواقا لان ينهى الموضوع فوافق توا . ولما جىء اليه بوثائق الخطبة وضع عليها علامته وقال : « الآن لم يبق الا ولد واحد ازوجه وعندئذ اخلص من مشاكل العرس والزواج واعيش هانئا مطمئنا ! »

ولما حدد يوم الزواج ارتاح باله وصار يجلس فى أشعة الشمس وينام كما كان ابوه يفعل من قبل ! . ثم لحظ أن تشنج قد انتابه ضعف الكبر . ولما كان ولده الأصغر لا يقدر ان يحمل التبعات ، فقد رأى ان يؤجر بعض حقوله النائية لآخرين بالقرية فاقبل الكثيرون على استئجارها واتفق معهم على قيمة الايجار ، بحيث يكون له نصف المحصول الذى يحصد بحسبانه مالك الارض ، وللمستأجر النصف الآخر . وكانت هناك شروط أخرى كان يقدم وانج لنج الأسمدة والكسب المتخلف من طاحونته بعد طحن السمسم ، وان يقدم المستأجر بعض الحاصلات التى يحتاج اليها بيت المالك !

ولما خلا وانج لنج من شواغل الاشراف والادارة صار لديه متسع من الوقت ، فكان يذهب احيانا الى المدينة وينام فى الغرفة التى افردت له بالبيت الكبير . ولكنه كان لا يكاد يطلع النهار حتى يعود الى الارض ، فكان ينتعش اذ تطرق أنفه رائحة الحقول !

وكأنما رضيت عنه الآلهة فشاءت أن تسبغ عليه نعمة الهدوء الذى لا تشوبه شائبة ، فجاء اليه ابن عمه وقد ضايقه من البيت خلوه من النساء الا من تلك المرأة البادنة التى تقوم على خدمة الجميع وهى بعد زوجة احد العمال ، وقال له : « يقال ان حربا تدور فى الشمال وقد اعتزمت ان اصير جنديا واشترك فيها ، هذا اذا أعطيتنى نقودا فضية اشترى بها ثيابا وفراشا ! »

فكاد قلب وانج لنج يقفز من الفرح ، ولكنه اخفى ما بنفسه وقال فى رياء : « ليس لعمى ولد غيرك ، فاذا ذهبت فمن يحمل جسده حين يموت ؟. وما ادرانا ما قد يصيبك فى الحرب ؟ ! »

ولكن الشاب ضحك وقال : « انى لست احمق ، ولن اقف فى مواطن الخطر . واذا دار قتال فسابتعد عنه حتى ينتهى . وانما اردت التغيير ورؤية بلاد اخرى قبل ان اكبر واعجز عن ذلك ! »

وعندئذ سارع وانج لنج الى اعطائه ما طلب من نقود !

ولما سمعت أم الشاب بما اعتزمه بكت ، ولكن وانج لنج بادر الى اعطائها مزيدا من الافيون وهو يقول لها : « لا شك انه سيصبح ضابطا عظيما نفخر به جميعا ! »

وهكذا نعم وانج لنج بالهدوء فى بيته الريفى ؛ فى حين اقترب موعد ميلاد حفيده فى البيت الذى بالمدينة ، فصار بعد ذلك يطيل من مكثه بهذا البيت الاخير ، ويتنقل بين غرفه وهو يعجب من تصاريف القدر الذى جعله الآن يسكن بيت آل هوانج مع زوجته وأولاده وحفيده القادم !

وصارت يده سخية بالنقود ، واخذ يشترى حريرا وزيتا وأثاثا فاخرا وأطايب الطعام ، حتى صارت كوكو تقول له : « لقد عادت الأيام القديمة فى هذا البيت لولا ان جسمى قد جف وذبل ولم يعد لائقا حتى لسيد شيخ ! »

وكان هو يضحك من قولها هذا ، وقد سره انها قرنته بالسيد الشيخ !

وفى صباح أحد الايام سمع تاوه امراة فذهب مسرعا الى الجناح الخاص بولده الاكبر وقابله هذا قائلا : « لقد حانت ساعة الوضع ، وتقول كوكو انه سيتطلب وقتا ، وان الولادة ستكون عسرة لضيق الرحم ! »

فعاد وانج لنج الى غرفته وجلس ينتظر وهو يسمع الصراخ ، ثم تملكه الخوف واحس الحاجة الى معونة من روح ، فذهب الى دكان البخور فاشترى عيدانا منه وقصد بها الى معبد بالمدينة لآلهة الرحمة واعطى راهبا هناك نقودا وطلب اليه ان يشعل البخور للآلهة وذكر له الغرض وهو يقول : « اذا جاء المولود ذكرا فسأدفع لك ثمن ثوب احمر جديد للآلهة ، ولكن اذا جاء انثى فلن ادفع شيئا ! »

ثم ذهب برغم الحر الى المعبد الريفى الصغير الذى يقبع فيه الهاالارض واشعل امامهما بخورا وقال : « لقد عشنا بكما ، انا ووالدى وابنى ، والآن اذا لم يولد لابنى ولد ذكر فلن نعنى بكما بتاتا ! »

واذ فعل كل ما استطاع ، عاد الى البيت الكبير وجلس الى المائدة وصفق بيديه ليطلب جارية تحضر له شايا ، واخرى لتأتيه بفوطة مغموسة فى ماء حار ليمسح بها وجهه ، ولكنه بقى يصفق من غير ان يأتى اليه أحد اذ كان كل من بالدار مشغولين بالوضع . واخيرا جاءت لوتس تترنح على قدميها

الصغيرتين تستند الى كوكو لتقل جسمها بعد ان سمنت ، وقالت له ضاحكة :

ـ لقد ولد لابنك ولد وهو والوالدة بخير . وقد رايت المولود وهو جميل سليم الجسم !

فضحك وانج لنج مسرورا وقال : « كنت جالسا هنا قلقا كمن يولد له اول ولد ! » . ثم عادت به الذكريات الى اولان وكيف كانت تضع اطفالها وحدها دون عون من أحد ، ثم تعود الى العمل بالحقل وبالبيت فى اليوم نفسه !

ثم جاء ابنه الاكبر ضاحكا فخورا يقول : « ان المولود ذكر !. والآن يجب ان نجد له مرضعة لترضعه ، لانى لا ارضى ان تفسد زوجتى جمالها بالارضاع والتربية . ولا تفعل ذلك اية سيدة من الطبقة العالية بالمدينة ! »

فقال وانج لنج برنة حزن لا يدرى سببه : « اذا كان لا بد من ذلك ولا تقدر زوجتك ان ترضع ولدها فليكن ما تريد ! »

ولما اتم الوليد الشهر الأول من حياته اقام ابوه وليمة دعا اليها اناسا من المدينة وحماه وحماته وجميع الكبراء . وصبغ باللون الاحمر مئات من البيض واهداها الى المدعوين ، واكل الجميع هنيئا وشربوا مريئا وكان الفرح يملأ البيت لأن الطفل كان ممتلئا صحة وقد تخطى اليوم العاشر وعاش فذهب كل خوف عليه !

ولما انتهت المادبة قال الابن الاكبر لابيه : « الآن توجد ثلاثة اجيال فى هذه الدار ، فيجب ان نقيم لوحات الأسلاف كما تفعل الأسر الكبيرة لكى تعبد فى ايام الأعياد ، لاننا الآن اصبحنا اسرة موطدة الدعائم ! »

وقد سر وانج لنج كثيرا بهذه الفكرة ، وامرّ بتنفيذها ، واقيم صف من الالواح فى القاعة الوسطى ، لوحة لجده ، ولوحة لأبيه ، ثم لوحة تركت بيضاء ليكتب عليها اسمه ، واخرى لاسم ولده ، حين يموتان . واشترى الابن الاكبر آنية للبخور ووضعها امام الالواح . ولما تم ذلك ، تذكر وانج لنج وعده لآلهة الرحمة فذهب الى المعبد واعطى الكاهن نقودا ليشترى بها ثوبا احمر جديدا للآلهة ! وفى طريقه الى البيت جاءه عامل من عماله يجرى ويقول له : « ان تشنج يجود بروحه بغتة ، وقد طلب ان يراك ». فغضب وانج لنج حين علم ذلك وقال : « احسب ان الالهين الملعونين اللذين بمعبد الارض قد تملكتهما الغيرة لأنى وهبت آلهة الرحمة فى المدينة ثوبا جديدا ، ولعلهما لا يعلمان الا سلطان لهما على الاطفال ولكن على الارض وحدها ! »

ثم لم يرض ان يصبر حتى يتناول غداءه وذهب توا الى غرفة تشنج وكانت مزدحمة بالعمال . فلما سألهم كيف حدث الأمر قالوا له : « لقد اراد ان يعمل فى الدراس بنفسه وكان هناك عامل استؤجر حديثا فلم يدر كيف

يستخدم المدقة فى ضرب الحنطة ..واراد تشنج ان يريه كيف يعمل ولكن هذا كان ارهاقا له فى سنه ! »

وكان تشنج يتاوه فى سريره فمال عليه وانج لنج وقال له : « ها انذا وساشترى لك تابوتا لا يماثله الا تابوت ابى ! »

ولكن اذنى تشنج كانتا مملوءتين دما ولعله لم يسمع ما قاله وانج لنج لأنه لم يبد ما يدل على ذلك ، وكان يجود بروحه لاهثا . ولما فاضت روحه مال عليه وانج لنج وبكى ، ثم امر له بتابوت من احسن نوع ، واستاجر كهنة لجنازته ، ومشى وراءه مرتديا ثيابا بيضاء للحداد . بل امر ابنه الاكبر كذلك بان يضع شريطا ابيض على كل من رسغيه كما لو مات احد اقاربه ، واحتج الابن على ذلك قائلا : « انه لم يكن الا رئيسا للخدم ، ولا يليق بنا ان نلبس الحداد على خادم ! »

واصر وانج لنج على لبس الحداد ثلاثة ايام ، وكان يريد ان يدفن تشنج بداخل المقبرة حيث دفن ابوه واولان ، ولكن اولاده ابوا ذلك اذ لا يليق ان يرقد خادم مع جدهما وامهما ، وعلى ذلك اضطر وانج لنج الى ان يدفنه عند مدخل المقبرة وقال لنفسه : « هذا مكان يليق به لانه كان دائما يقف حارسا لى من كل سوء ! » . واوصى اولاده بان يدفنوه حين يموت ، فى اقرب بقعة من تشنج !

وبعد ذلك صار وانج لنج لا يذهب الى حقوله الا قليلا ، فقد كره ان يذهب اليها وحده بعد وفاة تشنج . وما لبث حتى اجر كل اراضيه واقبل المزارعون على استئجارها لجودتها وخصبها ، ولكنه ما كان ليبيع شبرا منها . واسكن احد عماله مع اسرته بيته الريفى ليعنوا بعمه وزوجته وهما مستغرقان فى احلام الافيون !.. واخذ ابنه الاصغر وابنته البلهاء معه الى البيت الكبير بالمدينة ، وصار لا يقصد الى بيته الريفى الا نادرا !

متاعب جديدة

لم تبق هناك أمنية يتمناها وانج لنج فقد نال كل ما يتمناه !.. وهذا ما كان يحدث به نفسه وهو يجلس على كرسى تحت أشعة الشمس وبجانبه ابنته البلهاء ، وامامه النرجيلة (الشيشة) يدخن طباقها فى امان !

غير ان ولده الاكبر كان يمكر عليه صفو هدوئه ، ولا يفتأ يطلب هذا وذاك للبيت وللأسرة ، ويقترح تجديد الأثاث تاهبا لزفاف أخيه . وأخيرا أهاب بأبيه أن يخلى الغرف الخارجية من مستأجريها حتى يصير البيت كله لهم ، كما ينبغى لأسرة كبيرة غنية !. وأراد وانج لنج أن يريح بالا من هذه المتاعب فقال له : « افعل ما تشاء ، ولكن لا تزعجنى به ! »

وما سمع الشاب ذلك حتى أسرع الى شراء أثاث جديد وستائر جديدة ، وصورا لنساء حسان تعلق على الجدران واشياء اخرى كثيرة مما كان قد رآه فى مدن الجنوب . وكان اذا مر بالفقراء الذين يسكنون الغرف الخارجية التى خارج البوابة سد أنفه حتى لا يشم روائحهم الكريهة . فكانوا يتأذون من ذلك ويقولون فيما بينهم : «لقد نسى رائحة السماد الذى كان ببيت أبيه!». ولكن لم يجرؤ أحد منهم أن يقول له ذلك لانه ابن أحد الاغنياء !.. حتى اذا حل العيد الذى تجدد عنده الايجارات وجد أولئك المساكين أن ايجارات الغرف والأفنية التى يسكنونها قد ضوعفت بحيث يعجزون عن دفعها ، وقد أدركوا أن ابن وانج لنج هو الذى فعل ذلك بعد أن اتفق عليه مع ابن (هوانج) بالكتابة اليه حيث هو فى المدن البعيدة ، وكان الاخير لا يهمه الا أن يحصل على مال وفير من ايجار الدار القديمة . وعلى هذا لم يسع أولئك المساكين الا أن يغادروا مساكنهم لاعنين ذلك الفتى الذى أجلاهم عنها!

غير أن وانج لنج لم يسمع شيئا من ذلك لانه كان قابعا بالغرف الداخلية لا يكاد يخرج منها . وجاء ابنه الأكبر بنجارين يصلحون ما أفسده أولئك القوم فى الغرف والابواب . ولما تم ذلك زرع البستانى أزهارا جديدة وجىء بعمال حفروا بركا ووضع فيها أسماكا حمراء للزينة !.. وقد سمع الناس فى شوارع المدينة بما فعله ابن وانج لنج وتحدثوا بما يدور فى ذلك البيت الكبير بعد أن صار يسكنه رجل غنى من جديد، وصار الذين كانوا بالأمس يلقبون وانج لنج بالمزارع ، يلقبونه (بالرجل الكبير) أو (وانج الغنى)!.

وكان المال الذى تطلبه ذلك كله ، قد خرج من يد وانج لنج على دفعات

www.liilas.com/vb3 HENA

حتى لم يكد يشعر به . ولعله ما كان ليعرف كثرة ما أنفقه لولا أن جاءه ابنه الثانى صباح يوم وقال له : « ألا نهاية لهذا التبذير فى المال ؟. وهل نحن مضطرون الى أن نعيش فى قصر ؟ ان هذا المال الذى أنفق لو أنه أقرض للناس لأتى بفائدة قدرها عشرون فى المائة ولكان موردا حسنا !. وما فائدة تلك البرك وتلك الاشجار المزدهرة التى لا تثمر فاكهة ؟ »

وخشى وانج لنج أن يختلف ولداه فى ذلك الأمر فقال لابنه الثانى : « ان هذا كله انما تم استعدادا لزواجك ! »

فقال الشاب وهو يبتسم : « ان مما يدعو الى العجب أن تبلغ تكاليف الزواج عشرة أمثال قيمة العروس !. ان ميراثنا الذى ينبغى أن يقسم بيننا بعد موتك ، يبعثر الآن هباء لا لشىء سوى ارضاء كبرياء أخى الأكبر ! »

وكان وانج لنج يعرف قوة ارادة ولده هذا وبراعته فى الحديث والجدل، فبادر الى اسكاته بقوله : « حسنا !. سنضع نهاية لكل ذلك . وسأكلم أخاك وأقبض يدى عنه . ان فيما أنفق الكفاية . وأنت على حق ! »

وفى مساء اليوم نفسه قال وانج لنج لابنه الاكبر : « يكفى ما تم من الطلاء والصقل والاصلاح والشراء . ولا تنس أننا لا نخرج عن كوننا أسرة ريفية ! »

فقال الشاب بكبرياء : « كلا !. لسنا كذلك . ان الناس فى المدينة قد بدأوا يقولون عنا : (أسرة وانج الكبيرة) . فيجدر بنا أن نوائم بين معيشتنا وبين هذا الاسم . واذا كان أخى لا ينظر الى أبعد من مخازن الفضة ، فانى وزوجتى سنحافظ على مجد الأسرة ! »

وكان وانج لنج لا يعلم أن الناس يلقبون أسرته بذلك اللقب ، اذ كان من النادر أن يذهب الى مشرب الشاى أو سوق الحبوب ما دام ابنه الثانى يقوم بأعماله ، ولكنه سر مما علم وقال لولده :

ـ ان الأسر الكبيرة قد نشأت فى الريف وامتدت جذورها فى الارض !

فقال الشاب : « أجل ولكنها لا تمكث هناك بل تتفرع وتثمر أزهارا وفاكهة ! »

وعندئذ قال وانج لنج له : « لقد قلت ما أردت أن أقول ، وكفانا تبذيرا للمال !.. ان الاشجار اذا أريد أن تثمر فاكهة، يجب أن يحافظ على جذورها فى تربة الارض ! »

وحسب وانج لنج أن ابنه الأكبر سيتركه ويدعه فى أمان ، ولكن هذا قال له : « انى لا أطلب شيئا لنفسى ولا لولدى ولكن لأخى الأصغر الذى هو ولدك ، فلا يليق به أن ينشأ جاهلا ويجب أن يتعلم ! »

وكان ذلك شيئا جديدا على وانج لنج .. اذ كان قد رتب مستقبل ولده الأصغر على أن يكون مزارعا مثله ، فقال لولده الأكبر : « لا حاجة بنا الى

مزيد من المتعلمين فى هذه الدار . ان اثنين فيهما الكفاية ، وسيكون مآله الى الزراعة بعد أن أموت ! »

فقال ابنه الأكبر : « انه من أجل ذلك يبكى ليل نهار ، ولهذا تراه شاحب الوجه نحيل البدن ! »

ولم يكن قد فكر قط فى أن يسأل ولده الأصغر عما يريد أن يكون عليه مستقبله ما دام هو قد قرر أن يجعله مزارعا ، ولهذا بوغت بما قاله ولده الأكبر ، وقطب جبينه ثم تناول نرجيلته ببطء وأخذ يفكر فى ولده الأصغر . وكان هذا فتى يميل الى الصمت مثل أمه ، ولهذا لم يلتفت اليه أحد . ثم سأل وانج لنج ابنه الاكبر : « هل سمعت منه ذلك ؟ »

فأجاب بقوله : « اسأله بنفسك يا أبى ! » . وعندئذ صاح وانج لنج فى حدة : « يجب أن يبقى أحدكم فى الزراعة !! »

فقال الابن الأكبر : « لماذا يا أبى ؟.. انك لست بحاجة الى أبناء يشتغلون فى الارض كالعبيد . انه أمر لا يليق بنا ، بل يغرى الناس بأن يقولوا خلف ظهورنا : (هذا رجل يجعل ابنه يعمل فى الارض كالعبد الرقيق فى حين يعيش هو كأحد الأمراء) . فكيف تقبل هذا ؟! »

وكان الشاب يعرف أن أباه يهتم برأى الناس فيه ، ولهذا استطرد فقال : « يمكننا أن نعين له معلما يعلمه ثم نرسله الى مدرسة فى الجنوب ، وعندئذ يصبح لك ثلاثة أبناء متعلمين ، فأبقى أنا هنا فى الدار لأساعدك ، وأخى فى التجارة ، وأخى الأصغر يختار ما يحلو له »

ونجحت حيلة الابن الأكبر ، اذ طلب اليه أبوه أن يدعو اليه أخاه الأصغر ، فلما جاءه هذا ، نظر اليه وانج لنج مليا ، ولحظ لأول مرة أنه فتى طويل القامة نحيل الجسم ، لا يشبه أباه ولا أمه الا فى رزانته وصمته، ولكن له من الجمال نصيبا أوفر مما كان لأمه ، بل كان أجمل اخوته ما عدا الابنة الثانية التى انتقلت الى بيت زوجها . وكان حاجباه الاسودان يبدوان كبيرين كلما عبس !. ثم قال له أخيرا :

ـ ان أخاك الأكبر يزعم أنك تريد أن تتعلم ، ومعنى هذا أنك لا تحب أن تعمل فى الارض ، فلا يكون لى ولد مثلى !

وسكت الفتى ولم يجب . فصرفه أبوه غاضبا اذ حار فى أمره . غير أنه لم يكد يولى عنه الغضب حتى نادى ابنه الأكبر ، وكلفه أن يبحث عن معلم لأخيه . ثم استدعى ابنه الثانى وقال له : « ما دمت لن يكون لى ولد يعمل فى الارض فواجبك أن تشرف على الايجارات وأن تحسب الايراد الذى يأتى من كل حصاد ، ويمكنك أن تزن وتكيل وستكون وكيلى ! »

وسر الابن الثانى بذلك اذ أدرك أن المال سيمر بيده فيعرف الدخل والخرج وعندئذ يستطيع أن يقف التبذير والاسراف !

وكانت زوجة الابن الأكبر أمينة فى أداء واجباتها فصارت تحمل وتلد بانتظام ، وصار وانج لنج كل سنة يجد فى الغرف مزيدا من الاطفال ومن الجوارى لخدمتهم . وكلما قيل له : «جاء بالبيت فم جديد يتطلب الطعام» . ضحك وقال : « عندنا من الأرز الكفاية لاطعام الجميع ما دمنا نملك الارض الطيبة !

وزاد سروره حين وضعت زوجة ابنه الثانى ، وكان المولود بنتا كما ينبغى لها احتراما لزوجة أخى زوجها ... وهكذا لم تمض خمس سنوات حتى صار لوانج لنج أربعة أحفاد وثلاث حفيدات !

وخمس سنوات ليست كثيرة فى حياة الرجل الا اذا كان فى عنفوان شبابه أو كان قد بلغ الكبر والشيخوخة . وقد ذهبت تلك السنوات الخمس بعم وانج لنج . وكان فى أيامه الاخيرة قد عجز عن الجلوس والرقاد بلا معين . ولما ذهب اليه وانج لنج ليرى ما به قال له ذلك العم :

ـ اذا مت قبل أن يأتى ابنى الضال ، فعدنى بان تجد له زوجة صالحة

وقد لفظ نفسه الأخير فى أحد الأمسيات ، وكانت الخادمة البدينة قد ذهبت اليه بآنية حساء ، فوجدته قد مات !

ودفنه وانج لنج فى يوم قارس البرد ، واتخذ له قبرا بجانب قبر أبيه ولكنه أوطأ قليلا منه ، وأعلى من القبر الذى أعده لنفسه . ثم أمر الأسرة كلها بالحداد عليه لمدة عام ، لا حزنا على هذا الذى كان عبئا ثقيلا على كاهله ، ولكن لأن ذلك هو الواجب فى أسرة كبيرة اذا مات فرد من أعضائها !

وبعد ذلك نقل وانج لنج زوجة عمه الى بيته الكبير بالمدينة ، وأفرد لها غرفة فى أقصى البيت وكلف كوكو أن تبعث جارية لتقوم على خدمتها ، وصارت المرأة العجوز تدخن غليون الأفيون فى سريرها راضية ، وكان تابوتها الى جانبها تراه فتطمئن !

▭

حسب وانج لنج أن أموره كلها قد استقرت ، وأن فى استطاعته أن يجلس أو ينعس تحت أشعة الشمس من غير أن يكدر صفوه أحد ، وكان قد بلغ الخامسة والستين من عمره واحفاده من حوله كالأعواد الرطبة ، وبينهم ثلاثة أبناء لولده الأكبر أكبرهم فى العاشرة من عمره ، وولدان لابنه الثانى . ولم يبق الا قليل ويزوج ابنه الثالث !

ولكن لم يكن فى البيت هدوء ولا سلام ، فان زوجة الابن الأكبر وزوجة الابن الثانى كانتا قد فرق بينهما الخلاف وأصبحتا تتشاجران لأوهى الأسباب . وكان أطفالهما كذلك يلعبون معا ثم يعتركون كالقطط والكلاب ،

ثم تهرع كل أم الى الدفاع عن أطفالها ، وترى دائما أنهم على حق ، وأن أطفال الاخرى هم المخطئون !

وكان كذلك يلقى متاعب أخرى من لوتس فقد غضبت عليه منذ تولى حماية جاريتها الصغيرة من ابن عمه . وصارت تغار من هذه الجارية الصغيرة حتى لتبعدها من الغرفة كلما دخل اليها وتتهمه بأنه ينظر الى هذه الجارية نظرات مغرضة .. ولم يكن قد نظر اليها الا على أنها فتاة بائسة مذعورة . ولكن منذ اتهمته لوتس تلك التهمة أخذ يتفرس فى الفتاة ويعجب بما فى شحوب وجهها من جمال « زهرة الخوخ » ، التى سميت باسمها !..

وكان يقول للوتس ضاحكا من غيرتها : « ماذا تقولين ؟. أتحسبيننى لا أزال أشتهى أنثى أنا الذى لا آتى الى غرفتك أكثر من ثلاث مرات فى السنة ؟ » . ولكنه كان فى الوقت نفسه خائن العينين ، ينظر الى الجارية الصغيرة خفية فيجرى دمه فى عروقه !

لقد كانت لوتس جاهلة بكل شىء فى الحياة ، فيما عدا شأن الرجال مع النساء ، وقد تعلمت أن الرجال حين يبلغون الشيخوخة تصحو حيويتهم فترة قصيرة ، ولذا حنقت على تلك الفتاة وأرادت أن تبيعها الى مشرب الشاى ، ولكنها كانت فى حاجة شديدة اليها لأن كوكو كبرت وصارت ميالة للكسل . أما وانج لنج فقد تفادى لقاء لوتس أياما متوالية حتى تهدأ سورة غضبها ، ولكنه شغل بتلك الفتاة الشاحبة الوجه أكثر مما كان يتوقع !

وكأنما لم تكفه تلك المتاعب ، واذا بابنه الاصغر يسبب له هما جديدا !. فقد كان هذا الفتى دائم السكون ، دائبا على التعلم والاطلاع ، حتى لا يكاد يحس وجوده أحد . غير أنه كان قد استهواه ما سمعه عن الحروب ووقائع القتال والسلب والنهب ، وصار يطلب الى معلمه كتابا عن الحروب والعصابات . ثم جاء يوما الى أبيه وقال له : « انى الآن أعرف مستقبلى .. سأكون جنديا وسأشترك فى الحروب ! »

فارتاع حين سمع ذلك وحسب ابنه قد جن . وحاول جهده أن يثنيه عن عزمه ، ولكن الفتى أصر على ما أراده قائلا له : « ستنشب حرب لم نسمع بمثلها قط ، ستهب ثورة جامحة تؤدى الى قتال رهيب لم يحدث مثله من قبل ، وبعد ذلك تصبح أرضنا حرة ! »

فدهش وانج لنج من هذا الكلام وقال لابنه : « أليست أرضنا حرة الآن ؟. انى أؤجرها لمن أشاء ، فتأتينى بفضة وحبوب ، وأنت وأخوتك تأكلون منها وتكسون . ولست أدرى أن هناك حرية أكثر من ذلك ! »

فغمغم الفتى قائلا : « أنت لا تفهم !.. أنت شيخ كبير السن لا تفهم شيئا ! »

نفكر هنيهة وعجب من ولده هذا الذى استمد منه هناءته بل حياته نفسها ثم يكون بعد ذلك جاحدا !.. ثم خطر له خاطر آخر فقال له : « سأزوجك قريبا يا ولدى ! »

فحدج الفتى أباه بنظرة ينبعث منها الشرر وقال : « اذن .. سأذهب من هنا حقا !. إن المرأة لا تحقق لى كل آمال الحياة كما هى بالنسبة لأخى الأكبر ! »

فأدرك أنه أخطأ واستدرك قائلا : « كلا !. لن أزوجك .. ولكن اذا كانت هناك جارية ترغب فيها ... »

فقطع الفتى كلامه وقال بكبرياء : « إنى لست شابا عاديا ، ولكن لى آمالى ومطامعى !. وأنا أبحث عن المجد وأجرى وراءه . والنساء كثيرات فى كل مكان ! »

ثم كأنما تذكر شيئا كان غائبا عن باله فقال : « على أن الجوارى اللاتى فى هذا البيت هن أقبح جوار فى الوجود اللهم الا تلك الفتاة الصغيرة القد الشاحبة اللون التى تقوم على خدمة السيدة فى الغرف الداخلية ! »

ففهم وانج لنج أنه يقصد زهرة الخوخ وشعر بغيرة عجيبة ، ثم قارن بين نفسه فى كبره وشيب شعره وبين هذا الفتى الجميل ، فلم يكونا فى هذه اللحظة أبا وابنا،بل كانا رجلين أحدهما شيخ والثانى شاب يتنازعان امرأة واحدة ، وعلى هذا قال لولده بغضب : « ابتعد عن الجوارى !..انى لا أرضى فى بيتى بما اعتاده شباب الاشراف ! اننا قوم فلاحون معتصمون بالاخلاق الفاضلة ، ولن يكون فى بيتى شىء من هذا القبيل ! »

ففتح الفتى عينيه دهشة ثم هز كتفيه وقال لأبيه : « انك أنت الذى ذكرت كل ذلك أول الأمر ! » . ثم انصرف على أثر ذلك ، وبقى أبوه وحده فى غرفته تتنازعه عواطف شتى ولكن يبرز من بينها حنقه على ولده الاصغر لانه استحسن تلك الجارية الصغيرة !

ولم يستطع أن يبعد من ذهنه ما قاله ابنه الأصغر عن زهرة الخوخ : وصار يرقبها كلما دخلت أو خرجت حتى شغل بها ليل نهار ، لكنه لم يتحدث بذلك الى أحد . وفى ليلة من ليالى الصيف كان جالسا وحده تحت شجرة مزدهرة ، فشعر بدمه يجرى حارا فى عروقه وكأنه عاد شابا ، وانه لكذلك اذا بشبح يمر بالقرب منه وسط الظلام ، فلما أمعن النظر تبين أن (زهرة الخوخ) هى التى هناك ، فناداها بصوت كأنه همس ، ثم كرر النداء حين وقفت فى مكانها لتعرف من يناديها ، وقال لها : « تعالى الى ! » . ولما جاءت اليه وضع يده على سترتها وقال بصوت مختنق : « أنت طفلة ... وأنا ... رجل شيخ ! »

فجلست الفتاة عند قدميه وأمسكت بهما وقالت همسا : « انا أحب الشيوخ !.. ان لهم عطفا وحنانا ! »

وهنا مال عليها وقال لها : « ان فتاة صغيرة مثلك يجب أن يكون لها شاب مديد القامة مثل ... مثل ابنى ! »

فقالت له : « ان الشبان ليسوا رحماء ، بل هم قساة غلاظ القلوب ! »

وطفت على قلبه موجة حب لهذه الفتاة فانهضها برفق ثم أخذها الى غرفته

وقد دهش وانج لنج بعد أن قضى ليلته مع الفتاة من تعلقه بصغيرة مثلها فى مثل سنه !.. أما الفتاة فكانت بلا عاطفة وانما تعلقت به كما تتعلق الابنة بأبيها !

ولم يقل بعد ذلك شيئا لأحد ، وبقى ما حدث سرا الى أن لمحت عين كوكو النفاذة (زهرة الخوخ) وهى تتسلل فى فجر يوم من غرفة وانج لنج . فلمعت عيناها اللتان كعينى الصقر وقالت : « هكذا ؟!. هكذا تعود قصة السيد الشيخ من جديد ! »

وسمعها وانج لنج وهو فى غرفته فخرج اليها وهو يبتسم ابتسامة حياء وكبرياء معا وقال لها : « لقد قلت لها أن تأخذ شابا ولكنها آثرت الشيخ الكبير ! »

فقالت كوكو بخبث : « ما أبدع أن تسمع السيدة بذلك ! »

فقال لها : « الواقع أنى لا أدرى كيف حدث هذا الأمر . ولم يكن فى نيتى أن أتخذ لنفسى امرأة جديدة ولكن الأمر حدث من تلقاء نفسه ! »

ثم استطرد قائلا : « اذا كان يجب أن تعرف السيدة ذلك ، فأخبريها أنت به ، واذا أمكنك أن تمنعيها من الغضب فانى أعطيك قبضة من الفضة ! »

فوعدته كوكو بذلك وهى تضحك وتهز رأسها تعجبا . وعاد وانج لنج الى غرفته ، ولم يخرج منها الا بعد أن عادت اليه كوكو بعد قليل وقالت له : « لقد أنبأت السيدة بالأمر ، وتملكها الغضب،لكنى ذكرتها بالثوب الاسود الوارد من الخارج الذى تتوق اليه ووعدتها أنت به،وهى تريد أيضا خاتما من العقيق ، وستطلب أشياء أخرى وجارية أخرى تخدمها ، على ألا تدخل زهرة الخوخ عندها أبدا ، وعلى ألا تذهب أنت اليها أيضا فى الوقت الحاضر لانها تشمئز من رؤيتك ! »

فوعدها وانج لنج بكل ذلك...وسره ألا يرى لوتس وشيدا حتى تهدأ سورة غضبها وينجز مطالبها !

وبقى أولاده الثلاثة ، وقد شعر بالخجل الشديد منهم ، لكنه كان يشجع نفسه بقوله : « ألست سيد هذا البيت ؟. أليس لى أن أستمتع بجارية اشتريتها بمالى ؟! »

وجاء الابن الأصغر فى المساء ، وكان وانج لنج جالسا يدخن فى الغرفة

الوسطى بينما (زهرة الخوخ) جالسة أمامه الى الجانب الآخر من المائدة في صمت وقد وضعت يديها في حجرها ، وراحت تنظر اليه كما تنظر الابنة الى أبيها . ثم وقف الابن الأصغر أمام أبيه عابس الوجه مقطب الجبين وما لبث أن قال : « الآن سأدخل الجندية . سأدخل الجندية ! » . ولكنه لم ينظر الى الفتاة وانما كان ينظر الى أبيه وحده !

ومن عجب أن وانج لنج شعر بالخوف من هذا الفتى وهو الذى لم يخف ولديه الآخرين . وأراد أن يقول له شيئا وأخرج غليونه من فمه ولكن لم تنطق شفتاه بلفظ ، وعاد الفتى يقول : « الآن سأذهب من هنا ! »

ثم التفت الى الفتاة فجأة ونظر اليها فغطت وجهها بيديها حتى لا تراه! . وعندئذ خرج الفتى من الغرفة ، فالتفت وانج لنج الى (زهرة الخوخ) وقال لها برفق وانكسار : « انى كبير السن بالنسبة لك يا حبيبتى ، وانى لأعلم ذلك علم اليقين . اننى رجل شيخ ! »

ولكن الفتاة بكت وقالت : « ان الشبان قساة القلوب ! . وأنا أوثر الشيوخ ! »

ولما انبلج الصبح كان الابن الاصغر قد غادر البيت الى حيث لا يدرى أحد!

الأرض الطيبة

كما يموج الخريف بحرارة كاذبة قبل أن يستحيل شتاء ، كذلك كان حب وانج لنج للفتاة (زهرة الخوخ) فقد زالت حرارته القصيرة المدى وانقضت عاطفته وشيكا ، وصار وانج لنج شغوفا بتلك الفتاة ولكن من غير عاطفة أو هيام . وهكذا وجد نفسه فجأة شيخا كبيرا بارد الحس ، ومع هذا مكث ميالا اليها ، يرتاح الى وجودها معه فى الغرفة ، وكانت تخدمه فى أمانة واخلاص ، وكان دائم الشفقة عليها ، وقد انقلب غرامه لها حبا أبويا رقيقا !.. ومن أجله كانت رحيمة بابنته البلهاء ، وبعد ذلك صار يؤثر العزلة ولا يجد عزاء الا فى هاتين الاثنتين !

وهكذا صارت الايام تمضى وهو يوغل فى الكبر ، وصار ينام تحت أشعة الشمس كما كان أبوه يفعل من قبل !

وكان فى القليل النادر يذهب الى الغرف الداخلية ويرى لوتس . ولكنها كانت لا تذكر قط الفتاة التى اتخذها لنفسه ، وانما كانت تحييه تحية طيبة ، وقد أصبحت هى أيضا امرأة عجوزا ، هانئة بالطعام والخمر ، وبالفضة التى تنالها كلما طلبتها . وكانت تجلس مع كوكو كصديقتين لا كسيدة وخادمة ، وتتحدثان عن أمور شتى ، وتأكلان وتنامان ، ثم تعودان الى الحديث قبل الأكل والنوم !

واذا ذهب وانج لنج الى غرف ولديه كان يلقى الاحترام والترحاب ، وكان يسأل عن أطفالهما قائلا : « كم لى من الأحفاد الآن ؟! » . فيقول أحد ولديه : « ان لأولادك الآن أحد عشر ابنا وثمانى بنات ! »

وهنا كان يضحك بصوت كصوت الدجاج ويقول : « أضيفوا اثنين كل عام ! » . ثم يجلس وأحفاده حواليه ، فينظر اليهم ويقول : « هذا يشبه جد أبيه ، وهذا تبدو عليه ملامح التاجر (ليو) .. وهذا كما كنت أنا فى صغرى ! »

ثم يسألهم قائلا : « أتذهبون الى المدرسة ؟ » . فيجيبون جميعا : « نعم يا جداه ! »

فيسألهم : « وهل تدرسون الكتب الأربعة ؟ » . فيجيبون ضاحكين من كبره وجهله : « كلا يا جداه !. لا أحد يدرس الكتب الأربعة منذ الثورة ! »

وهنا يقول لهم : « لقد سمعت عن الثورة ، ولكنى كنت دائما مشغولا بأرضى فلم أحضرها ! »

وبعد حين صار لا يذهب الى ولديه وأحفاده ، ويكتفى بأن يسأل كوكو : « هل اصطلحت زوجتا ولدى معا ؟ » . فتجيب كوكو قائلة : « انهما كالهرتين ترقب احداهما الأخرى !. غير أن ابنك الاكبر يضجر من شكاوى زوجته ، ومن حديثها الدائم عما كان فى بيت أبيها . وهى مضجرة حقا . وقد سمعت بأنه يعتزم اتخاذ امرأة ثانية . وهو يذهب كثيرا الى بيوت الشاى ! »

وسألها مرة أخرى : « ألم تسمعوا شيئا عن ولدى الأصغر الذى سافر من زمن بعيد ؟ »

فأجابت قائلة : « انه لا يكتب خطابات ولكن أحيانا يأتى أحد من الجنوب فنعلم أنباءه منه ، ويقال انه أصبح الآن ضابطا كبيرا وله شأن عظيم فى شىء يقال له (الثورة) ولكنى لا أدرى أى نوع من الاعمال هذا الشىء ! »

وكلما حل الربيع ، شعر وانج لنج برغم كبره وضعفه وعدم اكتراثه لشىء ، بحنين الى أرضه . لقد ترك الارض منذ سنوات بعيدة واستقر فى بيت كبير كرجل واسع الثراء ، ولكن أصوله كانت فى بطن الأرض ، واذا نسى الارض شهورا متوالية فقد كان يتذكرها فى الربيع فيذهب اليها ليزورها !

انه الآن لا يستطيع أن يسوق محراثا ، ولكنه يذهب ليرى غيره يحرث ويزرع . وأحيانا كان يأخذ معه خادما يحمل له فراشا ويقضى ليلته فى بيته الريفى ، فى السرير الذى شاركته فيه أولان ثم ماتت عليه . فاذا انبثق الفجر قام من فراشه وذهب الى الارض ليلتقط قطعة من الصفصاف أو زهرة من الازهار فيمسكها فى يده طول يومه !

وفيما هو يتفقد أرضه فى يوم من أيام الربيع ، وجد نفسه عند المقبرة التى أعدها لأسرته فوق أحد التلال ، ودفن بها من ماتوا من ذويه . ووقف متكئا على عصاه يرتعش من الكبر ، ونظر الى القبور فتذكرها واحدا بعد آخر . لقد أصبح من ماتوا ودفنوا هاهنا أقرب اليه من أبنائه الذين يعيشون معه تحت سقف بيته ما عدا ابنته البلهاء المسكينة و (زهرة الخوخ) .. وعاد به ذهنه سنوات عديدة الى الوراء ، حتى تذكر أيضا ابنته الثانية التى لم يسمع عنها شيئا منذ زمن طويل ، وكانت محببة اليه مثل هؤلاء الذين أصبحوا فى جوف الثرى .. ثم قال لنفسه أخيرا : « ساكون هنا قريبا !» . ثم دخل المقبرة ورأى البقعة التى سيدفن فيها تحت قبرى أبيه وعمه وفوق قبر تشنج وغير بعيد من أولان .. وأمعن النظر فى تلك القطعة من الارض التى سيرقد فيها ثم غمغم قائلا : « يجب أن أرى التابوت »

ولما عاد الى المدينة بعث فى طلب ابنه الاكبر . ولما جاء قال له : « أريد

أن أقول لك شيئا ! » . فقال له ابنه : « انى مصغ اليك »

ولكنه نسى ما أراد أن يقوله ، فبكى لتأثره من ذلك ونادى زهرة الخوخ وسألها عما كان يريد أن يقوله . ولما كان هذا بعيدا من علمها فقد أعادت عليه السؤال نفسه . وهنا تذكر ما كان يريد أن يقوله لابنه فقال : « لقد اخترت بقعة الارض التى أدفن بها . انها تحت قبرى أبى وعمى وفوق قبر أمك وقريبة من قبر تشنج .. وأريد أن أرى تابوتى قبل أن أموت ! »

فصاح ابنه كما ينبغى له وقال : « لا تقل ذلك يا أبى ، ولكنى سأصدع بأمرك ! »

ثم اشترى ابنه له تابوتا من خشب ذى رائحة زكية ، وهو خشب صلب كالحديد يبقى على الزمن حتى بعد أن تنخر العظام . وخطر لوانج لنج خاطر مفاجىء فقال لابنه : « أريد أن ينقل هذا التابوت الى البيت الريفى وفيه أمضى أيامى الاخيرة وفيه أموت ! »

ولما رأوا تصميمه على ذلك ، نفذوا له رغبته ، فانتقل الى البيت الريفى مع زهرة الخوخ وابنته البلهاء ومن يحتاجون اليه من الخدم !.. وهكذا عاد وانج لنج يعيش فى أرضه ، وترك البيت الكبير الذى فى المدينة للأسرة التى أسسها !